إيريك لو

مُجَنَّدُون مَنْسِيُّون

مُقدِّمةٌ لِصراعِ فلسطينَ مِنْ أجْلِ البَقاء

ترجمة الأستاذ الدكتور : محمود السلمان

"عرض صادق كتبه الجنود الذين كانوا هناك؛ كتبوه من وجهة نظرهم. وقد عانوا من نتائج حماقة السياسة وضعفها" - برين سويل





مُجَنَّدُون مَنْسِيُّون

مجنّدون منسيّون - مُقدّمةٌ لِصِراعِ فلسطينَ مِن أجْل البقاء

تأليف: إيرك لو

ترجمة: الأستاذ الدكتور محمود السلمان



المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2023/1 /15)

956,401

أو.أيرك

مجندون منسيون / ترجمة : محمود السّلمان - عمان : المترجم، 2023

(   ) ص

ر. إ.: 15/ 1 /2023

الواصفات: الاحداث السياسية// الأنتداب البريطاني عن فلسطين - 1918 - 1948//المذكرات // تاريخ فلسطين/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفية ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.





إهداء

إلى إريك لو، الذي بذل جهودًا جبّارةً للدفاع عن الحق

محمود السلمان



الشكر

الشكر لأندرو الذي منحني حق ترجمته.

وإلى الأستاذ تيسير علوه، الذي لفت انتباهي لهذا الكتاب القيم.



الإهداء

إلى ذكْرى الجنود، السبعمئة والأربعة والثمانين، من القوّات المُسَلَّحة الإنجليزيّة، الذين فَقَدُوا حياتَهم في فلسْطينَ في سَنواتِ الانْتدابِ البريطانيِّ الأخيرة (1945-1948م).

وإلى زَوْجِيَ (دورثي جويس) التي صَبرتْ كُلَّ الصَّبْر، وكانت مُتسامحةً معيَ رغمَ الإزعاجِ الذي رافق تأليفَ هذا الكتاب.

مُجازٌ مِن قُدامى المُحارِبينَ في فلسطين

مجنّدون منسيّون- مقدمةٌ لصراع فلسطين من أجل البقاء

طبعةٌ خاصةٌ من كتاب (مُجَنّدُونَ مَنْسيُّون- مقدّمةٌ لصراع فلسطينَ من أجْل البقاء) بيعَتْ لخمسمئة رجلٍ وامرأةٍ خَدَموا في فلسطين بينَ العامين: 1936 و 1948م، وقد كانت تلك الطبعةُ نسخةً تجريبية للتحقق من سلامة المشروع قبل نشره على نطاق واسع. وبدون حَثّ، وُوفِقَ على محتوى الكتاب في رسائلَ ومكالمات هاتفية عديدة، وقد أجمعوا على أنّ محتواه دقيقٌ ويَعكس وجهةَ نظرِ قدامى المحاربين.

وأُورِد هنا بعض التعليقات من تلك الرسائل:

- «شكرًا لكتاب (مجنّدون منسيّون) الذي وَجدتُه مُبهِجًا وماتعًا ومليئًا بالمعلومات. لقد أصبحتُ متنوّرًا بذلك أكثر».

(تريفيور هول/ سلاح المدفعية الملَكي؛ مؤلِّف كتاب «استمرار الساعة»)

- «إنّه كتابٌ ماتعٌ وغنيٌّ بالمعلومات، ولا بد أن أعودَ إليه مراتٍ عديدة».

(د. أتش. دي لا هايا دافيس أم. أي (اوسن) بي. أم، بي شا، دي. أم. جي/ سلاح المدفعية الملكي)

- «عندما بَدأتُ أقرأ الكتابَ لم أستطعْ أن أضعه جانبًا، ويجب أن أُهنئكَ على المعلومات التي أوردتَها مُجْتَمِعةً بطريقةٍ ماتعةٍ تستحوذ على القارئ».

(جون تارين/ سلاح ذخيرة الجيش الملكي)

- «مِن قلبيَ أهنئك على هذا الوصفِ المُبهِر الذي لا بدَّ أنه استلزمَ قَدْرًا كبيرًا من البحث».

(بيتر أتش. ستيلي/ سلاح مُهندِسي الآليّات والإلكترونيات الملكي)

- «وَصْفٌ دقيقٌ للإحباط والمخاطر وخسارة الحياة؛ كان قد مرّ بها الرجالُ والنساء الذين تَجنّدوا في الحَمْلة التي اتضح أنها كانت غيرَ مَسنودة».

(دبليو ألين- مونسي/ سلاح ذخيرة الجيش الملكي)

- «أرجو أن تَتقبّل تهانيَّ على الهيئة التي ظَهرَ بها عملُك كلُّه، فقد كان الكتابُ كاشفًا لي».

(هاري بيبر/ كتيبة المشاة)

- «شكرًا كثيرًا على كتابكَ الممتاز «مجنّدون منسيّون»... لقد تَفوّقتَ في وصفك تاريخَ الأراضي المقدسةِ من الماضي البعيدِ إلى الحاضر».

(هوارد ألين/ سلاح عتاد الجيش الملكي)

- «قراءةٌ رائعةٌ تُعيدك إلى الظروف الصعبة التي كنّا فيها جميعًا في ذلك الوقت. ويساعد كتابُك أيضًا في تسليطِ الضوءِ على الظرف السياسيِّ الذي كنّا نَجهله في ذلك الوقت».

(بيتر مارتش/ سلاح الفرسان الملكي الرابع والسابع)

- «لقد قمتَ بعملٍ رائع». (آلان روز/ الإشارة الملكية)

شكرٌ وتقدير

المحاربونَ القدماءُ في فلسطينَ منتشرونَ في بريطانيا العظمى كلِّها، وكان التواصلُ معهم مُعظمُهُ بالهاتف أو الرسائل. وفي ثماني سنين، كَتب ما يفوق المئتين من المحاربينَ القدماء في فلسطينَ ما يزيد على ألفين وخمسمئة رسالة: مُذكراتهم، وذكرياتهم، وخبراتهم؛ وقد شَكَّلتْ بمجموعها فهمًا لحياة جيشٍ يَتكون جُمهورُه من مجنَّدينَ خَدموا في الاشتباك الأول بالإرهاب فيما بعد الحرب. وأنا مدينٌ لهم جميعًا، فقد زَوّدوا الأعدادَ الخمسةَ عشرَ من صحيفةِ (قصاصات فلسطين) بمقالات وصور وكثيرٍ من المواد التي استَخدمتُ بعضَها في كتابي هذا. وأسماءُ الرفاقِ القدماءِ وعناوينُهم التي جَمعها الرقيبُ السابقُ (أليكس مونغان) والعريفُ (برين كروس) والرقيبُ (جون تاران)، شَكلتْ نواةَ قائمة الاشتراك والتوزيع. ومن ثَمَّ جَعلَ ابنيَ (أنردو) من فكرةِ المجلة واقعًا، كما ويجبُ أن أشكره أيضًا لأنه حَرَّرَ الصورَ المبثوثة في الكتاب.

الذكرياتُ غيرُ المنشورة للرّقيبيْن (كين براون) و(تشارلي أيلز) والعريفِ (جيس أوبراين) والجنديِّ (كين باركر)، ومادةٌ ما قبل الحرب للرائد (بيل هورد)، والادعاءُ التحريضيّ التشهيريّ الذي بَحثه (ليزلي مورجان)؛ ذلك كلُّه له قيمةٌ كبيرة لمخطوطة البحث.

أشكرُهم جميعًا، حتى الذين لم أستطع استخدامَ ما أَرسلوه.

وشكرٌ خاصٌ للسيدة (أيرين كولينز) على الصورة التي أَرسلَتْها، وتقريرِ الـ(بي بي سي) عن اختطافِ زوجها.

ولكي نَضع خبرتَنا الشخصيةَ في سياق الأحداث السياسية وتسلسلها في ذلك الوقت؛ لا بدَّ من الاعتماد على بحث الآخرين، وقد نُوِّهَ لهم في آخر كلِّ فصل. وكان كتابُ (اللُّورْد نيوكلاس بيثيل) الموسومُ بـ(مثلّث فلسطين) المرجعَ الأساسيّ الذي اعتمدتُ عليه؛ ففي كتابه الشاملِ هذا غَطّى مُدةَ الانتداب كلَّها من دون أيِّ تأثير للدعاية.

يقول (إي. جي. بي. تايلور) عن هذا الكتاب: «قصةٌ لا يمكن أن يقرأها إنجليزيٌّ من دون أن يشعر بالخجل».

لا يستطيع أيُّ كتاب أن ينقل كلَّ تصريح سياسيٍّ وكلَّ توثيق كُتبَ أو حادث مَرَّ على المشكلة الفلسطينية. وقد بَحث (بيثيل) بحثًا مكثفًا وبأسلوبٍ لا نظيرَ له حتى الآن!

وهو يَعترف -تبريرًا- بالسنوات التي أمضاها (أولين جيلسبي) بمكتب السجلات العامة باحثًا في الوثائق الحكومية.

ومن العناصر التي لا نقصَ فيها -في سنوات البحث الثمانية- مساعدةُ وتشجيعُ كثير من الجنود الذين أثبتُّ أسماؤهم في الفهرس، وكثيرٌ منهم لم تُنْشَر مادتهم البحثية بعدُ، وما تزال في وثائقي المحفوظة (أرشيفاتي).

وقد عَزَّزَ ثقتي اهتمامُ شخصيات مُعتبَرة، في سنوات عديدة، ومنها: (روبرت فيسك) مراسلُ صحيفة (الإنديبيندنت) في الشرق الأوسط، و(برين سويل) المؤلِّفُ والمذيع، والمرحومُ الدكتور (مو ماوليم).

وقد صوَّرت السيدةُ (ميشيل رينوف) التي بدأ اهتمامُها مع بداية الكتاب، مقابلتي الصّحفيَّ (فيليب نايتلي)، من أجْل استخدام جولاتها لإلقاءِ محاضرات.

وفي الشهر الأول من العام 1991 م طَبع العريفُ السابقُ (مالكولم إستلي) الفصولَ الأربعة الأولى من مخطوطته، وإذا ما طبع كتابه كانَ قفزةً كبيرة إلى الأمام.

وُلدَ (مالكولم) في السنة ذاتها التي وُلدْتُ فيها، وخَدم معي بالمعسكر نفسه في فلسطين، وفي المستودع عينه أيضًا، ولكننا لم نتقابل تَقابُلَ الأصدقاء المعارف قطُّ؛ فَفرصةُ تقابلنا في هذا المشروع فرصةٌ طيبة، وقد نَسخ (خرابيشي) على قُرصِ تخزين مُدمَج (CD)، لكنه كان أكثرَ من ناسخ؛ فقد كان يَرفع معنوياتي حينما يكون الحملُ ثقيلاً؛ لقد قام بمهمة التحرير والتعديل والتصحيح وإعادة الصياغة أيضًا، بإتقان باهر! ولأننا عشْنا عهدًا مثيرًا في حياتنا، قَصَدْنا كلانا هدفًا واحدًا، وهو طباعةُ قصتنا.

صورةُ الغلاف: أعضاء مستودع العتاد في فرقة المشاة الثالثة في (فيلد بارك).

قَدَّم الصورة: (جون دارنيل)

المحتويات

المُقدّمة

الخدمةُ الوطنيّةُ -كما تُسمّى اليوْم- مَقبولة، بدأتْ العامَ 1947م وتَنْتهي في العام 1962 م. ولكنّ التجنيد بدأ في العام 1939م لأنّ بريطانيا كانت تتجهز للحرب في أوروبا، وقد كانت آخرُ دعوةٍ إلى تجنيدِ المجنَّدين في العام 1960 م.

انتهت الحربُ العالميةُ الثانيةُ عامَ 1945م، ولكنْ بقي التجنيدُ مهمًّا لتحضير فوضى ما بعد الحرب. ولم يُعْطَ الرجالُ الذين طُلبوا للخدمة الوطنية بينَ نهاية الحرب وبداية الخدمة الوطنية التزامًا واضحًا فيما يتعلق بطول مدةِ خدمتهم؛ وأُعطوا رقمَ «العمر والخدمة» المعروفَ أكثرَ بـ(رقم جماعة التّسريح). وبعدَ توقّف الاعتداءات في أوروبا، طالبتْ أممٌ عديدةٌ داخلَ الإمبراطورية البريطانية بالاستقلال. وكانت فلسطينُ المكانَ الأول الذي حَصَلتْ فيه فوضى بعد الحرب، فقد عاد الخلافُ الذي هدأ أيامَ الحربِ للغليانِ عامَ 1945م.

ولأنها تبعتْ بسرعةٍ الحربَ الرهيبةَ التي احتَدمتْ في أوروبا وآسيا، لمْ تُدْرَكْ أهميتُها كما يجب. وبالتأكيد، فإن رجالَ السياسة اليومَ لم يُدرِكوا النتائجَ المأساوية التي ما زالت ترافقنا بعدَ ستين عامًا!

(مُجنّدون منسيّون) كتابٌ عن المجنَّدينَ الذينَ حوصروا في ذلك الصراع الذي أسفرَ عن خسائرَ غير مقبولة في الأرواح، وقد كان -رغمَ هذا كلّه- يُعَدُّ «صراعًا وقتَ السّلم»؛ فلمْ يكنْ قتالاً بحجم الحرب العالمية الثانية: لمْ يكن هناك معاركُ ملحميّة ولا عدوٌّ واضح؛ لقد كانَت حربًا ضدَّ الإرهاب لمْ تكن لها في الصحف تلكَ الخطوطُ العريضة من عناوين المعارك البريطانية الألمانية في الحرب العالمية. لقد شاركتْ عناوينُ الصحف في المشاكل المحلية لما بعد الحرب.

مُجنَّدو ما بعدَ الحرب كانوا أطفالاً في العام 1939م حينما بدأَت الحربُ العالميةُ الثانية؛ لقدْ عاشوا في إحباطات الثلاثينيات، واعتادوا الصعوبة، وقَبِلوا الأنظمةَ التي تطلّبتْها حياةُ الخدمة. وقليلٌ منهم الذين خرجوا من الوطن، وبعضُهم لمْ يرَ الشاطئ ولا البحر! وإرسالُهم إلى ما وراء البحار كان بالنسبة إليهم مغامرة.

لمْ يَكن عددُ الذين قُتلوا في اشتباكات فلسطين معروفًا بدقة. فما كان معلومًا هو أن سبعَمئة وأربعةً وثمانينَ من أعضاء خدمات الجيش الذين ماتوا بينَ العامَيْن 5491م و8491م دُفنوا في فلسطين. وأمّا اشتباكاتُ ما بعد الحرب فإنّ أعدادَ الموتى في الحرب الكورية كانت تُنذر بأنها العليا.

ولم يَشمل ذكرُ الصحف اشتباكات ما بعدَ الحرب فلسطينَ، حتى أنّ الـ(بي بي سي) حذفتْها من نشرةِ الأحد كلِّها المختصة بالنزاعات المسلحة. كثيرٌ من الحروب ادُّعيَ أنها نُسيَتْ، كما أنّ جيوشًا كثيرةً ادّعَت الادعاءَ ذاتَه. وعلى كلٍّ، لا شيءَ يَستحق لفتَ النظر بهذا الشأن إلا حملة ما بعد الحرب في فلسطينَ التي لا وجودَ لها في وعي العامة؛ فأُلِّفَ هذا الكتابُ لملء هذا الفراغ.

وقد أُلِّفتْ عن فلسطينَ كُتبٌ عديدة؛ بعضُها كتبه أناسٌ كانوا هناك، وأخرى لأناسٍ لم يكونوا هناك، ومنها ما أعدّه سياسيون وموظفون حكوميون، وأخرى كتبها إرهابيون يهود، وقليلٌ منها صنّفَه ضباطُ جيش كان لهم تجاربُ شخصيةٌ فريدة. وكَتب الباحثونَ والمؤرخون الذين لم يُولدوا بعد العام 1945م كثيرًا منها، لكنّ جُلَّه متحيزٌ ومليء بالأكاذيب والمفاهيم الخاطئة والدعاية.

ثمةَ قليلٌ من الاهتمام بالمظالم التي يَلقاها سكانُ فلسطينَ المحليون، ولا تَبَصُّرَ في حياة المجندين الشباب ومشاعرهم، الذين وُجدوا في بوتقة الكره تلك. لا يُوجَد كتابٌ -حسب معرفتي- لعسكريٍّ عرضَ فيه وصفًا شخصيًّا لرفاقه بفلسطين الذين لم يكونوا أعضاءً في الوحدات القتالية، بل كان معظمُهم مجندين للقيام بأعمال مكتبية، أو رجال مخازن، أو سائقين، أو مُصْلِحي آليّات (ميكانيكيين). لقد غادروا من دون أن يَعرفوا إلى أين هم ذاهبون! ولا متى سيَصلون وجهتَهم، كما لم يُدركوا لماذا هم هناك!

حينما وصلوا لم يكونوا يَعرفون شيئًا عن الصراع العربي اليهوديّ، وكذا حينما غادروا أيضًا، ما عرفوا عن ذلك إلّا قليلاً! وقد عَمل اليهودُ كثيرًا منذُ إعلان بلفور؛ ورغمَ ذلك، وبعد ثماني عشرة سنة من وصولهم إلى فلسطين، من المظنون فيه أنْ يكونوا قد سَمعوا باسمه قبل ذلك!!

ولمّا عملْنا معَ الموظفينَ اليهود والعرب عرفناهم أكثر: كانَ العمالُ العرب اجتماعيينَ وفيهم روحُ صداقة مَيّزها العسكر، وكان التقاربُ مع العرب، وقد جرّبتُه شخصيًا كما جربه كثيرٌ، مفهومًا جدًا، لأننا عشنا الثلاثينيات الكئيبة وأوقات الحرمان في الحرب وسنوات ما بعد الحرب مباشرةً، وقد خَلق هذا تعاطفًا فينا تجاه العرب الذين كانوا يصارعونَ لكي يُطعموا أُسَرهم ويَكسوها. إن سلوك المقاتلين اليهود تسبّب بعَدَم الثقة بالعمال اليهود، ثم أَثبتَت الأحداثُ أنه كان في محله.

تَفاخُرُ إسرائيلَ باليوبيل الذهبيّ عامَ 1998م جَعلنا نَتحرّك، وتحركت الذكرياتُ التي كانت خمسينَ سنةً في سبات عميق، كما ثار أيضًا عدمُ الارتياح كالموج بين الرتب كافةً، من طريقة تهميش الصراع الثاني الأكثر وحشيّةً في فلسطينَ خلال عشر سنوات. والنتيجة كانت تأسيسَ جمعية خدمات المحاربين القدماء، التي تَجتمع كلَّ سنة في تشرين الأول بمعسكر (أيدين) شمالَ (يوركشير).

لم يَكن هناكَ أيُّ نَصْب تذكاريّ للذين قُتلوا ما بينَ العامين 1945 و1948م فأقمنا نحنُ نَصْبَنا الخاصَّ بنا في حديقة النُّصُبِ التذكارية الوطنية في (أريواس)/ (سترافوردشير).

لقد كان طموحي أن أؤلف كتابًا عن فلسطينَ من وجهة نظرِ جنديٍّ مجنَّد، لكي أَجمع تجارب رفاقي وذكرياتهم. أَنشأتُ مجلةً أسميتُها (قصاصات فلسطين)، وهي لأعضاء سلاح عتاد الجيش الملكي (RAOC) وسلاح مهندسي الآليات والإلكترونيات، لحفظ ذكرياتهم وخبراتهم وتوثيقها.

تسلّمتُ ما يزيد على ألف رسالةٍ من مئتين واثني عشرَ محاربًا قديمًا من هذين السلاحيْن.

كتابُ (مجندون منسيون) لم يُكتب للأعمال البطولية التفصيلية؛ لم نكن نطارد إرهابيينَ أو نُفتش بيوتًا ومستعمرات.

هو قصةٌ بسيطةٌ لحياة مجنّدينَ شباب في بيئة عدائية. لقد كانت فرصتنا لنرى يهودًا وعربًا يَعملون معنا؛ لقد كنا هناك لنشاهد المرحلةَ الأخيرة من انتدابِ بريطانيا على فلسطين.

وعندما وَصلْنا المعسكرَ (153) قربَ حيفا كان الإرهابُ اليهوديُّ في أوجه. أُخبِرَ زملائي الجنود أن ادعاء اليهود بأن فلسطين وطنهم يشبه ادعاء الرومان بأن (إنجلترا) لهم. وقد يبدو هذا تبسيطًا كبيرًا للأمر؛ لكنه يُظهِر هذه المقارنةَ صحيحةً ومقبولةً لشباب في الثامنة عشرة من العمر، الذين أصبحوا على علاقة طيبة مع العرب. وحين وصلْنا هناك، كان كثيرٌ منا يَعُدُّون فلسطينَ «أرضَ اليهود».

وفي أثناء بحثي اهتديت إلى لزوم ألّا ننظر إلى الأمر مما عرفناه ورأيناه في السابق فقط؛ وذلك لتصحَّ وجهة نظرنا ونعرف لماذا تدخلتْ بريطانيا في هذه القضية.

كان لا بد من دراسةِ الأحداث التي سبقتْ العامَ 1945، والعودةِ إلى سنة 1917، عندما سيطرتْ بريطانيا والحلفاءُ على شبه الجزيرة العربية وأخذوها من الأتراك، رغم أن الصهيونيةَ الحركةَ القومية اليهودية ظهرتْ في منتصف القرن التاسع عشر.

أصبحتْ بريطانيا جزءًا من موضوع فلسطين منذ العام 1917م، عندما أصدر (بلفور) إعلانه، وأصبح الحلم الصهيوني أقرب ما يكون إلى التحقق.

وقد وصل إلى صحيفة (قصاصات فلسطين) رسائلُ عديدةٌ تصف الخبرات والمواقف التي مر بها جنودُ سلاح العتاد الملكي منذ العام 1936م. (تألَّفَ سلاحُ مهندسي الآليات والإلكترونيات الملكيُّ من سلاح العتاد الملكي).

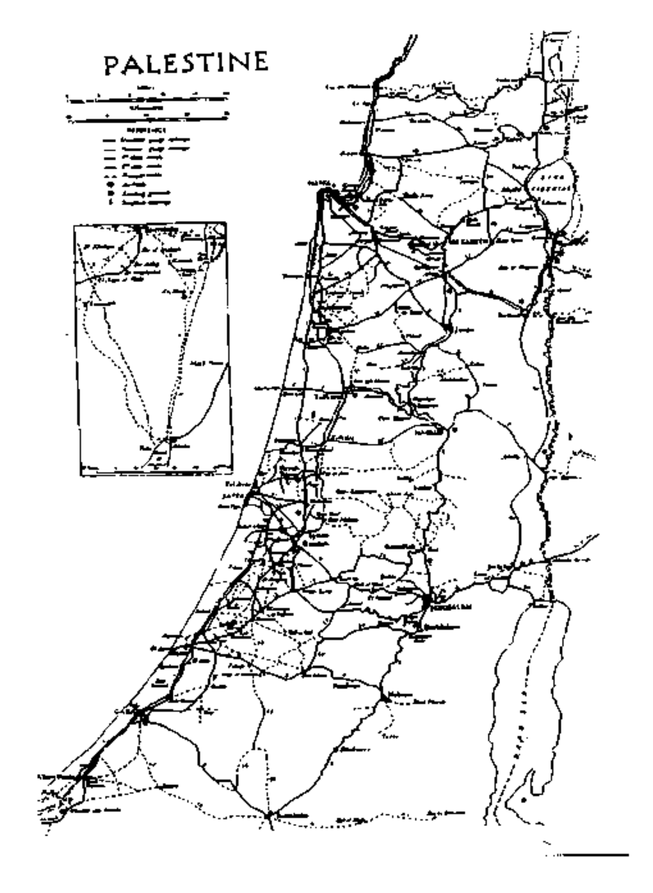
والمعلوماتُ ذاتُ الصلة بالتواريخ التي تسبق العام 1936م جاءت جميعُها من الأعمال التاريخية لمؤلفين آخرين. لم أكن أنوي تأليف كتاب تستطيع أن تحصل على معلومات فيه من مصادرَ أخرى. يُغطي هذا الكتابُ بعض الأحداث

الصادمة التي كانت سببًا في بعض الأحداث التالية.

لقد تساءل -دائمًا- الجنودُ الذين عملوا في فلسطين عن سبب تجاهل كثيرٍ من المؤرخين الأحداثَ المحزنة في التاريخ البريطاني، فضلاً عن تجاهل الصحفِ لها أيضًا. وتقليديًّا كانت تُهمَّش بوضوحٍ من قِبَل الحكومات المتعاقبة.

أتمنى ألا يكون سببُ ذلك هو الخوفُ من الظهور على أنهم ضد السامية، أو أنّ موقفهم السياسي كان خطأً.

قبل شهر أيار من العام 1948م لم يكن هناك شيء اسمه إسرائيل، والفلسطينيون كانوا إما يهودًا وإما عربًا. ولم يُسَمَّ هؤلاء إسرائيليين إلا بعد إعلان دولة إسرائيل.



1- بُذورُ الاسْتياء

الأعباءُ الصعبةُ والطويلةُ التي واجهتْها بريطانيا في فلسطينَ بدأتْ عندما احتلتْ قواتُ (الجنرال إدموند هنري هاينمان ألنبي/ إدموند ه. ه. ألنبي) مدينةَ القدس بعدَ أربعمئة سنة من الحكم التركيّ، وكان ذلك في الحادي عشر من كانون الأول عام 1917م، لمّا دخل ألينبي من بوابة عكّا إلى المدينة المقدسة. ورغم أنه مشى عبر البوابة؛ دخل المدينةَ المقدسة راكبًا حصانًا أبيضَ، لكي يُوافق بعضَ الأساطير المحلية في أن المدينةَ المقدسة سيحررها رجلٌ يَدخلها على حصان أبيض. ومشابهةُ كلمة (ألينبي) الكلمةَ العربيةَ (النّبيَّ) دعمتْ هذه الأساطير. وفي العام 1920م أوكلتْ عُصْبةُ الأمم بريطانيا مسؤوليةَ فلسطين، وبذلك أصبحتْ تحت الانتداب البريطاني. دَعم قادةُ القبائل العربية -وقد تَعبوا من الحكم التركيّ- بريطانيا في حربها من أجل شبه الجزيرة العربية في شهر تشرين الأوّل من العام 1915م، وهذا التحالفُ (الأنجلو- عربيّ) تَعرّض للهدم عام 1918م بعد فضْح ما تُعْرَفُ بـ(روسيا)، التي أصبحتْ بعدُ دولةً شيوعية، اتفاقيةَ تقسيم الوطن العربيّ السّريّةَ المعروفةَ باتفاقية (سايكس- بيكو): ففي العام 1916مَ اتّفق (جورج بيكو) ممثّلُ الحكومة الفرنسية، و(مارك سايكس) ممثّلُ الحكومة البريطانية، سرًّا، من دون العرب، على أن تَحتفظ بريطانيا بالعراق والأردن وفلسطين، وتَحتفظَ فرنسا بلبنانَ وسوريا. وعلى الرغم من رفضِ العرب هذه الاتفاقيةَ؛ قبلوها في آخر المطاف متسامِحين!

في ذلك الوقت، كان عددُ سكان فلسطينَ -تقريبًا- مليونًا، وحجمُها يُقارب حجمَ (ويلز)، وكانت هناكَ بلدةٌ يهوديةٌ واحدةٌ وثلاثَ عشرةَ مستعمرة، في حين كان هناكَ أربعَ عشرة بلدة فلسطينية؛ وستمئة واثنتا عشرة قرية عربية، وخمس بلدات فيها خليطٌ من السكان. كان العربُ اثنين وتسعين بالمئة من السكان.

ولَمّا دَخلتْ تركيا الحربَ العالميةَ الأولى حليفًا لألمانيا، غادرَ آلافٌ من اليهود البلد.

ومع نهاية الحرب، أصبح عددُ السكان اليهود ثلاثة وستين ألفًا وفقَ ما تقول المصادرُ اليهودية.

كانت الرغبةُ في التخلص من الأتراك في مناطق الصحراء الجنوبية من شبه

الجزيرة العربية أكثرَ منها في المناطق الشمالية. وكانت بريطانيا وفرنسا مهتمَّتَيْن بالبلاد المستقرة فقط، التي تقعُ في منطقة الهلال الخصيب. وكَمُسْلمين: احترمَ الأتراكُ أماكنَها المقدّسة وأهميتَها التاريخية، وقد أُعجبوا بطريقة إدارة السكان لتلك الأماكن. وفي القرن التاسعَ عشر، كانت فلسطينُ جاذبةً للسياح المسيحيينَ الإنجليزيين والأوروبيين، وفضلاً عن الفنادق الرائعة للسّيّاح، كانت الأديرةُ أيضًا أماكنَ يَسكنها السائحون خلالَ زياراتهم. وفي تلك المدة كان من الممكن الوصولُ إلى فلسطين من بريطانيا في ثمانية أيام.

في العام 1908م اكتَشفتْ شركةُ النفط (الأنجلو- فارسية) النفطَ في فارسَ القريبة، حيث تُشبه التضاريسُ هناك تضاريسَ العراق، واكتُشف أيضًا حقلُ نفط كبيرٌ في كركوكَ شمالَ العراق عامَ 1927م، ومُدَّ أنبوبُ نفط يَصلُ إلى ميناء حيفًا، وفي الوقت ذاته سيطرتْ فرنسا على طرابلس في لبنان.

وهذا يُفسر حرْصَ بريطانيا على السيطرة على العراق وفلسطين.

ونحنُ -مَن خَدَمَ في فلسْطينَ في الفترة المُمتدّة من 1945م إلى 1948م- كنّا نَفترض أنّ الظرفَ الصعب الذي وَجدْنا فيه أنفسَنا في قلبِ الحدث ناتجٌ عن القرارات غير الموفقة في الثلاثينَ سنةً الأخيرة. ورغم ذلك، دعمَ (بيير فان باسين) نظريّةَ المؤامرة التي تَرى أنّ تلك الفوضى من صُنع بريطانيا لتسوّغ إبقاءَ فلسطينَ تحتَ حكمها على الدوام. و(باسين) هولنديُّ الأصل والمولد، كنديُّ الجنسية، عَملَ صحفيًّا في أميركا، وكان يظن أن تلك الأحداثَ والفوضى السائدة في فلسطينَ مِن صنعِ بريطانيا، لكي يبقى العربُ واليهودُ في عداءٍ وتوتّر، وتبقى بريطانيا مسيطرةً علَى الأوضاع.*1

وفي العام 1917م رَحّب رئيسُ الوزراء البريطانيّ (ديفيد لويد جورج) بهجرة الصهاينة المتسارعة، لأنه -على الأرجح- سَيُخفف من توجّه اليهود الأوروبيين والشرقيين نحوَ الغرب، وربما يكون هذا أيضًا حافزَ الأمريكيين في هذا الموضوع، لكنّ لم يكن الطرفان كلاهما يدركان النتائج النهائية لذلك. لقد أُعطي اليهودُ وطنًا قوميًّا بوثيقة خلافية تُسمّى (إعلان بلفور)[1]؛ وقد كانت رسالةً سريةً من

(1) المترجم: هذا هو التعبير العربي الصحيح المقابل لـ(Balfour declaration)، وليس (وعد بلفور) الذي نتج عن الترجمة الخاطئة وشاع شيوعًا كبيرًا، وكلمةُ (وعد) لا وجود لها في الإعلان ولا في تفاصيله.

(آرثر جيمس بلفور) الذي كان وزيرًا للخارجية ورئيسَ وزراء سابقًا، إلى (ليونيل وولتر دي روتشيلد) رئيسِ الاتحاد الصهيوني البريطانيِّ الذي يُعَدُّ القيادةَ الصهيونيةَ في بريطانيا، وكانت عائلتُه التي تأسّستْ عامَ 1747م من مُقْرِضي المال، وهي ذاتُ نفوذ وتأثير قويَّيْن على الحكومة. وفي العام 1875م استطاعَ (بنجامين دزرائيلي) شراءَ حصّة بريطانيا في قناة السويس بأربعة ملايين جنيه إسترليني قرضًا من عائلة (روتشيلد). وكانت طريقةُ كتابة الوثيقة مُحبطةً للصهاينة الذين كانوا يَنتظرون قيام دولة؛ إذ نَصّت الوثيقةُ على أنه لا يُمكن حدوثُ شيء قد يؤدي إلى حرمان المدنيينَ أو التأثير على الحقوق الدينية للمجتمعات غير اليهودية:

مكتب الخارجيّة

الثّاني من تشرين الثاني (نوفمبر)، 1917م

عزيزي (اللّورد) روتشيلد:

إنّه من دواعي سروريَ أنْ أَنقلَ لكم، باسْم حكومةِ صاحب الجلالة، الإعلانَ التالي المُعبِّر عن تعاطفنا مع طموحاتِ الصَهاينة اليهود، الذي كانَ قد سُلِّمَ وصادق عليه مجلسُ الوزراء:

إنَّ حكومةَ الملك تَعْملُ على تأْسيسِ وطنٍ قومي لليهود في فلسطين، وسوف تبذلُ كلَّ مساعيها لتسهيل تحقيق هذا الهدفَ. وكذلك من الواضح أنه لن يكونَ هناكَ فعلٌ قد يؤدي إلى التمييز ضدّ المجتمعات غيرِ اليهودية هناكَ وحقوقِها الدينية، وكذا الحقوقُ والوضعُ السياسيُّ الذي يَتمتع به اليهودُ في أيِّ قطرٍ آخر.

سوْفَ أكونُ شاكرًا إذا نَقَلْتَ هذا الإعلانَ إلى الاتحادِ الصّهيونيّ.

المخلص

آرثر جيمس بلفور

هذه الوثيقةُ الوحيدةُ التي غَرَسَتْ بُذورَ عَدم الارتياح أكْثَر منْ غَيْرها، هي التي كَلَّفَتْ دافعَ الضرائب البريطانيَّ كثيرًا من الأموال، فضلاً عن حياةِ عديدٍ من الشباب في صِدامٍ قاسٍ.

(بلفور)، و(لويد جورج) الذي صارَ رئيسَ وزراءِ بريطانيا فيما بعدُ، كانا من أوائل السياسيين الذين أعطَوْا فحوًى ومعنًى عَمَليًّا لحافزية اليهود في إقامة وطن لهم في فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى، وكلُّ محاولات الصهاينة لإقناع تركيا بذلك باءتْ بالفشل.

خِلْسَةً وبهدوء، بدأ الاستعمارُ اليهوديُّ لفلسطين عندما اشترى السيدُ (موسى مونتيفيوري) عقارًا قربَ يافا عامَ 1855م. وفي العام 1861م تأسَّس المجتمعُ العِبْريُّ اللّندنيُّ الذي كان من أهدافه توسيع استعمار الأرض المقدسة، وفي السنة ذاتها أُنشئت المدرسةُ الزراعية التي تُسمّى (مكفيه إسرائيل) قربَ يافا، وكان من أهدافها زيادةُ عدد اليهود الذين يَستعمرونَ فلسطين.

عُقِدَ المؤتمرُ الصهيوني الأوّلُ في (بال) في آب 1897م، وكان رئيسَه (ثيودور هرتزل) الذي يُعدُّ مؤسسَ دولة إسرائيل، وهو مُؤَلِّفٌ وكاتبٌ مسرحيّ أيضًا، وفي كتابه (الدّولة اليهودية) حاول أن يُقدّم رؤيةً لها، وبصفته مسرحيًّا وصحفيًّا وَضع شعارًا اِستَخدَمه الصهاينةُ من بَعدِه، وبدونِ خجلٍ، رغم أنه لا حقيقةَ له! وهو: «أرضٌ بلا شعْبٍ لشعبٍ بلا أرض».

وما يزال الصهاينةُ المُتحمِّسون يَسْتخدمونه بعد مرورِ مئة سنةٍ عليه!

وبحلول العام 1899م، كانَ هُناكَ ثماني مستعمرات يهوديّة تُغطي ثُلُثَي الأراضي التي يَمْلكها اليهود في فلسطين، يملكها (روتشيلد) وهي مُعْتَمِدَة عليه.

(حاييم وايزمان) اليهوديُّ روسيُّ المولد، كان في العام 1917م لاعبًا أساسيًّا في وضْعِ إعلان بلفور، وقد أصبح عامَ 1948م رئيسَ إسرائيلَ الأول.

وفي العام 2003م، أشار الرَّئيسُ الأمريكيُّ (جورج بوش) غيرَ مرّة في أثناء زيارته بريطانيا إلى العلاقة المُمَيَّزة بين بريطانيا وأمريكا، وأرْجَعها إلى العام 1917م حينما قَرّرتْ أمريكا دخولَ الحرب العالمية الأولى؛ تلك الحرب التي عَمل الرئيسُ الأمريكيُّ (وودرو ويلسون) المستحيلَ ليَبقى بعيدًا عنها حتى بدأ نشاطُ الغواصات الألمانية يؤثّر في تجارة أمريكا، وكان إعلان بلفور قدْ سُلِّمَ للموافقة عليه قبلَ أن يُمَرَّرَ للصهاينة.

لم يكن لدى السفير الأمريكي في بريطانيا (والْتر بيج) الذي أُخْبِرَ عن التدابير التي اتخذها مؤيّدو الخطة الصهيونية، أيُّ فكرة عن مدى تأثيرها بعدَ ثلاثين عامًا! وفي رسالة منه لولده في التاسع عشر من الشهر الأول لعام 1918م كَتب: «لمْ أَحملْ في عُمُري موضوعَ الحركة الصهيونية على محمل الجدّ. إنها مشاعرُ دينيةٌ حسْبُ، وسوف يُعبّر عنها عمليًّا قلّةٌ قليلةٌ من الناس»*2. وكانَ هذا قِلّةَ عقْلٍ في سياسِيّي أُمّةِ الحرْب عامَ 1918م.

وبعدَ هذه السنوات كلّها، يُفكّر المرء: كيف يمكن أن تكون إحدى أهمّ ديمقراطيات العالَم بهذا الجهل؟! الحقيقةُ أنّ بريطانيا كانت ما تزال إمبراطوريّة، وغَزْوُ الدول الأخرى كان مقبولاً عند الدول التي تقودُ العالَم في ذلك الوقت. أكسب بلفور نفسَه لقب (بلفور الدمويّ) بسبب معالجته الوضعَ المضطربَ في (إيرلندا) معالجةً خَطَأً حينما كان رئيسًا للوزراء.

وقد نَمَتْ بُذورُ المشاكل والاضطرابات التي زَرَعَها أكْثرَ عندما جعلَ (لويد جورج) (هربرت صموئيل) الذي يُعَدُّ يَهوديًّا مُمارِسًا، المندوبَ الساميَ في فلسطين في الثلاثين من حزيران 1920م. ورغمَ محاولة صموئيل الظهورَ بنوايا غير منحازة؛ نظر إليه السكانُ الغاضبونَ من العرب الفلسطينيين بعيْن الرّيبة. وبذلك يكون صموئيل أولَ يهوديٍّ يَحكم فلسطينَ منذ ألفي عام. وقد كان الأوروبيون الشرقيون ينظرون إليه أميرًا وكـ(سيروس) مَلِك فارسَ الذي حَرر اليهودَ من الأسْر البابلي. وفي السنين الأولى من وجوده في فلسطين مندوبًا ساميًا،

هاجرَ أربعةَ عشرَ ألفًا وستمئة وثلاثةٌ وستونَ يهوديًّا إليها؛ فكان ذلك كافيًا لحضِّ العرب على عَمَلِ اضطرابات ضدَّ السكان اليهود.

ونتيجَةً لاندلاع الاضطرابات بين العرب واليهود استُقدمَت قوّةٌ إضافيّةٌ لدعم قوات الشرطة في فلسطين عام 1929م: وَصل الجزءُ الأول من المشاة بالطيران من القاهرة، ووَصلتْ فرقةُ مشاة ومجموعةُ سيارات مُدَرَّعَة ووحداتٌ مساندة بعدَ ذلك بالقطار، ثمّ أنشئَ مَخْزنُ عتاد صغيرٌ في محطةِ سكة حديد اللدّ. وكان من القيادة الصغيرة رقيبٌ أوّلُ هو (هيويت) الذي شَغل منصبَ ضابطِ تفتيش العتاد الرئيس، وكان مكتبُه في إحدى قاطرات القطار. لقد خَفّت الاحتجاجاتُ عامَ 1927م، فقُلِّصَت القوةُ إلى ست كتائبَ ووحدات مساندة.*4. وفي العام 1938م عادت الاحتجاجات، فاسْتُدْعِيَتْ قوّةٌ من مصرَ والهند. ورغم ردة فعل العرب على وصول مهاجرين يهود؛ استمرّت الهجرةُ وأَخذتْ زخمًا جديدًا عندما حَكم (هتلر) ألمانيا، فمثلاً في العام 1932م بَلغ عددُ المهاجرين ثلاثمئة وثلاثة وخمسين، وفي العام 1933م زاد العدد حتى خمسة آلاف وثلاثمئة واثنين وتسعين. وعلى العموم، فإن التدفق السنوي للمهاجرين اليهود وصل ذروتَه عامَ 1935م بواقع واحد وستين ألفًا وثمانمئة وأربعة وأربعين مهاجرًا. باعَ بعضُ مالكي الأراضي العربِ من الغائبين أراضيَهم لليهود؛ فاضطرّ العمالُ العربُ فيها إلى ترك العمل، فاستُبْدِلَ بهم عُمّالٌ يهود، لكنّ ذلك لم يكن مفرحًا، لأن هؤلاء العمّالَ من أوروبا الشرقية، وكانوا يتبعون اتّحادَ عُمّالٍ، وهو ما يُلزِم أنْ تكون أجورُهم أعلى.

أثارَ السّماحُ للصّندوق الوطنيِّ اليهوديِّ بشراء الأراضي قلقَ المزارعينَ العرب الذين كانوا يَملكون الأرضَ أو يَعملون فيها. كانت أراضٍ كثيرةٌ مملوكةٌ للحكومة التركية أو المُلّاك الغائبين، وكان المستأجرون يَدفعونَ لها بنظام العشور، وقد اعتَرضتْ واحتجَّت الحركةُ الوطنية العربية للحكومة التركية قبلَ بداية الحرب العالمية الأولى. شَعَرَ كثيرٌ من الشعراء العرب بالخطر وكتبوا عن بيْع الأراضي؛

ومن روّادهم إبراهيم طوقان الذي وَجَّهَ سهامَ شعره نحْو السماسرة وبائعي الأراضي لليهود مُحَذِّرًا من ذلك بكلمات قاسية... لكنْ، استمرَّ البيع! ورغم شدّة قساوة الكلمات؛ لم تستطع اختراقَ آذان داعِمي الصهيونية في الحكومة البريطانية، وقد كان طوقان (الذي سَجَنَ والدَه البريطانيّون لعضويته في الحركة الوطنية العربية) ينتمي لعائلة نابلسية غنية. توقّعَتْ قصائدُ عديدةٌ لطوقان وقوعَ كارثةٍ على الشعب الفلسطيني مِن قبل عَدُوّيْنِ قويين، وهذا لا يعني سوى الإنجليز والصهاينة. وهذه أبياتٌ من قصيدةٍ كتبها عندما كان مدرِّسًا في الجامعة الأمريكية في القدس عام 1935م:

لنا خصمان: ذو حوْلٍ وطوْلٍ	وآخر ذو احتيالٍ واقتناصِ
تواصوْا بينهم فأتى وبالاً	وإذلالاً لنا ذاك التواصي
مناهجُ للإبادة واضحاتٌ	وبالحسنى تنفَّذُ والرصاصِ * 5

وفي العام 1936م، كان سلاحُ عتاد الجيش الملكي الأكثرَ تنظيمًا في فلسطين. ذَهبت الفرقةُ الخامسة إلى الجزء الشماليّ من الوطن، وقيادتُها في حيْفا، وغَطَّت الفرقةُ الأولى جزأه الجنوبي، وكانت قيادةُ السلاح والفرقة في القدس. وقد افتُتِحَ مخزنُ ذخيرة متقدّمٌ وورشةٌ متحرِّكةٌ لها في صرفند، ومع شهر آب أنشئَ مستودعٌ وموقفٌ لاستقبال العربات في حيفا.*6

وفي أيلول العام 1936م، رَكب الرائدُ (بيل هاورد)، الذي أُصبح وكيلاً فيما بعدُ في سلاح عتاد الجيش الملكي، قطارَ جنود في السكك العسكرية في ميدان (الدرشوت) متجهًا إلى (ساوثمبتون)، وقد كانَ كاتبًا في مكتبِ الرائد (هاري) في سلاح عتاد الجيش الهنديّ، ثمّ اسْتَقَلَّا -(هاورد) و(هاري)- السفينةَ (لورينتيك) المتجهةَ إلى حيفا، وكانت سفينةً مدنيّة عامَ 1936م، سعتُها ألف وخمسمئة مسافر، يَتمكن خمسمئة وأربعة وتسعون منهم من ركوب القُمْرَة، وكان (بيل) منهم، وهو محظوظ بذلك. لا شكّ في أن الظرف الطارئ كان سببَ إعطاء

(بيل) هذه الفرصةَ في ركوب كهذا؛ وهي فرصةٌ لا تُمنح عادةً إلّا لكبار الضباط. ولاحقًا تَحولتْ تلكَ السفينةُ إلى سفينةٍ لنقل الجنود، فأصبحتْ تَحمل عددًا مضاعفًا بالنسبة لما كان مُقرَّرًا لها، وقد رَسَتْ في حيفا التي جَعَلَها الإنجليزُ ميناءً رئيسًا في فلسطين عامَ 1936م.

وكَتب (بيل): «معظمُ وحدات العتاد نُقلَتْ إلى مستودعات العتاد في حيفا، وقد كانت خدمتي في القيادة العامة لفلسطينَ وشرق الأردنّ في القدس. وعندما وَصلْنا بالقطار إلى القدس سَكَنّا في خِيَم أُقيمت في بساتين زيتون قربَ فندق المَلك داود، وعلى ضبّاطنا أنْ يَكونوا في الطابق الثالث منه، والرّتبُ الأخرى تَدْخل إليه من المدخل الجانبيّ، وكان علينا تغييرُ (بساطيرنا) العسكرية وارتداء الأحذية العادية لئلا نُخرّبَ الدّرجَ الرخاميَّ للفندق».

ما خلا الطّابقَ الثّالث، كانَ فنْدقُ المَلك داود فندقًا عالميًا مزدهرًا وحيويًّا؛ فيه كلُّ وسائل الراحة المتوافرة في فنادق الدرجة الأولى في أوروبا، كما يمتاز بالبذخ الشرقي، وكان مكانًا لاجتماع كلّ الذين يَقْدرونَ على تحمّل التردد على حانته الساحرة وغُرف الطعام الوفيرة. وعلى كلٍّ، كانَ (بيل) والرّتبُ سُعداءَ جدًّا بالتسهيلات التي تُوفرها جمعيةُ الشبان المسيحيين.

مرافقُ ممتازة: حمامات، وبركة داخلية، وملعب (سكواتش)، وملعب كرة قدم، ومكتبة ممتازة، ومطعم ممتاز فيه طاولات (تنس)، وكان هناك نشاطاتٌ عديدة، مثل رحلات البحر الميّت، وزيارات في عيد الميلاد إلى حقول الراعي في بيتَ لحمَ لكي يَعيشوا أجواءَ ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

نُقِلَ الشاويشُ (برين كلارك) مِنْ شعبةِ سلاح عتاد الجيشِ الملكيّ (12) إلى صرفند عامَ 1948م.

«مَشاكلُنا في تلكَ الأيّام منَ العَرَب الذينَ يحاولونَ إطلاقَ النّار من الكمائن، أو وضْعَ الألغام في الطرق التي تَمُر بها العربات. أمّا في صرفند فقد طُلبَ مني ومن الشاويش (جو هيسكوك) أن نأخذ أسطولاً مؤلَّفًا من ثلاث عشرة عربةً

مملوءة بأدوات تُسْتَخْدَمُ لنصْب معسكر في الصحراء جنوبيَّ غزّةَ، يَهدف إلى إنشاء مخزن ذخيرةٍ أساسيّ في ذلك المكان. وعندما وَصلْنا لم نَجد سوى مدًى واسع من رمالٍ لا يُوجد عليها إلّا خزانُ ماء لا غير، أقامه المهندسون الملكيون.

نَصبْنا خيمةَ المخزن الأول، وأقمنا المعسكرَ (مُعسكرَ رفح) الذي أصبحَ كبيرًا فيما بعدُ، لكنّنا سُعدْنا حينما أُلزمْنا بتسليمه إلى الجزء المتقدّم من مستودع العتاد الأساسيّ».

كانت سَنَةُ 1938م، على الأرجح، ذروةَ اضطرابات العرب، وقد دَفعوا الثمن الأكبر؛ فالوَفَياتُ المسجَّلة: تسعة وستون من الإنجليز، ومئتان واثنان وتسعون من اليهود، وعلى الأقلّ ألف وستمئة من العرب والثوار وآخرين. وكانت الوحدات المختلطة من الإنجليز واليهود المعروفةُ بـ(الفرق الليلية الخاصّة) التي يقودها (أوردي وينجيت) مؤيّدُ الصهيونية، مخيفةً جدًّا للثوار والسكان العرب بسبب قسوتها، وكان كثيرًا ما يعمل خارج القانون؛ كان يُعذب الثوارَ ويضع المشتبه بهم في أقفاص تحت الشمس ساعات متواصلة! وكان له عاداتٌ غريبة، ومنها أنه كان يُنظف جسده العاري على مرأى العامة بفرشاة أسنان! ورغم ذلك كان تكتيكيًا عظيمًا ومساعدًا كبيرًا في الحرب العالمية الثانية.

كانت عقوبات الأهالي شائعة؛ فإذا حدثَ حادثٌ ووصلْنا إلى قريةٍ ما خلال تتبّعه، فلا بدَّ من تفجير منزلٍ فيها حتى لو لم يكن يأوي ثوارًا. كانت الغرامات الجماعية من أشدّ العقوبات القمعية التي تزيد الفقراءَ فقرًا وتعاقب البريء كما المذنب تمامًا. (سيدني بير) شرطيٌّ طيّبُ القلب، خَدَمَ في فلسطين وكَتَبَ لعائلته يومًا حول وظيفته في حيفا: «...وظيفتُنا هنا، إلى حدٍّ بعيد، تقوم على تنظيف فوضى المكان بعد حصول الجريمة، ونحن في حالة دفاع كلَّ الوقت». (والشرطةُ تعتمد على مخبرِين؛ وكلُّهم -كما يقول (بير)- متوفَّون الآن). وأضاف: «وأكثرُ ما لم أحبّه في هذه الحرب أنّ الأبرياء في معظم الوقت هم مَن يعانون! مستشفياتُنا مملوءة بنساءٍ وأطفال مشوَّهين ويعانون من العمى طيلة الحياة...حياةُ الشّرطة الآن عملٌ في منتهى الخطورة».

كانت محطةُ الشرطة المركزَ الذي تُجَمَّع فيه المواشي والبضائع الخاصة بالذين لا يستطيعون دفع الغرامة الجماعيّة، وقيمتُها عمومًا أربعمئة مِليم، وهي تعادل أربعين بنسًا في العملة البريطانيّة الحالية، وكان جلّ السكان معوزين، فهذا المبلغ صعبٌ جمعُه.

وقد استفادت منظمةُ (الهاجاناه) من الثورة العربية حينما زادت الشرطةُ البريطانيّة -تحتَ ضغط القادة اليهود- عددَ قواتها؛ وهو ما أدى إلى إدخال أربعةَ عشرَ ألفًا وخمسمئة يهودي في الشرطة البريطانية، وكان جميعُهم أعضاءً في تلك المنظمة، ومنهم (موشيه دايان)، وقد شارك (وينجيت) في حملاته غير القانونية. لقد كان عاملَتْ بريطانيا الثوارَ العرب أقسى من معاملتها الإرهابيين اليهود بين عامَيْ 1945 - 1948م.

خلالَ ثورة العرب، سَلَّحتْ بريطانيا اليهودَ ووَظفتْهم كقوّاتٍ إضافيّة؛ لكنّهم تسلّحوا فيما بعدُ ضدَّها عندما هُزِمَتْ ألمانيا! ومع نهاية الثورة العربية، وحين كان ممنوعًا على العرب أنْ يحملوا سلاحًا، لمْ يكن تزويدُ اليهود بالسلاح قرارًا حكيمًا.

مُتَنَبِّهًا من الظرف الصعب آخرَ العام 1938م، كَتَبَ مَلكُ السعودية ابنُ سعود رسالةً مطوّلةً إلى الرئيس الأمريكي (روزفلت).

وبوضوح، كان يعتقد أنّ المواطنينَ الأمريكيين لم يكونوا واعينَ بالمظالم المتزايدة الواقعة على المواطنينَ الأصليينَ في فلسطين. وقد لامستْ رسالةُ الملك البليغةُ أوْجُهَ الموضوع كلَّها. وبلباقةٍ ذَكّرتِ الأمريكيينَ والبريطانيينَ بسلوكهم المخجل! وقد بدأ رسالته بسؤالٍ منطقيٍّ عن ادّعاءِ الصهاينة في فلسطين:

«إنّ الحجة التي يعتمدون عليها في هذا الادعاء، أنّهم (أي اليهود) قد استقرّوا هنا وقتًا في الأيام الماضية، ومِن ثَمّ تجوّلوا في العديد من بلاد العالم. والآنَ هم يَتَمَنَّوْنَ أنْ يَجدوا مُتَجَمَّعًا لهم يعيشون فيه بحرية. وفي عملهم لتحقيق ذلك اعتمدوا على إعلان بلفور مِن الحكومة البريطانيّة».

ولا مُبَرِّرَ لهذا الادّعاء التّاريخيّ، لأنّ العربَ كانوا دائمًا في فلسطينَ على مَرِّ التّاريخ، فسيادتُها سيادتُهم. وإذا استثنَيْنا المدة التي كان فيها اليهود هناك، والمدةَ التي حَكَمَ فيها الرومان، فإن حاكِمَ العربِ كان حاكمَ فلسطين منذ أقدم الأزمنة إلى وقتنا هذا.

ثمّ أكملَ قائلاً: «إذا طُبِّقَ هذا المبدأ الذي يدعيه اليهود الآن، فسيكون من حقّ كلّ شعْب أن يُعيدَ الادعاءَ بأحقيته في أيّ دولةٍ كان قد احتلّها سابقًا بالقوة فترةً زمنيةً معينة. وهذا سيؤدي إلى اختلافٍ مدهشٍ في خارطة العالم، وسوف يكون متناقضًا مع الحقّ أو العدل أو الإنصاف».

وبمناسبةِ أحْداث الأعوام 1936 - 1938م كَتَبَ الملكُ بأنّ إعلان بلفور قد جَلَبَ الظلمَ والإثم لوطن هادئ مُسالم. لقد منحتْه حكومةٌ لم تكنْ في وقتِ إعطاءِ الهديةِ تملكُ حقَّ فرْضه على فلسطين.

وقد اقتبستُ ممّا كَتَبَتْه صحيفةُ (The Times) في عمودٍ لها في العاشر من كانون الثّاني 1939م، جزءًا مهمًّا من الرسالة:

«يبدو أنّ القضيّة الفلسْطينيّة قد نُظِرَ إليها في الولايات المتّحدة الأمريكيّة من وجْهة نظر اليهود الصهاينة ودعايتهم المكثّفة، فنَظروا إلى محاولات اليهود في تدمير عرب فلسطينَ على أنها سلوكٌ إنساني! وهي جريمةٌ مرعبة في حقّ أناسٍ مسالمين في وطنهم. يجب أن يُميَّز بين الصهيونيةِ السياسية والمشكلة العالمية للاضطهاد، ولا يمكن أنْ تكون فلسطينُ هي حلّها، على الرّغم من أن فلسطين -أصلاً- كانت أكثرَ بلدٍ في العالمِ قَدَّمَ الإقامةَ لأكبرِ عددٍ من اليهودِ نسبةً إلى حجْمها!»8*

وكما ذُكِرَ في مفكّراتهم، فإنّ العديد من الدبلوماسيّينَ والضّبّاط قد استمتعوا مدّةَ وجودهم في فلسطين بطبيعة الحياة، التي كانتْ عندهم لا تختلف عن تلك التي عاشوها في أرياف بريطانيا[1]؛ ففي الرّملة كانوا يستمتعون بالصيد ومطاردة ابن آوى في حقول الصّبّار، وكانوا يقومون برحلاتٍ لصيد البطّ في بُحيرة الحولة، ويتسابقون في اللد. ورغم ذلك، ذكرَ الرّائدُ (مكنيل) بعضَ صعوباتِ رحلةِ صيْدٍ في مذكراته:

«كانتْ قياداتُنا موجودةً في بيت مزارع يهوديّ صغير، وكان مريحًا، لكنّ التّجهيزات والترتيبات الصحية في معظم هذه المستعمرات اليهودية معدومة: وجبةٌ مشبعة، وبضعة غلايين، ومشروبات روحية. وكذلك المضجع، وهنا ينتهي العامُ 1923م. وكنتُ أفكّر بما قد يجلبُه لنا العامُ 1924م؟» حملتْ مذكّراتُه أنواعَ الأنشطة كلّها بكلّ الأوصاف: الرياضة، والاحتفالات بكلّ أنواعها.*9

انقسم الساسةُ الإنجليز، بعد تسعة عشر عامًا من مسؤوليّات الانتداب، في رؤيتهم للهدف والحلّ. لم يكن نهجُ رجال الحكومة كافيًا، وكان العالمُ قد تغيّر كثيرًا بعد إعلان بلفور و(جورج لويد)، وكان يَرِد للحكومات المتتالية آراء مختلفةٌ من الموظفين المعيَّنين، ولم يكن ثمّة نقصٌ في النصائح الآتية من الدول الأُخرى أو المصادر الرسمية، أو حتى من الصحفيين. كان قليلٌ جدًّا من ذوي الرأي متعاطفينَ مع السكان الأصليين من العرب الفلسطينيين؛ عامَلهم الصحفيون بقلة احترام، كما فعل (فان باستين) الذي حاول تشويه سمعتهم في كتابه المؤيّد للصهيونية المعنون بـ(الحلفاء المنسيّون):

«كانتْ فلسطين صحراءَ وقفارًا قبل الحرب، يسكنها فلّاحونَ مكروبون، معظمُهم لا يتوق إلى الحرية في شبه الجزيرة العربية كلّها، وثقافيًّا كانوا الأكثرينَ

(1) المترجم: هذا ردُّه على بعض داعمي الصّهيونيّة الذين يدّعون أنّ فلسطين كانتْ صحراء مقفرة. ويوضّح أنّ فلسطين لم تكن كذلك، بل كانتْ مليئة بالبحيرات والنباتات والطبيعة الجميلة. انتهجَ أسلوب عدم التصريح بأنّ ذلك خطأ أو صواب، فكان يردّ على كثير من الادّعاءات بذكر ما يفنّدها، ويُظهر الحقيقة من مذكراتِ أناسٍ عاشوا هناك، ومن الجيش البريطانيّ خاصةً.

تخلّفًا». وهذا مثالٌ واحدٌ فقط على تعليقاته الازدرائية. وعلى الرغم من الصراعات العنصرية الوحشية والأوراق البيضاء العديدة، والآراء المنقسمة حول فلسطين واللّجان ودور بريطانيا في فلسطين؛ كان من حسن حظّ بريطانيا والحلفاء، والعرب واليهود خاصةً، أن فلسطين كانت بيدِ بريطانيا عامَ 1939م. وفي الستّ سنين التالية، كانت فلسطينُ قاعدةً إستراتيجية للحلفاء؛ وسّعتْ بريطانيا مخازنَ ذخيرتها وجعلتْ من ذلك داعمًا رئيسًا لإمداد وحداتها المقاتلة في صحراء شمال أفريقيا، وهزيمة فرنسا الفيشية في سوريا والنزول في إيطاليا. في عالمٍ مزّقته الحرب، كانتْ فلسطينُ جنّةً للرّاحة والاستجمام لرجالِ الحرب المكتئبينَ، وبُني فيها مستشفياتٌ لاستقبال الجرحى. ولليهود الأوروبيين كانتْ تعدُّ جنّةَ سلام، وكان متوقّعًا من هذه الدولة العربية الصغيرة أن تُقدِّمَ الملجأ والسّكن لليهود النازحين بهذه الأعداد الكبيرة، وقد رفضتْهم دولٌ كثيرة! وكان دخولُ فلسطينَ يعتمدُ نظامَ الحصة (الكوتا)، لكنّها تزايدتْ. فضلاً عن اللاّجئين لجوءًا غير شرعيّ بقواربَ صعبةِ الإبحار، وأصبحتْ تُسمّى سُفُنَ الموتِ الصّغيرة.

المراجع:

1- الحلفاء المنسيون. فان باسين، مطبعة ديال، نيويورك 1943

2- حياة ورسائل ولتر بيج وبارتون جي. هينريك، ووليم هيني مان

3- أيام الانتداب، أي. جي. شارمان، توماس أي هاديسون، نيويورك، 1997

4- تاريخ سلاح العتاد الملكي. أمناء سلاح عتاد الجيش الملكي

5- فلسطين والشعر الحديث، خالد أي. سليمان، زيد للنشر. 1985

6- تاريخ سلاح عتاد الجيش الملكي

7- أيام الأنتداب

8- الجزيرة العربية تتوحد، محمد المناع، هاتشينسون، 1980

9- أيام الانتداب

2 - فلسطين في السّلم والحرب

كان هناك حربٌ وإشاعاتٌ قبل أن تتفجّر الحربُ العالميّة الثّانية. وحدثتْ أزماتٌ عديدةٌ بسبب الأعمال العدائية الألمانية والإيطالية، ومنها احتلالُ تشيكوسلوفاكيا الذي رَجّح احتمالَ الحرب في أوروبا، وقد عُدَّ احتلالُ الألمانِ بولندا الاستفزازَ الأكبرَ الذي جَعَلَ بريطانيا وفرنسا تعلنان الحربَ على ألمانيا، فحثّتِ الغيومُ العاصفةُ الوشيكةُ للأزمة الأخيرة بريطانيا على اتخاذ بعض التدابير والتحضيرات. وفي مصرَ كان هناك أصلاً جنودٌ وعتادٌ لحماية قناة السويس، وكانت أساساتُ بنيةِ العتادِ ضعيفةً وبحاجة إلى تقوية، فنُشِرَتْ قواتٌ إقليميةٌ ومجندون في مصرَ لبناءِ مستودعاتِ العتاد وخطوطِ الاتصالات. وكانت السفنُ الحربية تصل إلى بورسعيد أو الإسكندرية أو حيفا من خلال جبل طارق أو البحر الأبيض المتوسط؛ وهو الطريق المقبول للشرق الأوسط، ولكنّ كثيرًا ذهبوا إلى هناك برًّا من خطّ اتّصال البحر الأبيض المتوسط. وكان (هوارد ألين) أحدَ هؤلاء المجندين الذين استخدموا طريق خط البحر الأبيض المتوسط للاتصالات، وهو الذي قد رُفِعَ بعد ذلك إلى رتبة ضابط صف:

«وبعد مباشرة العمل عدنا إلى ثكنات فيكتوريا في (بورتماوث)، التي فيها حصلنا على مطعوم ضد الحمى التيفية، وجُهِّزْنا بملابسَ داخلية خشنة وقبّعات. كنّا محتارين فيما إذا كنّا سنذهب إلى فنلندا ويغزونا الرّوس، أو إلى المناطق المداريّة.

وفي آذار 1940م، خرج الجندُ من الثكنات بالمعدات كلها، وقبّعاتُنا معلّقةٌ على الكتف الأيسر، وفرقةُ العزف تَعزف مسير السلاح.. ركبْنا القطار وأكملنا الرحلةَ من ثكنات (ريد هول، كولشيستر).

غادر الجنودُ (كولشيستر) في التاسع والعشرين من آذار، بعد أنْ عَلمنا أنّ وجهتنا الشرقُ الأوسط؛ بالقطار إلى (ساوثمبتون)، وعلى متْن العبّارة (آرتشانجل) أكملْنا طريقنا إلى ميناء (لو هافر). بقينا في سكة حديد (لي هافر) طيلةَ النهار، وقد كُتبَ على الملصقات المعروضة: «أغلقْ فمَك وأبقِ أمعاءك مفتوحة». وبعدَ رحلة طويلة لم نذق النّومَ فيها وصلْنا (مرسيليا)، ومن ثَمَّ انتقلنا إلى السفينة الحربية (ديفونشير). أُعْطِينا مراجيحَ النّوم، وقد تعلّمنا مهارة الدخول بها في الليل.

غادرتِ السفينةُ ميناءَ (فاليتا) في مالطا، وبعد ذلك وَجَدْنا أنفسَنا مُحاطينَ بالقوارب الصغيرة والبائعين المتجولين المحليين الذين يبيعون سلعهم. وفي السادس من نيسان كنا في الإسكندرية، وكانت المرّة الأولى التي نلمح بها الشرقَ الأوسط. ومن محطة القطار كانت فرقةُ فلسطين في طريقها إلى قناة السويس.

وبعد اجتياز القناة من قنطارة بالعبّارة، استقلّْنا القطارَ إلى فلسطينَ برحلةٍ طويلة في الليل، وقد كان النوم صعبًا على مقاعدَ خشبية صلبة، وقد كانت المرة الأولى التي نلمح بها الأراضيَ المقدسة في الصباح الباكر ونحن نقطع بساتين البرتقال، وقبل أنْ نصل محطة اللد صعد ضابطٌ إلى القطار وألقى علينا محاضرةً عن أهمية الاحتفاظ ببنادقنا، وحدّثَنا عن عقوبةِ مَن تُسْرَقُ بندقيته.

كانت مجموعتنا أوّلَ الواصلين إلى المعسكر أيام الحرب، وكان عنوانُنا «سلاح عتاد الجيش الملكيّ في صرفند»، وبينما كنّا نتشكّل، فُتِحَ أحدُ شبابيك كوخٍ مجاور ثمّ خرجَ منه صوتٌ يقول: «ما أكثرُ شيء تريده؟ بعد التّحيّة».

في العاشر من أيّار، أصبح (ونستون تشرشل) رئيسًا للوزراء، وكان على الحلفاء إخلاءُ (دونكيرك). وفي الرابع عشر من حزيران 1940م أعلنتْ إيطاليا الحربَ على بريطانيا، واستسلمتْ فرنسا في الشّهر ذاته، ولم يَعُد البحرُ الأبيضُ المتوسط آمنًا لتحرُّك الجيوش. أصبحت الحربُ أسوأ. ونتيجةً لذلك، وجب على القوّات التي تتجه إلى الشرق الأوسط أنْ تأخذَ طريقًا أطولَ ومُضيعًا للوقت وأكثرَ

تكلفةً، حولَ أفريقيا ورأس الرجاء الصالح. كانت الغواصاتُ الألمانية في المحيط الأطلسي كثيرةً وتُدمِّرُ الملاحة، ولِتجنُّبهم لا بدَّ أنْ تقطعَ أساطيلُ السفن الحربية الأطلسيَّ لكي يبتعدوا ساعات فقط، ليتمكنوا من وصول الشواطئ الكندية قبل دورانها جنوبًا. وكان متوقَّعًا أن تُغزى بريطانيا ولكنها وقفتْ بحزم وِقْفَةَ رجلٍ واحدٍ ضدّ حشدٍ من المتمّرين. تَحدَّثَ تشرتشل حديثًا مؤثّرًا كان له أثر في زيادة تصميم بريطانيا إلى حد بعيد، وجعلَ تلكَ الخطوةَ الصغيرةَ في اجتياز القناة تبدو كأنها قفزةٌ هائلة نحوَ مصير مجهول وخطير لهتلر، وكانتْ مقولةُ تشرتشل «لن نستسلم» محفّزًا جيّدًا للسكان الإنجليز ومخيفةً جدًّا للأعداء.. فقدَ كثيرٌ من الطيارينَ الشجعان حياتَهم في معركة بريطانيا عندما أُسقطتْ ثلاثمئة وخمسون طائرة، ولكنّ (لوفتوافي) -أيْ سلاح الجو الألماني- خسرَ ألفين وسبعمئة طائرة، وعندما أدرك الطيرانُ الألمانيُّ أنّه غيرُ قادر على هزيمة بريطانيا ذَهبَ ليقصفَ المدنَ البريطانية.

وفي الشهر التاسع من العام 1941م، غزا الإيطاليونَ مصر، ولكن الحلفاء دفعوهم إلى الوراء واحتلّوا طبرق، وبعد ذلك ظهر (رومل) في الثالث عشر من نيسان وطوّقَها وحاصرها طويلاً.

ثمّ بدأت الحربُ في الشّرق الأوسط تسير لمصلحة القوات النازية.

وفي نيسان 1941م، غزتْ ألمانيا اليونان، وتغيّرَ ميزانُ القوى في العراق تغيّرًا مشؤومًا على أثر انقلاب رشيد عالي الكيلاني العراقي الداعم لألمانيا، وقد أدى هذا الانقلابُ إلى هروبِ الأمير عبد الله الذي كان وصيًّا على عرش ابن أخيه الرضيع الملك فيصل الثاني، إلى الجنوب وراء البصرة.

وفي غضون ذلك تحركتْ ألمانيا تجاه الشرق إلى روسيا وبيسارابيا وصارَ بوسْعها ربطُ البحر الأسود ببحر قزوين، ولو حَصَلَ ذلك لفَقَدَ الإنجليزُ السّيطرةَ على حقول النّفط في كركوك وستصبح بأيدي الأعداء، وستَفقد أيضًا تزويدَ حيفا بالنفط، وهو التزويدُ الرئيسُ لها. كان لدى بريطانيا مطارٌ لطائرات سلاح الجوّ

الملكي في الحبّانية، يحتاجُ إلى دفاع وقوة هجومية، فأُلِّفتْ باسم قوة (الهوب)، وانضمّ إليها رجالٌ وقوةُ إسناد عابرة للصحراء السورية من فلسطين لتُشكّلَ رأس حربة، وتَبِعَ ذلك جيشٌ هنديٌّ كبيرٌ، ومنه سلاحُ عتاد الجيش الهندي، وقد حطّ في ميناء أمّ قصر متجهًا إلى البصرة ومستودع العتاد في (شوايبا). وبعدَ إنجاز المهمة الأولى، وهي تأمين مطارِ الحبّانية ومصفاةِ بترول كركوك، كان لا بد من حماية البلد كله من أيّ غزو. تغيّرَ اسمُ قوّة (الهوب فورس) إلى قوّة العراق وإيران، وكانتْ مهمتُها حمايةَ خطوط الإمداد الحيوية إلى روسيا. وأُرْسِلَتْ إلى روسيا من ذلك الخطّ خمسةُ ملايين طنّ من الإمدادات قبل انتهاء الحرب.

مِن غير المؤكّد أنْ نعرفَ كم شخصًا فَقدت القوةُ العراقية والإيرانية، وقد عُدُّوا في عداد المفقودين. غادر الجنديُّ (جون) الذي كان سائقًا في سلاح عتاد الجيش الملكي فلسْطينَ واتجه إلى العراق عامَ 1941م ثمّ عُدَّ مفقودًا، لكنه في الواقع عُدَّ في عداد الموتى، ورغم أنه لم يكن في الحملة العسكرية في شمال أفريقيا؛ كان اسمه مدرَجًا على نصبِ معركة العلمين التذكاريّ.

أصبحت المنطقةُ الشّعبيّةُ في البصرة في غضون ثلاث سنوات، بعد أن كانتْ تَجَمُّعًا من الأكياس والخيم في برّية غربَ البصرة، معسكرًا منظّمًا، وصار مستودع العتاد الرئيس الآنَ بلدةً محاطةً بثمانية أميال من السياج. وفضلاً عن المسقفات وورش العمل ومواقف السيارات والمغاسل كان هناك معسكراتٌ نظيفةٌ ومرتبة، وأنشئت كنيسة لتُجاور ذلك الموقع، وبعد ذلك أنشئت أحواضُ سباحةٍ ومراكزُ ترفيه ومواقعُ عسكرية أخرى بالقرب من ميناء البصرة.

وقد كان لسلاح مهندسي الآليات والكهربائيات الملكيّ ورشُ عمل رئيسة في مناطق (ماقويل وزبير والرفاديا)، وجُمِّعَتْ تلك العربات التي وصلت إلى الميناء، وكان عددها لا يقل عن ستة عشر ألف عربة. وقد قاد السائقون الروس تلك العربات وهي محملة لكي يساهموا في المجهود الحربي الروسي.*1

لكنّ المشهدَ الذي لا يَتغيّرُ في الموقع يَبعثُ على الملل. وإنّ حياةَ القوّات الأجنبيّة مهدّدة في ظلّ الأجواء الصيفية والحرارة اللاهبة في جنوب العراق. وهناكَ وَصَلَ الحِرفيُّ (جورج نيكولاس) إلى المنطقة الشعبية بعدَ اكتمال الأبنية. وافتُتِحَ معسكرٌ لأوقات الإجازة في (كارينا) ومنشآتٌ ترفيه للقاعدة على التلال الفارسية لتكونَ دارَ استراحة للجنود الهنود. ثمّ افتُتِحَ عامَ 1944م معسكرٌ للقوّات البريطانية في بيروت حيثُ أمضى (نيكولاس) أوقاتًا طيبةً مستمتعًا ببرودة الجو وعذوبة الهواء، وكان دائمَ المواظبة على سباقات الخيل والترفيه.

عامَ 1941م أبحرَ زهاءُ خمسة عشر أسطولاً إنجليزيًّا على متْنها كثيرٌ من الجنود والنساء، وكلٌّ منها يتألف من عشرين سفينةً حربية، وقد أبحرَ الجنديُّ السابق في سلاح عتاد الجيش الملكي (سيدني باركر) في أحدها، الذي يتكوّنُ من تسع عشرة سفينةً حربية، وكلٌّ منها على الأغلب قادرٌ على حمل ثلاثة آلاف جندي.

وهي: (فيميوس، وأنديس، وأوركاديس، وسفينة الكومودور، وستراثالان، ورينا ديل باسيفيكو، ووندسور كاسل، وديامودي، وفوليندم، وستيرلينج كاسيل، ونيجر ستروم، وأينديان برينس، وأيدرابورا، وهيجلاند موراك، وكشميرينا، وكاميرونيا، وني هيلاس، وورك كاسيل، ومانشستر بورت).

قَدِمَ فريقُ الآليات والكهربائيات الملكيُّ البريطانيُّ للمكوث والعمل في مناطق الزّبير والمعقل والرافدية. وإن العجلات التي تأتي من ميناء المقل وتتجمّعُ وتُحَمَّلُ بالمؤن والذخائر ويقودها سائقون روس، كانتْ تُسْتَعْمَلُ لدعم المجهود الحربي الروسي.

ولأنّها كانتْ بداية حملة الصّحراء الغربيّة، ربما يحمل بعضهم كميات كبيرة من الأسلحة. تلقّى سجلٌّ قصاصات فلسطين روايتَيْن عن تلك القافلة: إحداهما من (سيدني) والأخرى من (جون تاران). ورغم تمركزهما في مستودع العتاد الرئيس؛ لم يعرفْ أحدُهما الآخرَ إلّا بعدَ أكثرَ من خمسين عامًا. لم يكونا في

القافلة ذاتها التي أبحرتْ من (جوروك) إلى (كلايد) في آب (أغسطس) 1941م فقط، بل كانا أيضًا في (نيا هيلاس).

كَتَبَ (سيدني):

أبحرتُ على (نيا هيلاس) التي تُعاني من نقص في طاقمها من الضباط المهندسينَ الذين استُعيضوا بمُصلحِ سيارات الجيش، كما أنها تفتقرُ إلى مُشَغِّل غيرِ سلكيّ، وقد أنشئ بوساطة العريف (براون) الذي زوّدني بتفاصيل القافلة. واصطَدمتْ (ورك كاسل) بـ(وندسور كاسل) بسبب الضباب، وقد رُوفِقَتَا إلى (نوفا سكوتيا) برحلة (إتش أم أس). أَبحرت القافلةُ في غضون أربع ساعاتٍ من انطلاق بخارها قبلَ (نوفا سكوتيا)، ثم غَيّرتْ مسارَها متجهةً نحو (فري تاون) حيثُ ترسو السفنُ أربعةَ أيام. وهناك، عند دخولنا (فري تاون) مَررْنا على حاملة الطائرات الراسية، وثمة فرقةٌ تعزفُ في أثناء مرورنا.

بَدأت السماءُ تمطر، واستمر المطرُ أربعةَ أيام، إلى أن مَررْنا بحاملة الطائرات في طريقنا إلى (دربان).. وقد رُحِّبَ بالمطر ترحيبًا كبيرًا فأحضرنا الصابونَ على سطح السفينة وطفقْنا نستحمّ في المياه العذبة.

واصلتْ سبعَ عشرةَ سفينةً -وكان يرافقها (إتش إم إس) إدنبرة- رحلتَها، وقَدّمَ الرقيبُ (جون تارات) في العام 1942م، وكان عمره تسعة عشر عامًا، تفاصيلَ عن الظروف الفعلية التي مرّتْ على متْن سفينة (نيا هيلاس).

أُوويَ قرابة ثلاثة آلاف جنديّ في أصعب الظروف، وكان الجو مغبرًّا في الشّهريْن التالييْن. كانت أسوأ ذكرياتي عندما يستمر فيضان المياه من الطوابق العلوية إلى الطوابق السفلية، ورغم ذلك كان هذا هو المكان الذي توقّعْنا أنْ نأكلَ وننامَ فيه على ما رجّحْنا. ولحُسن حظنا، كان الطقسُ جيدًا ودافئًا جلَّ الوقت، وهذا ما سَمَحَ لنا بالنوم على سطح السفينة. وفي أيام الطقس القاسي كنا نؤخذ إلى أسفلِ السفينة على الرغم من الرائحة الكريهة! وكانَ البحرُ متلاطمَ الأمواج

فغادرْنا (كلايد) فورًا. وبمرور الوقت، وصلْنا خليج (بيسكي)، وهناك لم يُصَبْ منا بدُوار البحر إلا قليلاً.

وبسعادة بعد ذلك استعدنا توازنَنا. وكانَ (فريتاون) أوّلَ ميناءٍ في غربِ أفريقيا حيثُ تَوقَّف الأسطول أيامًا للتزود بالوقود. وكانَ هناكَ أولادٌ يجذفونَ ثمّ يغطسون ليظفروا بالعملات التي يرميها الجنودُ في البحر. أمضينا الأسابيعَ الثلاثة التالية بجوٍّ شاعريّ، وكانت الليالي ساحرةً والبحرُ حياة مع الحياة البحرية! كنا نُمضي أوقاتنا بالتدريبات الطارئة وبندقيةِ (البرين) والطّعام والنشاطات الرياضية وحفلات الموسيقى والقمار والشَّدّة. كانت إشاعاتُ هجوم الغواصات منتشرة، لكن الحراسةَ المسؤولة عن أسطولنا تؤكّدها بإطلاق أسلحتها المضادّة دائمًا.

كان كلّ شيء يسير جيدًا إلى أن وَصلْنا رأسَ الرجاء الصالح في طريقنا إلى (ديربان) حيثُ خَرَّبَت التياراتُ المتقاطعة علينا وكان معظمُنا مريضًا، إلى أن وصلْنا ميناء ديربان حيث الهدوء. كانت بريطانيا في ظلام دامس منذُ أيلول 1939م، وكانَ الطعام مقنّنًا ومتوافرًا في ديربان ولا سيّما الفاكهة، والضّوءُ ساطعٌ في الليل، حتى الجوُّ الشتويُّ في جنوب أفريقيا كان مبهجًا، وقد أَجِزْنا أسبوعًا عندما عدْنا إلى (نيه يلاس) في الليل.

كانت ضيافةُ الناس في جنوب أفريقيا رائعةً! اصطحبَ زوجَان أفريقيّان ثلاثةً منّا قبلَ أنْ نمشي ثلاثمئة يَاردَة بعيدًا عن السفينة؛ استقبلونا أسبوعًا؛ أخذونا في جولةٍ لرؤية معالم المدينة، وقدّموا لنا الطعام، وعاملونا معاملةً حسنةً حسنةً.

غادرْنا ديربان بحزن شديد! وأبحرنا ثلاثةَ أسابيعَ أخرى إلى المحيط الهنديّ، ومنه إلى البحر الأحمر حيث توقفْنا للتزود بالوقود في عدن أيامًا عديدة. كان الحرُّ لا يُحتمل، ولمْ يُسمَح لنا بنزول الشاطئ.

وكان لـ(سدني) ذكرياتٌ جميلةٌ تشبه تلك التي أمضيناها أسبوعًا في ديربان.

على رصيف الميناء محصولٌ من البرتقال يتألف من أربعة آلاف صندوق، وقد سُمِحَ لكلٍّ منّا بصندوق واحد. هذه الأشياء كانت مختلفة عنها في بريطانيا. نصفُ لتر من الجِعَة (وهي النبيذ أو البيرة) بعشرة بنسات، ووقيّةُ الدّخان ببنس ونصف. على الصّعيد المحليّ، ولأنني مُدَخّن غليون في ذلك الوقت، اشتريْتُ عُلبتين من الدّخان بستة شلون. كانت السفينةُ (دايموند) تُصنَّف على أنها سيّئة لأنها تنقل حمولتها في البحار متلاطمة الأمواج حولَ رأس الرجاء الصالح، وقد تُرِكَتْ وراءَنا في ديربان، وانطلق ما تبقى إلى عدن حيث رَسَوْنا، وكنا ننطلق مرةً كلَّ أربع وعشرين ساعةً باتجاه السويس. فَرَّغَت السفنُ حمولاتِها في قناة السويس بسرعة لأنّ الألمان استطاعوا إغراقَ سفينة في الميناء، فتمدّدتْ هناك مع مداخنها خارجَ الماء.

كان السفرُ بالدّوران حولَ رأس الرجاء الصالح أكثرَ أمْنًا منه بالبحر الأبيض المتوسط، لكنّ هذا لا يَقي من خسارة بعض السفن، وقد نَسَفَت الغواصاتُ سفينتينِ حربيّتين متجهتين نحو الشرق الأوسط.

(جون كليج) أحدُ المسافرينَ على متن (مولتان) عامَ 1941م، وكانتْ هذه السفينةُ من الأسطول الذي كان يدورُ حول رأس الرجاء الصالح باتجاه السويس، وقد كان (جون) مخضرمًا في البحر، فقد أفلتَ من فرنسا بعدَ إخلاء (دونكيرك) على متن (لانكاسترين) المشؤومة، لكنّ أكثر من سبعة آلاف ماتوا عندما دُمِّرَتْ فغرقتْ على بُعْد عشرة أميال من (سانت نازير) في العاشر من حزيران 1940م.. وكانَ (جون) واحدًا من ألفٍ ومئتين بَقُوا على قيد الحياة. وقد حُوِّلَتْ (مولتان) لتحملَ جنودًا عامَ 1941م. وبنحْوٍ فريد، كانت الصحيفةُ اليومية للسّفينة (دير تاجربليتز) تنشرُ أخبارَ الجنود عن الحرب ومنوّعات مُمْتعةً عن الرحلة؛ وكان ذلكَ طموحًا كبيرًا وشجاعةً إذا أَخَذْنا بعينِ الاعتبار صفحاتِها الصّغيرةَ الأربعة

واقترابَ الحربِ عامَ 1941م! وقد قَطَعَتْ (مولتان) مرّتين خطَّ الاستواء في رحلتها حولَ أفريقيا، وبناءً على التقليد المتّبع مُنحتْ شهاداتٍ لقطْعها مرّتين خطَّ الاستواء.

لمْ تكن كلُّ السّفن المتّجهة إلى الشّرق الأوسط عامَ 1942م عبْر رأس الرّجاء الصّالح تمرّ بأسطول. سَجّلتْ سفينةُ (أر أم أس الملكة إليزابيث) رقمًا قياسيًّا بحمْلها خمسة عشر ألف جنديّ! وكانتْ تقومُ بدوْر أسطولٍ كاملٍ يُعادلُ تقريبًا خَمس سفن حربيّة.

كانتْ (كين إنجل) عُضوًا في سفينةِ الجند (RKGYX) التي غادرتْ ثكناتِ (هيلسي) في (بورتماوث) أيّارَ 1942م.

ساروا إلى محطّة (بورتماوث) خلفَ الفرقة، وفي اللّيل سافروا إلى (جوروك) بالقطار. وَصَلوا متأخّرين، ظُهْرًا، وفي اليوم الثاني كانوا في محطة الملكة (إليزابيث). وللباخرة طاقمٌ من ألف ومئتين. وكانت الأَسرّةُ على علوّ خمس طبقات فوقَ مكتبة السفينة، ومَنْ يكونونَ على السّريريْن العلويّيْن حَوْلَهم أحزمةٌ آمنة. وكباقي السّفن الحربيّة، تمشي (أر أم أس الملكة إليزابيث) أميالاً عديدة بمُعدّل ألف ميلٍ في اليوم. وقد كان (كيم) على ظَهر السفينة الرياضيّ الأمامي، واشترك مع اثنين آخرين في الإقامة بالدرجة الأولى، والتدخينُ تحتَ ظَهر السفينة غيرُ مسموح به في أيّ وقت، وكذا فوقَ ظهرها في الليل لأسباب أمنيّة، وكما قال كيم: «...ولكنْ خلفَ بابِ الحمّام المغلقِ كان يمكننا شربُ أيّ شيء؛ حتّى المخدّرات»!.

بَيْنَما كانتْ بريطانيا تُقاتلُ بشجاعة في معركةٍ تزدادُ حدّةً، كانتْ فلسطينُ تمثّلُ مُشْكلةً وسَتمتدّ إلى المستقبل، والعربُ المنزعجونَ من تدفق هجرة اليهود إلى فلسطين قد هُدّئوا عندما قَيّدت الحكومةُ الإنجليزية الهجرة عام 1939م إلى

فلسطين. وكان شيئًا أساسيًا أنّ يسود السلامُ في تلك الفترة في فلسطين. وكان اليهودُ الفلسطينيونَ يدركونَ أنّ من مصلحتهم استمرارَ مقاومة البريطانيين لتقدّم النازيين. وعلى كلٍّ، ما يزال المهاجرونَ يأتون في مراكبَ مزدحمة صدئة فيها تَسرُّبٌ وتُسمّى سفنَ الموت، وفضلاً عن القلق من ردّة فعل العرب ثمّةَ خوفٌ من تسرّبِ النازيينَ من المهاجرين سرًّا. وللتخلص من هاتينِ المشكلتين قَرر المهاجرون أن يذهبوا إلى موريتانيا. وربما ينجح العملاءُ النازيونَ بأن يَدخلوا مع طالبي اللجوء القادمينَ من المناطق الأوروبية المحتلة الذين تمكّنوا من تجنب الحصار، ولكن اكتُشف بعدَ ذلك أنّ منهم مَن ثبتَ أنه خَلَقَ مشاكلَ بعيدةَ المدى أكثرَ من الجواسيس النازيين؛ ومنهم يهودٌ أوروبيونَ شرقيونَ مُخرِّبون، ومنهم قادةٌ إرهابيونَ كـ(مناحيم بيغن)، و(ناذان يلين مور) واسمُه الحقيقيّ (فريدمان يلين)، و(إسحاق شامير) واسمُه الحقيقيّ (يزرتيتسكي)، و(يالين مور) الذي أصبح بعد ذلك قائدَ (الليخي) وهُم المقاتلون من أجل حرية إسرائيل، وقد وصل إلى إسرائيلَ من (ليتوانيا) في الشهر الأول من العام 1941م وأَعلن بوضوح أنه يكره الإنجليز أكثر من كرهه ألمانيا النازية، وكانت منشوراتُهم تحثّ اليهودَ على قتال العدوّ اللدودِ بريطانيا وعدمِ التّدخّل في الحرب «الإمبرياليّة». كلُّ هذا وآلافُ اليهود يُضطهدونَ في ألمانيا والدول المحتلة، وثلاثةٌ وأربعون ألفَ إنجليزيٍّ مدنيٌّ قُتلوا في ستةَ عشرَ شهرًا، وانتهى ذلك في كانون الأول (ديسمبر) 1941م خلال الغارات!

وفي الرابع والعشرين من تشرين الثّاني 1940م، وَصلتْ (أتلانتيك)، وهي سفينةُ مِجْذاف، حيْفا من قبرصَ وعلى متنها ألف وثمانمئة مهاجر يهودي؛ وهؤلاء مع ألف وسبعمئة وستين مهاجرًا آخرَ -كانوا قد وصلوا سابقًا على متن (ميلتوس وباسيفيك)- استُجوبوا فورَ ركوبهم (أس أس باتريا) وأُخذوا إلى (موريتوس) في مدة الطوارئ، لكنّ مئتين منهم لم يذهبوا، فقد قُتلوا وهم يُنقلون إلى (أس أس باتريا) عندما أُغرِق مركبُهم بانفجار. كانت المجموعاتُ كلُّها مشبوهةً أنّها مَن فعلتْ ذلك، إلّا أنّ بعضَ اللّاجئينَ قالوا أنّهم فعلوا ذلك بأنفسِهم

بسبب اليأس، لكنّ في آخر الأمر اكتُشف أنّ الهاجاناه هي مَن فعلت ذلك، فكانوا هُم المذنبين، وقد أرادوا تعطيلَ المركبِ لئلّا يغادر الميناء. وكان على متن المركب مُحَقِّقُ شرطةِ فلسطين (بيل تايلور) الذي سقطَ في الماء، لكنّه نُجِّيَ ليُساعدَ في قبْضِ (أبراهام شتيرين) عامَ 1942م.

وقد نشطتْ حركةُ (زفاي ليمي) المنظّمةُ العسكريّةُ الوطنيّةُ، التي صارَ اختصارُها فيما بعدُ (IZL)، في مهاجمة العرب عامَ 1937م، وقد بدأتْ أُولى أعمالهم الإرهابيّة بقتل مفتّشينَ بريطانيين من الشرطة قبلَ أسبوعين من الحرب العالمية الثانية. تبلورتْ فكرةُ الهاجاناه -وهي كلمة عبرية تعني الدّفاع- في مستعمرةِ (بيتاه تيكفي/ باب الأمل) المستعمرةِ اليهوديةِ الأُولى التي نَشأتْ في فلسطين عام 1878م. لم تكن فكرةُ الإرجونِ المنظَّمةِ العسكريةِ القوميةِ الصهيونيةِ وتكتيكُها وإستراتيجيتُها عدائيةً بما يكفي من وجهة نظر (أبراهام شتيرن) الذي ألّف مجموعةً من أربعين شخصًا يحملون الأفكارَ ذاتَها، وقد أطلق عليهم اسم (لوهامي هيروت إسرائيل/ ليهي)، وأصبح اسمُها فيما بعد (عصابة شتيرن). وبسبب نقصِ المال لجأتْ هذه العصابةُ لسرقة البنوك وناقلي أموالها، بل إنهم حصلوا على قروضٍ من عملاء الحكومة الإيطالية. وفي شهر شباط من العام 1942م قُتل (شتيرن) في عملية إلقاء القبض عليه لقتله (سولمن شيف) نائبَ مدير شرطة فلسطين، فأصبح عندهم شهيدًا، وزاد عددُ عصابته إلى مئتين، واستمرتْ في نشاطاتها.

هَدفت الدعايةُ النازيةُ إلى تحريض العرب ضدَّ الإنجليز لأنهم يَنوونَ إعطاءَ فلسطينَ لليهود. وكان (وينستون تشرتشل) قائدًا يفكر بتعدّد البدائل والخطط، فجعل هؤلاء الذين يُفكرون بطريقة غير مستساغة (بهدف واحد فقط) يربحون الحرب ضدّ ألمانيا وحلفائها. وظَنَّ -وكانَ محقًّا- أنّ هذا ما كانَ يريده يهودُ فلسطين، وقد دَعَمَتِ الجيشَ البريطانيَّ في فلسطينَ دعمًا كاملاً الغالبيّةُ العظمى من يهود فلسطين فتألفت الفرقةُ اليهودية الأولى.

في الخامس من أيّار 1941م، كانَ على بريطانيا غَزْوُ سوريا الخاضعة للانتداب الفرنسي، وأَخذت الحملةُ ستة أيام فقط، فصارتْ سوريا بعدَها مُؤَمّنة.

ولتقدير ما كانت عليه حصيلةُ الحرب، وخلالَ تدخّل تشرتشل خاصةً؛ على المرء أن يقرأ سجلَّ مراسلات الأشهر الستة الأولى منها فقط.

لقد وجّه توجيهات وأسئلةً عديدةً لكلِّ مديري الدوائر المدنية والعسكرية المرتبطة بالمجهود الحربيّ، وذَكر في أحد خطاباته لـ(حاييم وايزمان) أنه لا مكانَ يستطيعُ السماحَ فيه بهجرة يهودية كفلسطين. وفي رسالة أخرى وُجِّهَتْ إلى وزير الدولة لشؤون الحرب وإلى رئيس هيئة الأركان العامة للإمبراطورية في (12/1/ 1944م) سأل عن سبب إبقاء ثمانية آلاف وخمسمئة رجل وضابط من فرقة الفرسان في فلسطين لأسباب أمنية، ثمّ تساءل عن تكلفة ما يأتي: إرسالهم إلى الشّرق الأوسط. والاحتفاظ بهم مع الإعاشة، والدّفع لهم مع البدلاتِ من بداية الحرب إلى بداية شهر آذار 1942م. ونقلهم مرةً ثانيةً إلى الوطن.

في الظاهر، لمّا طَرح هذا السّؤالَ الخاصَّ بقسم الخيّالة، ظُنَّ أنّهم سيعودونَ إلى الوطن لإعادة التدريب، لكنّ تشرتشل لم يقبلْ هذا، واقترحَ مع إعادة التّدريب في الشّرق الأوسط تسليحَهم ببنادقِ (برين) وحاملاتها، وقد كان لدينا كثير منها، أو الاستفادةَ من الدبابات التي أخذناها من الطليان. وعلى كلٍّ، كانت هناك مشكلةٌ يذكرها دائمًا، هي تعيينُ جنودٍ كُتّابًا أو رجالَ مخازنَ أو مصلحي آليات (ميكانيكيين) أو سائقين؛ وهذه واجباتٌ يمكن تركُها للمدنيين. ورغم ملاحظات تشرتشل كان القرارُ أنْ يقومَ بهذه الواجبات خليطٌ من المدنيينَ والعسكريين، وقد استَعملَ مصطلحَ (الخدمات الخلفيّة) للتمييز بين خدمات المساندة وخدمات الخطوط الأمامية، وكان حريصًا على جعلِ العددِ الأكبرِ من الرّجال في الخطوط الأمامية.

وكانَ لا بدَّ من تطوير منشآت الذخيرة في فلسطين ومصر؛ وكان في رَفَح مستودعٌ قيد الإنشاء، ومَرافقُ ورشة صرفندَ لتصليح وتجهيز الدبابات الخفيفة وحاملاتها، وكان لا بدّ من توسعته. ورغم ذلك، كانت مرافقُ الذخيرة غيرَ كافية، واستمرّ افتتاح المنشآت وتطويرها في فلسطينَ كلّها: مصنعُ ذخيرة وتكديسِ ذخائر في وادي صرار، ومستودعُ ذخائرَ وورشةٌ في حيفا، ومستودعاتٌ فرعيّة وورشاتُ عمل في صرفندَ والقدس و(بات جاليم) وتل الربيع (تل أبيب)، وفي العام 1942م في (كريات موتزكين).

اندلعت الحربُ في الصّحراء الغربيّة كلّها، تتقدّمُ أحيانًا وتتراجع أخرى، ويسيطرُ الجانبان، أحدُهما من الآخر، على بلداتٍ ومستعمرات ثمّ يخسرها... تسلّمَ القائد (مونتغمري) القيادةَ الميدانية في تمّوز 1941م، وفي الشهر ذاتِه وصلَ العدوُّ بقيادة (رومل) إلى منطقة العلمين، بعيدًا عن القاهرة بمئة ميل تقريبًا، وبعيدًا أيضًا عن مخازنِ عتادٍ لسلاح ذخيرة الجيش الملكيّ بكلّ ذخائرها عالية القيمة. تَقدُّم القوات الألمانية هذا أثبتَ أن للمنشآت الإستراتيجيّة قيمةً في فلسطين.

وكانَ الماءُ يُضَخُّ من آبارِ رفح لمسكرات المنطقة كلها على مدار السّاعة، وكلُّ الصهاريج مخصصةٌ للعمل يوميًّا ساعاتٍ عديدة.

كان الشّاويشُ (سيدني بيركينز) ضابطَ مرور سكّة الحديد، وكان لساحة التّنظيم في مستودع العتاد الرئيس (2) خزّانٌ بسعة ألفَيْ وعاء (جالون) لتزويد القاطرات بالمياه، وكان ذلك هو مزوّدَ القاطرات الوحيدَ بين حيفا والقنطارة، وكانوا إذا نقصَ الماءُ في ذلك الخزان يتصلون بمحطة الضخّ لإعادة ملئه فورًا، فثمةَ أوقاتٌ محددة يكون فيها الرجال في الخطوط الأمامية، وكانوا يحتاجون الماء للعربات حاجتَهم للسلاح. وقد وردتْ مكالمةٌ تفيد أنّ ثمة حاجةً طارئةً للماء في الصحراء الغربية، وقد شرحَ (سيدني) كيف نظَّم التزويد عنده:

«كان لمَواسير القاطرات أنابيبُ فرعيّةٌ مصمّمةٌ لعشْر حنفيّات لكلّ ماسورة. وكانت الشاحنات التي تصلُ تحملُ عبوات بسعة جالونين، وصارت المصانع المحلية تُرسِل أكثرَ بوساطة السكة.

وكان سجناءُ الحرب يُقَسَّمون مجموعات: مجموعة لتنزيل العُبْوات، ومجموعة أخرى لوضعها وفكِّ الأغطية، وثالثة لتعبئة خراطيم الماء، ورابعة لإرجاع الغطاء وإعادة تحميل العبوات في الشاحنات.

حَسَن، ناظرُ المحطّة، كان مستعدًّا لفعل أيّ شيء إذا قلت له: «هذا ما يريده الملكُ (جورج)»، ولذلك استطعتُ أن أجعله يُوقِف قطارات البضائع التي تمر من المنطقة ويربط بكلّ قطار منها كلَّ الحاويات المحملة والجاهزة حين مروره. ورغم وجودنا في مكان بعيد جدًّا عن المياه؛ زوّد مخزنُ الذخيرة الرئيس (2) بكمية كبيرة من الماء في وقت قصير جدًّا».

وقد أُخذتْ طبرقُ من الإيطاليين في كانون الثاني 1941م، وأنشئ فيها خمسمئة مستودع عتاد. وتحركتْ طواقمُ سلاح عتاد الجيش الملكي من رفح وصرفند.

وفي آخِر شهر آب 1941م، وعندما كان مسارُ الحرب يسيرُ ضدّنا في الصّحراء الغربية، كان واضحًا أنه -لنفوز بحرب الآليات هذه- لا بدّ من أن يكون لدينا عرباتٌ مدرعة أكثر، فضلاً عن التجهيزات الخِدْميَّة الضرورية.

وقد عملَ رجالُ سلاح ذخيرة الجيش الملكيّ في صرفندَ على مدار السّاعة لتحقيق هذا الهدف بالتناوب، لتفريغ وعملِ عرباتٍ حربية جديدة تناسب المعركة، وصيانةِ تلك العربات التي كانت تعمل في الخطوط الأمامية.

وقد احتفظ (كين بروان) بوصفٍ مفصّل عن تلك الشّهور الحرجة من الحرب العالميّة الثّانية.

بَيّنت القصصُ التي وثّقها قيمةَ أولئك الرّجال الذين جمعوا العربات المدرّعة وصانوها خلال الاستخدام. ومن تقاريره نستطيع تقدير حاجة الزيادة السريعة في القدرة الاستيعابية لورشات العمل. كما أن لهذه القصص قيمةً أهمَّ وهي أنها

تمكننا من القراءة عن الرجال وتفاصيل الأمور؛ فقد ذكرَ الأعراقَ المختلفة للرجال الذين كانوا في الورشة؛ فمثلاً: (بتي زجورنيكي) يهوديٌّ بولنديّ، وصديق لـ(كين).

(بيتي هامرمان) يهوديّ أستراليّ، يتذكّر (هارولد هويتي) -خاصةً- الذي كان قد غادر بريطانيا إلى الشرق الأوسط على متن سفينة قلعة (ويندسور) في الرابع من كانون الثاني عام 1941م، وبعد مدة -وربما سُمِّيَ المشاغل الرّئيس في صرفند- نُقل إلى مستودع الذخيرة الرئيس (2) في حيفا، ومع هدفه الكبير الجديد بنى المرافقَ التي تكتمل مع التحويلات الآتية من خط حيفا- القاهرة، الرّئيس. كانتْ وظيفةُ هارولد تجهيزَ المَعامل للخطوة القادمة.

وكان قد مضى على (هوارد) تقريبًا شهران في فلسطين عندما دخلتْ إيطاليا الحرب، وقد نُقل إلى العباسية. وفي شباط العام 1941م نُقل إلى فرقة المشاة السادسة في الصحراء الغربية. وفي حزيران أُخذوا إلى سوريا لقمع اضطرابات الفيشي (Vichy). وفي تشرين أخذوا بالبحر إلى حصار طبرق. وعندما رُفع الحصارُ وتقدم الحلفاءُ إلى الغرب نُقل هوارد[1] إلى طبرق. وقد عمل في مستودع تزويد الذخائر المتقدم في (الآدين)، وبعد ذلك في مستودع فرعي بمعسكر درنة. لم أكن أعرف بالضبط لماذا أخذوهم إلى طبرق، لأنها سقطتْ بعد ثلاثة أيام فأُخذوا خارجها. وبعد ذلك، عندما تقدم الألمان نحو الشرق، قُسّمت الوحدة إلى فصيلين للدفاع عن المستودع. وفي كل صباح، بين السادسة والنصف والسابعة والنصف، قبل بدء الواجبات الاعتيادية في المستودع، كان لديهم بعضُ التدريبات العسكرية الأساسية، ومنها المسير خلال لبس أقنعة الغاز المزدوجة. ورغم ذلك كتب (هوارد):

(1) المترجم: من المفيد ملاحظةُ أنّ المؤلّف يَذكر قصص بعض زملائه في مدة خدمتهم في القوّات المسلّحة البريطانيّة بالتفاصيل، محاولاً بيان وجهة نظره من خلال غيره. وجديرٌ بالملاحظة أيضًا أنّ مَن كتبوها شهودُ عيان في مذكرات شخصية، تبين أحوال ذلك العهد.

«ثمّة شيءٌ مضحكٌ في بالي لا يمّحي: كان هناك رقيب أوّل، يسيّر مفرزته فقال: إلى الخلف دُرْ.. إلى الخلف در.. إلى الخلف در...، معترفًا أنّه نسي كلمة (قف)[1] العسكرية؛ استبدل بها كلمةَ (توقّف) العاميةَ لا العسكرية الرسمية.

وبعد ذلك بأيام أَطلق البوقُ صوت الإنذار العامّ للنّزول إلى ساحة العرض عندما أُخْبِرنا أن (جيري) على الطريق. ولأننا في حالة انتظار طويل، كنتُ سعيد الحظ في سماع اسمي للخروج. وأخيرًا وصلتُ إلى الإسكندريّة.

ومِن هناك نُقلتُ إلى مستودع الذخيرة الرئيس (2)، وفي فلسطين، حيث بقيتُ إلى حين مغادرتي في الشهر الثاني عشر من العام 1944م بسبب الإصابة».

(فرانك بيل) الذي كان يخدم في مستودع العتاد الرّئيس (BOD) وقتَ سقوط طبرق، لم يؤسَر في ذلك الوقت لحُسن الحظّ. وقد شرح ذلك:

«في إحدى المراحل كنتُ مسؤولاً عن راكبي الدّرّاجات، أعمل، ولكنْ بدون أن يُدْفَعَ لي. وفي أحد الأيام، ذهبتُ إلى حيفا في رحلة يومَ عطلة، وعندما عدتُ أُعلمتُ أنّ باقي سائقي الدراجات نُقلوا إلى طبرق. ولمْ أعلمْ لمَ اتُّخذ هذا القرار بالضبط، لأنه بعد ذلك بثلاثة أيام سقطتْ طبرق، وبعدها سُجنوا جميعًا. أوشكتُ أن ألتحق بهم عندما تمّ إيجاد النقليات المتجهة جنوبًا. أيامي في حيفا كانت تعني أنني سأعيش سنواتٍ سعيدةً في فلسطين، وكنتُ دائمًا محظوظًا بالنجاة من الموت».

---

(1) المترجم: في المسير العسكريّ تُستخدَم كلمة (دُرْ) للالتفاف، وكلمة (قف) (HALT) للتّوقّف، وهي كلمة رسميّة. لكن الرّقيب الأوّل استخدم كلمة (Stop) التي تعني: توقّف، وهي لا تُعدّ كلمةً عسكرية ولا تستخدم في المسير العسكري. وكلمةُ (Whoa) أيضًا من مرادفات كلمة(HALT) ، لكنّها كذلك لا تستخدم في المسير العسكريّ. فللمسير العسكريّ تقاليد؛ فمثلاً يقال للالتفاف لليمين (در)، ولا يجوز أن يقال (لف) مثلاً. ففي التقليد العسكري الإنجليزي ثمة كلمة واحدة تستخدم للتوقف، هي(Halt) وليس(stop) أو(Whoa) ، رغم أنها مترادفات(synonyms) .

لم يكن محظوظًا (هارولد هيويت) عندما سقطتْ طبرق، لأنّه هو ويهوديٌّ ألمانيٌّ يعمل بنحوٍ خاصٍّ في سلاح عتاد الجيش الملكي، سُجنا في العشرين من حزيران العام 1942م، ولحسن الحظّ تمكَّنَا من ارتداء اللباس العسكري الألماني والهرب من معسكر (POW) باتجاه شمال أفريقيا.

ولكنّ تنكرهما لم يُسْعفهما عندما دخلَا معسكرًا إيطاليًّا حيثُ قُبض عليهما مرةً أخرى.

وفي أيلول العام 1942م أُرسِل (هارولد) إلى معسكر (POW) في (بولونيا) للعمل في التجهيزات الزراعية، لكنه فوجئ أنه كان يُتوقَّع منه أن يعملَ البواريد والدبابات؛ ولأنه رفض ذلك حُكم ثلاثين يومًا في الحبس الانفرادي. وفي شباط العام 1943م أُخذ إلى معسكر غير عملي في شمال إيطاليا، وقد هرب مرةً ثانيةً متنكّرًا بلباسِ جندي إيطاليٍّ، وقُبِضَ عليه مرةً أخرى وهو في طريقه إلى يوغسلافيا، وعندما استَسلمتْ إيطاليا كان مسجونًا في بولندا.

لم يَعُدِ الإيطاليون حلفاء، وقد قال النازيّ باحتلال ذلك الجزء من إيطاليا، وكان هارولد يظنّ أنهم سينقلونه إلى ألمانيا فهرب مرةً أخرى وقد أصبح صديقًا لعائلة (أوته) التي كانت تأوي جنديّينِ من جنوب أفريقيا منذ شهرين ونصف.

وفي وقتٍ متأخر من شهر تشرين الثاني خرجَ الثلاثة من المخبأ ثم هربوا على دراجات هوائية، وقد نزلوا من إيطاليا إلى نهر (سانجرو). تمكّن هارولد وأحدُ رفاقه من الهرب من خطوط الحلفاء. وبعد ثمانية عشر شهرًا من القبض عليهم تمكنوا من أن يكونوا طلقاء أخيرًا.

وبعد فترة قصيرة من الانتصار في معركة العلمين في شهر تشرين الأوّل، تقدمَ الجيشُ الثامن النشطُ تجاهَ الغرب فأُخذتْ طبرق في الثالث عشر من تشرين الثاني. لقد كان يقاتل الألمان بكلّ جدٍّ وجهد ممكن، وكانوا يقومون بهجمات معاكسة، ولكنْ في الثالث والعشرين من كانون الثاني تمكّن الجيشُ الثامن من دخول طرابلس. وقد استسلم الجيشان الألمانيُّ والإيطالي في تونس في

الثالث عشر من أيار. وفي نهاية حملة الصحراء الغربية قُتل مليون ألماني أو سُجنوا، ومن هؤلاء الذين عادوا إلى طبرق سلاحُ عتاد الجيش الإنجليزي والتصنيع والتخزين والتفتيش والتزويد، وأنيطتْ بهم مهمة المحافظة على الذخائر والعتاد. لقد زرعوا الألغام لحماية طبرق، وكان عليهم أيضًا إزالتها عندما أصبحت المدينة مع القوات الإنجليزية. وخلال تحميل الألغام المجموعة فقدَ الجنديُّ (سام فلاناجان) يدَه في انفجار، وكان صديقًا للجندي (ستان هيث) في وادي صرار، وزار (هيث) صديقَه في المستشفى بعد فترة قصيرة من الحادث. وقد طلبَ الطّبيبُ من (هيث) ألّا يُخبر (سام) بفقده يدَه.

في النّهاية الشّماليّة من تلّ أبيب قربَ نهر (ياركون) يقعُ معرضُ صناعات ما قبل الحرب، الذي يسمى معرض الشرق (Levant Fair)، كان موقعًا آخرَ لعمل سلاح عتاد الجيش الملكي.

وفي تشرين العام 1942م، أدرك مكتبُ الحرب أخيرًا أنّها كانتْ حربًا آليّة، وقد تألفتْ مجموعة مهندسي الآليات والكهربائيات الملكية، وأُرسل للفرقة الجديدة مصلحو آليات مدربون من سلاح عتاد الجيش الملكي وأفرادٌ مناسبون من سلاح الهندسة الملكي وسلاح خدمات الجيش الملكي، وكانت المعامل تحت مسؤولية المهندسين الملكيين (REME).

لقد كان موقفُ الألمان في ابتدائهم الحربَ أفضل، ولكنْ عندما أصبح تشرتشل رئيسًا للوزراء بدأت الأمور تتغير.

وكان (كين إنجل) في المعامل الفرعيّة الرّئيسة (3) بتلّ أبيب في تشرين 1942م، عندما أصبحتْ جزءًا من سلاح المهندسين الملكيّ. وأما (إنجل) فكانت الوظيفةَ ذاتَها والمعاملُ هي هي وبالأجر نفسه، إلى أن قُرّر نقلُها إلى ليبيا في شباط، لتصبح ملحقةً بالجيش الثالث 1943م.

وقد أصبح الآنَ في قيادة المعامل المتقدّمة الثالثة. توقّفَ أسطولٌ كبيرٌ من العربات في رفح وهو في طريقه إلى شمال أفريقيا لجمع ما في المخازن من معدات، إضافةً لبعض الموظفين، وكانت نقطةُ التوقف الثانية في تلّ الكبير حيث جمعوا آلات معامل إضافية ومخارط وآلات طحن ومطارق حدادة، وما شابه، وموظفين.

وفي الأسبوعين الأخيرين قطعَ أسطول (كين) ما يقارب ألفًا وخمسمئة ميل من خلال شمال أفريقيا إلى طرابلس، وهناك عملوا دكاكين في ثكنات الجيش الإيطالي، مع تجهيزات معامل جيدة.

يقول (كين) أنّه لم يكن يشعر بالخطر في شمال أفريقيا، ولكنّه كان مبهورًا بالحرس في رفح.

كما يقول أن الخطرَ الوحيدَ هم الحُرّاسُ المستعدون لإطلاق النار. «في أثناء مغادرة فلسطين للالتحاق بالجيش الثامن، كانت مناسباتٌ تُعْقد، فتُمضي ثلاثةَ أيام في رفح نجمع الذخيرة والأمتعة؛ وفي اليوم الأول، بعد أمسية في مطعم ضباط الصف، حُذِّرنا تحذيرًا جِدّيًا بأنْ نتجنّبَ الذهاب من الطريق الترابية، وعلينا أن نسير بالطريق الرئيس حتى نصل إلى مَنَامَاتنا، وقد كان مخزن الذخيرة محروسًا مِن قِبَل أفراد من الفرقة الهندية الرابعة متحمسين كثيرًا للحراسة وإطلاق النار على أيّ شيء يتحرك، وقد أُخبرتُ أنّ العقوبة في إحدى الوحدات هي حرمانُ الحرس من الحراسة أسبوعين؛ فقد كان هذا يُعَدُّ عارًا».

وأخيرًا تمَّ طردُ الألمان من الشّرق الأوسط، وأَثبتت الأيامُ أن ما وصل إليه هتلر كان أكبرَ من أن يَسَعه السيطرة عليه. ومن الشرق الأوسط انتقلت الحرب إلى أوروبا مع وصولها إلى صقلية.

كتبَ (كين): «عملُنا في طرابلس كان مكثّفًا جدًّا، وإنجازُ العربات كان مميّزًا ومبهرًا، وكذا إنجاز السفن الحربية أيضًا. وبعد أربعة عشر شهرًا لحقتِ السفنُ الحربية الجيش البريطاني في إيطاليا».

أدى مستودعُ العتاد الرئيس (2) وميناءُ حيفا دورًا رئيسًا في تزويد الأسلحة والموادّ الحربية.

وكان رجال المستودع في رفح أولاً، ثم انتقلوا إلى حيفا، لأن العمال المدنيين كانوا متوافرين هناك، وكذا الميناء الوحيد في فلسطين الذي يعدّ ميناءً عميقًا.

وقد قَدّر الجميعُ هذه الخطوة: معسكرٌ أفضل، ومرافقُ ترفيه، وأجواءٌ أحسن.

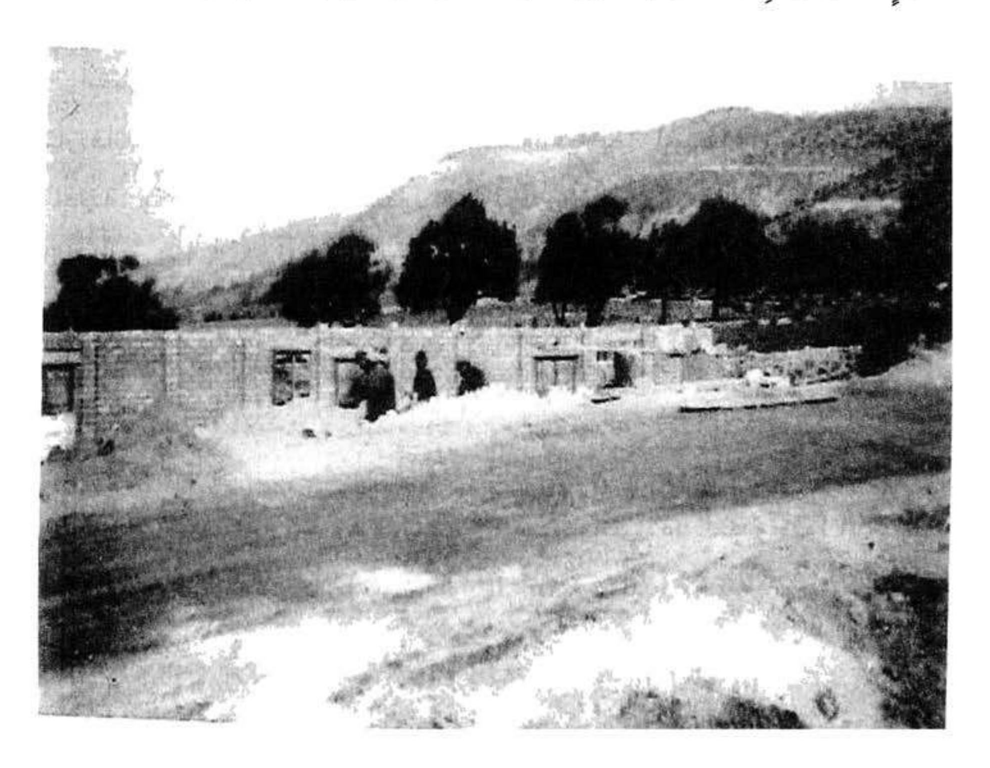
انتقل معهم أيضًا اللواءُ (هيتيشكوك) المعروفُ للرجال بـ(سكراتش)، الذي كان قائدَهم منذ البداية في رفح. وفي المستودع بحيفا، استطاع أن يعيش بشقّة في المدينة، وكانت الرُّتَبُ من العميد فما دونه سعيدةً بالبعد عن رفح. وقد كان العميدُ مهتمًّا جدًّا بالموضوع، ولذلك رأى أنّه سيكون أَعْدَلَ إذا ما بدّل ببعض الرجال في حيفا رجالاً يخدمون في رفح.

ولكنْ كانت ردّة الفعل مفاجئة! لأنّ رجال رفح لم تعجبهم الفكرة لعدم رغبتهم بالخدمة في مستودعِ ذخيرةٍ قريب من العميد والقيادة؛ «لقد وجدوا البعد عن القيادة حسنًا» كما يقول (جون تاران) الذي استُبدل، لكنّه اندهشَ إيجابيًّا عندما تحسّنتْ رفح عمّا كانت عليه عام 1941م.

«كان لديهم مرافقُ غيرُ متوافرة في معسكر (153): بركة سباحة، وملعب تنس، وغرف بلياردو، ورحلٌ منتظمة أسبوعيّة إلى تل أبيب والقدس. وكانت مشكلة العمل قد حُلّت إلى درجة كبيرة؛ مئاتُ السجناء الإيطاليين يعملون في المستودع، ورضُوا -كما يظهر- بانتهاء الحرب ليكونوا في أمن وراحة».

لقدْ كانَ أهلُ فلسْطينَ يَعيشونَ في زمن الحربِ أيّامًا أفضلَ من أيام بريطانيا. لقد كان الطعام متوافرًا في الدكاكين والأسواق أكثر منه في بريطانيا. وفي بواكر العام 1942م عسكرت القوّاتُ تحتَ الخِيَم بينَ أشجار الزّيتون في معسكر (153) في وقت بناء المساكن الدائمة، وكانت الحمامات المبنية من الطوب قد أقيمت

أوّلاً، ثم قام العربُ ببناء مكاتب الكتيبة. وقد كان المجتمعان اليهوديُّ والعربيُّ مزدهرين ازدهارًا كبيرًا، قبلَ الانتداب وبعده، كان كثير منهم يُوَظِّفُهم الجيش. والنّاسُ خارجَ الخدمة أو مجازين تأتيهم إيراداتٌ كثيرةٌ من العمل بالحانات (البارات) أو المقاهي أو الفنادق. وكانت لكلّ الخدمات الخلفية في فلسطين فرقُ شراءٍ محلية يُمكِنها طلبُ بضائع منتجة محليًّا أو تنميتُها محليًّا أيضًا.



جبل الكرمل يظهر في خلفيّة الصّورةِ المقدَّمةِ مِنْ (جونفارو)

عاش الرّجالُ الذين أبحروا من بريطانيا عام 1941م وتوافدوا إلى فلسطين، أربعةَ أعوام في أيام حرب مريحة أكثر، وقد لخّصَ (جون تاران) ذلك بالقول: «نحن الذينَ كنا في مستودع الذخائر الرئيس وعَملْنا كتّابًا وأمناء مستودعات؛ كنا في الحقيقة نمارس عملاً مدنيًّا، ولكنْ بزيّ عسكري، بعيدين عن الوطن، وفي ظل نظامٍ عسكريّ. كان الجانبُ العسكريّ من مستودع العتاد الرئيس(BOD)

مُنفصلاً عنه، وكان الضابط ومعاونه وفريق العمل في مكتب الضابط المناوب جميعًا مسؤولين عن الإعاشة والسكن والترفيه. وكان مطلوبًا منّا أيضًا تجديدُ تدريبنا وتزويدُ المستودع والمعسكر بالحرس، بين الحين والآخر، ويبدو في ذلك شيء من التقييد، لكنْ بالعموم لا يُعدّ هذا شيئًا يُذكر ولا يتعدى كونه إزعاجًا ثانويًا. وكان لدينا عددٌ من رتبةِ رقيب أول، من حرس الفرقة، وكانوا يُحبَطون من محاولاتهم العديدة لجعلنا جنودًا، وكان (ر. س. م برادلي) يَفوقُهم كما كنتُ أظن».

وكلاءُ الكتائب كانوا أعضاءً مرحَّبًا بهم في وحدة الخدمة الخلفيّة، وكان المجنّدون والضباط الصغار يقدرونهم أيضًا، وقد كان تقديرًا متوقعًا من قِبل بعض المجندين عند مواجهتهم الأولى مع الرقيب الأول لمستودع التدريب. قَدّم الرقباءُ والضباطُ ذوو الخبرة ترتيبًا معيّنًا (خطةً) ونظامًا للجنود قليلي الخبرة؛ لقد هدَّأوا المرؤوسين المتهورين، ووَعَّوا الضباط المدمنين، وحمَّسوا الجنود المتراخين.

مَدُّ الحرب بدأ يعود، وامتدتْ خطوطُ الاتّصال الألمانيّة في روسيا إلى درجة عدم القدرة على إدارتها، وبدأ الروس يستعيدون بعض أراضيهم التي خسروها، ودخلتْ أميركا أخيرًا في الحرب. آلافُ الغارات بدأت تضرب المدن الألمانية، وهو ما أراح السكانَ المدنيين البريطانيين بعضَ الراحة فالألمانَ الآنَ يذوقون بعضَ المرارة التي ذاقوها. ومع هزيمة (رومل)، وبعد أنْ أصبح شمالُ أفريقيا بيد الحلفاء، صار باستطاعة الحلفاء الدخولُ إلى أوروبا من البحر الأبيض المتوسط. وفي التاسع من تمّوز 1943م غَزَا الحلفاءُ صقلية. وبرزت أهميةُ فلسطين الإستراتيجيةُ مرةً أخرى. وقبل الحرب جعلتْ بريطانيا حيفا ميناءً رئيسًا للبلاد ومكانًا مثاليًّا لتحميل الرجال والمواد إلى سفن التحرير ليَكونوا قاعدةَ إمداد رئيسةً كمَوْطئِ قَدَم؛ فصارت فلسطينُ بذلك ترسانةً ضخمةً آمنةً من أي اعتداء عدا بعض الاعتداءات الثانوية غير المؤثرة من القواعد الإيطالية، واستمرت قاعدةُ الذخيرة بالشرق الأوسط في التوسع لتبقى داعمةً لحملة إيطاليا ولِتُخَفّفَ

من الإرهاق الذي تعانيه قواعدُ بريطانيا، كما أنها كانت رابطًا رئيسًا في سلسلة إمداد جنوب شرق آسيا التي كانتْ مسرحًا لكثيرٍ من الضغط الذي تعرّض له الحلفاء، فهذا التوسع احتاجَ إلى رجالٍ أكثر في المجالين العسكري والمدني.

نادرًا ما كان الجنودُ الذين يغادرون بريطانيا يعلمون أين ستكون وجهتهم، وهؤلاء الذين يتجهون إلى الشرق الأوسط نادرًا ما كانوا يعلمون وجهتهم أيضًا وأنّهم غيرُ ذاهبين إلى إيسلاندا أو فنلندا إلّا عندما يشرعون في الإبحار نزولاً عند ساحل أفريقيا الغربي، ولا يعلمون أنهم ذاهبون إلى مصر إلّا عندما يصلون البحر الأحمر، حتى وهم في مصر لا يعلمون إذا ما كانوا ذاهبين إلى شمال أفريقيا أو إلى فلسطين شمالاً إلى أن يركبوا القطار. وقد كان معروفًا أنك محظوظٌ إذا كنت ستذهب إلى فلسطين. وبغضّ النظر عن الجهة التي ستذهب إليها، فإن الرحلة ستكون طويلةً وحارةً ومتعبة. لقد كان (كين براون) عادلاً، وهذه هي مذكّراته عن رحلته إلى المعامل الرئيسة (3) في صرفند من (الكبير):

الخميس، السّابع والعشرون من شهر أيّار 1941م

أمضيْنا وقتَنا صباحًا في العرض العسكريّ نَدخل ونَخرج، ولكنْ عند الساعة الثالثة مساءً كنا جاهزين للتحرك وركوب القطار الموجود في محطة القطار. وكان هذا الخطُّ يُعتبر الخطَّ الرئيس للصحراء الغربية. ولحسن الحظ، كنا ذاهبين في الاتجاه الآخر، وقد أخذتْنا الطريقُ ثانيةً من الزقازيق باتجاه القنطرة في قناة السويس، وقطعْنا القناةَ على متن زورق، وبعد وجبةٍ جيدة من السوسيج والجريش والفاصولياء، استرحنا إلى الساعة الثالثة صباحًا عندما تجمّعْنا بكامل عدتنا لنتحرك إلى عريشة التحميل، وقد عُيِّنَ لكل عربةٍ بضائعَ عشرون رجلاً مع عريفٍ مسؤول عنهم، وقد استمتع الضباط في جلوسهم بعربة في مقدمة القطار، وكان العريف (ووكر) المسؤولَ عن عربة التحميل الخاصة، وهو شخص مرح. وأخيرًا تحرّكْنا ببطء في صحراء سيناء، والطريقُ الوحيد ذو الخط الواحد كان يمتد في الصحراء عدا بعض التحويلات في أماكنَ عديدة، وكنا نتبادل

الأماكنَ حيثُ يوجد ثلاثةٌ في مدخل السيارة المفتوح، والبقيةُ إمّا نائمين وإما يلعبون الشّدّة.

وفي منتصف النّهار، كنّا أنا و(جيم ويد) و(ولتر سبيك) نجلس على المدخل المفتوح، وكنتُ يقظًا، أمّا هما فنعسانان، عندما غرقْنا في الأفق، وسقطتُ من القطار لكني محظوظ لأنني سَقطتُ على رملٍ ناعم. نظرتُ إلى الخلف تجاه الطريق لأرى سيارتِ نقل الحرس تمرّ فقط. لم يكن معي سوى قميص قصير أرتديه وسكّينة، وبلا نقود، وأشعر بالدوار، وبعدها بدأتُ أنظر إلى القطار متمنيًا أن يفقدني أحدٌ وينتبه لغيابي، وبعد سيريَ بضعة أميال وجدتُني محاصرًا من بعض العرب الذين كانوا تقريبًا خمسة رجال أو ستة، وقد أمسكوا ذراعي... ولِمَن في مطلع العشرين من عمره، كان هذا منبّهًا ومحذّرًا، لكني بعد ذلك علمتُ أن هدفهم كان الاطمئنانَ بأنّه لا كُسُورَ فيَّ فقط. ويبدو أخيرًا أنهم قد افتقدوني، فأَطلق الوكيل (ووكر) نارَ بندقيته ليُحذّرَ السائق، ولكنْ دون فائدة، وقد شاهد العربُ هذا وأعطوني عبوات الخرطوش الفارغة. ثم وضعني هؤلاء بعربة وساروا بالخط تجاه العريش.

وبعد ذلك بساعة، سمعْنا صافرات القطار، فسحبْنا العربة من الطّريق، وكان هذا قاطرة القطار وعليه ثلاثة ضباط: أحدهم طبيبٌ خدمات في الجيش، وهو جنرالٌ من الجيش الأسترالي، مع الضّابط المساعد (وايتينج)، وضابط آخر. وكان سائق القاطرة الأكثرَ اهتمامًا، لأن عليه أنْ يكتبَ تقريرًا لمسؤوليه في سكة حديد فلسطين، ليُفسر لمَ ضياع الوقت. وقد سُعِدْتُ بالوصول إلى القاطرة التي أُرجِعَتْ للقطار الذي توقف في خط التحويلة. وقد فرّغ القائدُ مقعدًا طويلاً في عربة الضباط حيث جلست. استمر الضابط الطبيب في تغسيل وجهي وفحصِ عيوني. وقد طُلب مني أن أرتاح وأُعطيتُ جرعةً من دواء الملح الطيار (السال فولتيل)، وأُعْطيتُ علاجًا إضافيًّا مع الشاي والشطائر (الساندويشات)، لمّا وصلْنا محطة العريش. تَوقّف القطار بعض الوقت للتزود بالماء، وقد أعطاني

الضابطُ الطبيب علاجًا مرةً أخرى ليتأكد فيما إذا كنتُ ما زلت أعاني من الصدمة.

وبعد مغادرة العريش، جاء الطبيب ليطمئنّ على شفائي، وقد أكدتُ له أنني أصبحتُ أفضل فأعطاني بعضَ الكتب لأقرأها، وكان الكتابُ الأوّل لـ(تولستوي) وعنوانه (السّلم والحرب)، ولم يكن الكتابَ المناسبَ في ذلك الوقت. وأخيرًا اجتزْنا الحدودَ من مصر إلى فلسطين ومنها إلى حاميةِ السّلم في صرفند ومنها إلى مساكننا ثكناتِ سلامانكا (Salamanca Barracks)، ووضعْنا أغراضنا في الكُوخ رقم (5). عاود طبيبُ المحمية إعطائي العلاج وفَحَص عينيَّ فوجد أنهما ما تزال بهما حرقة فطلب مني مراجعته بعد ثلاثة أيام.

(تشارلي إيلز) من مواليد العام 1905م، خدمَ في سلاح العتاد الملكي من 1923م إلى 1929م، وفي تلك المدة خدم في مصر والصين. وبصفته جنديًّ احتياطٍ -وكان يستلم (شلنًا) في اليوم عشرَ سنين- استُدعي لإنهاء خدمته أول أيلول 1939م، وقبل أن يُنهي بشهر سافر بالقناة إلى فرنسا مع سَريّة ذخيرة سلاح عتاد الجيش الملكيّ المتقدمة، والأحداثُ متتابعة، وقد كان عليهم في السابع عشر من حزيران تركُ المعسكر والسفرُ بآخر شاحنة، وغادروا فرنسا من (سانت نازير) في الثامن عشر من حزيران على متن المدمِّرة (هـ.م.س فانوك)، ومنها نُقلوا إلى سفينة شحن قديمة، وقد رسَوا في (ساومثبتون) متعَبين جائعين بعد رحلة طويلة، وكان ذلك في الثاني والعشرين من حزيران.

وللحاجة إلى الرّجال في الشرق الأوسط، سافر (تشارلي) إلى هناك عن طريق رأس الرجاء الصالح بسفينة حربية اسمُها (روهاين). وقد نُقلتْ سريّةُ تشارلي، سريّةُ الذخيرة المتقدمة، إلى (أبو سلطان) في مصر، وأُرسِلَتْ اثنتا عشرة سريّة -ومنها سريّة تشارلي- إلى (سيدي حنيش) في الصحراء.

وبعد ثلاثة أسابيع، عدنا إلى (أبو سلطان) من الإسكندرية، وفي اليوم الثاني غادرْنا إلى فلسطين بالقنطارة. كانت بساتين البرتقال المشهدَ السائد بعد

الصحراء، ورائحةُ الأزهار في السماء لا تنسى، وكانت وجهتُنا إلى وادي صرار، المكانِ الذي قَتَلَ فيه داودُ عليه السلام جالوتَ وفق ما جاء في الكتاب المقدس.

وكان (مالتيز) الضّابطُ المسؤول عنّا؛ يتجوّل على فرسٍ أبيضَ جميل، وبدا لي أنني سأختلف معه في أوّل لقاء؛ لقد اتهمني بالتقصير في واجباتي، وأمطرني بوابل من الشتائم.

وبصفتي عسكريًّا نظاميًّا سابقًا أخبرتُه أنّ الضّبّاط عادةً لا يفعلون ذلك. وفي الدّائرة العسكرية، إذا كنتَ شرسًا ستُنقل -على الأغلب- بعيدًا أو تُرقّى. كان يستطيع أنْ يفعلَ واحدةً منهما، لكنّه فعلَ شيئًا غريبًا؛ لقد أُرسلَ لنا قطارٌ محمّلٌ بالمتفجّرات مِن قاطع القناة، وصَدِّقْ أو لا تصدّقْ: قد فُقد! وأرسلني مع أربعة رجالٍ آخرين وشاحنةٍ صغيرة وطلبَ منّا أن نَجده! وكانت من المهامّ الحمقاء، ولكنّني كنتُ سعيدًا بذلك؛ فقد كنتُ دائمًا مهتمًّا بمناطق الأراضي المقدسة، ولذلك ظننتُ أن ذلك شيء حسن.

اتّجهْنا نحو الجنوب، ولم يكن لدينا خارطة، ولكنّ الاعتماد على الشّمس والسّاعة كان سهلاً بعضَ الشيء لكي نتنقّل في النهار. إن النجوم والشمس في الشرق الأوسط متوافرة بنسبة خمس وسبعين بالمئة من السنة؛ فالشمسُ والنجوم ساطعةٌ جدًّا. زُرْنا الخليل و(جات) والتحقْنا بوحدة أسترالية للطعام والتزود بالوقود، وطلبتُ منهم أن يرسلوا إشارة -وهي نوعٌ من البرقية- للوحدات المعنية كلها، واعتياديًّا لا يمكن أن يقوم بذلك إلّا ضابط صف، ولكن وضعَ الوحدات الأسترالية مختلفٌ تمامًا، وقد وُجهتْ هذه البرقية إلى رئيسِي المناوبِ ومستودع الذخيرة وضباط سكة الحديد في الشرق الأوسط، وهي تنص على أنني أبحث عن قطار، وأنني مع وحدة أسترالية. وبعد أن رأيتُ اهتمام أماكنَ عديدة أبرقتُ أنّني لا أرى أيّ قطار، منتظرًا تعليماتكم. وقد جاءني الجواب بعد ذلك بالعودة إلى وادي صرار. ثم أخبرني ضابطِي المناوبُ أنه سيرسلني إلى مكانٍ يسمى جسر المجاميع وقال: «خذْ سائقًا مدنيًّا وأربعة رجال معك». لم أكن أعلمُ أين هو ولكنّني أظنّ أنّه قريبٌ من البحيرة. إذن كان هدفُه أنْ أضيع فعلاً.. لا أعلم،

ولكن الرغبة في الذهاب كانت شيئًا أساسيًا. السائقُ اليهودي بشاحنته وصلَ من مزرعةٍ قريبة، ولكنه هو أيضًا لا يعلم أين تقع.

«تقع القدسُ على بُعد بعض الأميال إلى جهة الشرق. كانت خطّتي أنْ أذهب إلى القدس من دون أن أسأل أي سؤال، وأشتري خريطةً من القدس. ربما تكون رحلتي إلى القدس أكثرَ رحلة مثيرة في حياتي. نزلنا الوادي المليء بالمنعطفات الحادة، وعلى جانبه منحدرٌ، وعلى جانبه الآخر هاويةٌ سحيقة، بعربةٍ قديمة يقودها سائقٌ مهووس.

ولِنجدَ وقتًا لزيارة الأماكن الممتعة في القدس عطّلنا سيارةَ السائق لِنُبرّر تأخرنا إذا اشتبهتْ بنا الشرطة العسكرية».*4

مخازنُ الذخيرة شرقَ قناة السويس وفلسطين طُوِّرَتْ تدريجيًا، وقد بني مخزن عتاد في وادي صرار بين صرفند والقدس عام 1941م، ثم أصبح اسمُه مخزن العتاد المتقدم (3). وجرتْ تطويراتٌ أخرى نتيجةً للحملة على سوريا وتهديد الشمال الذي استمرّ حتّى بعد احتلال سوريا. ثم صار اسمُه مخزن الذخيرة الأساسي (2)، مع مخزن فرعي في عكا. وفي ذروة العام 1942م كان في مخزن وادي صرار ثمانيةَ عشرَ ألفَ طنٍّ من الذخيرة، وفي فرع عكّا ثلاثة عشر ألف طنّ. وقد وصلَ الوكيلُ (تشارلي كيد) إلى وادي صرار عام 1942م وكتبَ عن الظروف هناك:

«عندما وصلْنا إلى وادي صرار عام 1942م لم يكن هناك كثيرٌ من المرافق في الطريق: لم يكن هناك حمامات، وفي الشتاء كان الطين يصل إلى رُكَبنا، والحماماتُ عبارةٌ عن دِلاء، وهي بعيدةٌ ثلاثين يَاردةً فقط في طريق طينيّ، ومزوّدُ الماء غالبًا ما يكون مقطوعًا. وقد تألّفتْ وحدتُنا من أشخاصٍ حديثي الوصول إلى الشرق الأوسط، وأنا كنتُ قد وصلتُ للتوّ أيضًا، ولكن البعضَ كانوا في الصحراء قبل القدوم إلى وادي صرار.

في السنة الثّانية كانت الأمورُ أكثرَ تنظيمًا؛ فقد كان هناك أكواخٌ مُهَوّاةٌ

وحمّاماتٌ مرتبطةٌ بالمرافق كلّها. وفي الصيف كنا نعاني من البَقّ والقمّل، وقد كانت مخابئُ (الديناميت) تُتّخذ ملجأً لها. أَسِرّتُنا كان لها فرشٌ من قشّ، ورغم أنها كانت تُوْضَعُ في الخارج نهارًا؛ كانتْ مليئةً بالبق، وعندما نحاول النوم يأتي البقّ لعشائه في الليل!

مصنع التّعبئة ومخزنُ الذّخيرة الرّئيس كانا دائمًا يُزَوَّدانِ بمدنيّين وعسكريّين من دول (الكومنولث). كان هناك تدويرٌ عالٍ من الموظفين؛ فكان لدينا هواة فلسطين، ووحدة يهودية، ووحدة من شرق أفريقيا، ووحدة هندية، وسرية عربية. وفي منتصف العام 1944م كان هناك تقريبًا حوالي خمسة وعشرين عضوًا في سلاح الدبابات أصيبوا وتعافَوا وعادوا إلى وادي صرار، وهذا ما ضاعف قوة الإنجليز.

وقد كان هناك إضرابٌ واحدٌ عندما ذهبتِ السّريّةُ الفلسطينيّة إلى صالة عرض الأفلام (السّينما) في اليوم الذي كان الدّور فيه لهواة فلسطين اليهود: ثلاثةٌ منهم أصيبوا، والباقون حاولوا الرّجوع لجلب سلاحهم إلى معسكرهم فوق التّلّة. وعلى كلٍّ، أَخذ ضابطٌ بريطانيٌّ وأربعةُ رجالٍ شاحنةَ (15) (cwt) ووصلوا إلى هناك قبل أن يصلوا، ونصبوا طاولة عليها سلاح (برين) لكي يمنعوهم. وقد تبعهم كثيرٌ منا وقوات سلاح العتاد الملكي. وذهبتْ وحدةُ شرطة عسكرية إلى هناك، ومن ثَمّ أُخذ العرب بعيدًا بالشاحنات. ثم صارت هناك وحدةُ كلاب لحراسة مستودعات الذخائر ووحدةُ مركباتٍ لإطلاق دوريات على الحدود».

المراجع:

1. القوات العراقية الإيرانية 1940
2. الحرب العالمية الثانية، الجزء الثاني، ونستون تشرتشل، كاسيلز
3. حياة الجيش، غير منشور، كين براون
4. ذكريات، غير منشورة، الرقيب تشارليز إيليس

3. أوامر الحركة

السّفرُ إلى ما وراء البحار في غير أوقات الحرب كان لا يعدو حُلمًا لصغار العمر. قليلٌ مَن زاروا دولاً خارجية، وقليلٌ مَن كانوا يحلمون أن يفعلوا ذلك في الحياة المدنية. أما نحن فقد سمحتْ لنا حياةُ الخدمة بذلك رغم المخاطر. أحلامُنا كانت من إلهام أفلام الرحلات التي نراها في صالة عرض الأفلام وعلى الصفحات البراقة لمجلات الجغرافيا الوطنية. ما فعلناه لم يُحقّق حُلمَنا ولا حتى نصفه. إن الطريقة الصعبة لسفر جيش كبير هدفُه الأساسي التوفير الاقتصادي بقدر المستطاع، تجعلُ رحلاتِنا بعيدةً كلَّ البعد عما نراه في الوصف المُغري لصحفيٍّ مسافر. ولكنْ رغم ذلك جلبت معها أشكالاً مختلفة من المتعة والمفاجآت لجنديٍّ مكلَّف. كانت الجيوش المسافرة –حرفيًّا– هي أمُّ كلّ الرحلات الشاملة المنظمة. وقد بدأت عامَ 1884م عندما أعطي (توماس كوك) وظيفةَ تحريك كلّ قوات اللواء (جوردن) الاستكشافية إلى السودان.

في لحظة انتهاء الحرب العالميّة الثّانية كَثُرَتْ طلباتُ التّنقّلات العسكريّة بنحو كبير؛ هناك قوّاتٌ للحلفاء تريد الرجوع إلى الوطن، وهناك مئات الآلاف من أسرى الحرب لا بدّ من عودتهم، وهناك أشخاصٌ تغيرتْ أماكنهم فتعقدت المشكلة. كان لا بدّ من استبدالِ مُجَنَّدي ما بعد الحرب برجالِ خدمة ونساء كانوا بعيدين عن الوطن لمدّة تصل ست سنين. كان العدد الأكبر يعود إلى الوطن، ومَن يغادرُه أكثرُ من ذلك؛ وكان هذا ظرفًا حتميًّا بعد مغادرة فلسطين. ورغم العمليات العديدة، برزتْ مشاكلُ لا مفرَّ منها في هذه المناسبات وأمثالها.

وكانت القوّاتُ المتحرّكةُ عرضةً للنّشاطات الإرهابيّة؛ ليس في فلسطينَ فقط، بل في مصر أيضًا، والذي يَظْهَرُ اضطرابٌ كبير في سنوات ما بعد الحرب. وهل كان هذا نتيجةَ أعمالٍ فردية أم وحداتٍ؟ سؤالٌ ضروريّ. وقد كان هناك دعوةٌ للطابور في كل محطة ليلية. وكان زامور الإنذار يُطلق فور فقدِ أي شخص. وقد

تحملتْ قواتُ نقطة العبور مسؤولية هروب شخص منها، ولم يكن ذلك متوقّعًا في أثناء العودة إلى الديار، ولكنه حدث في أثناء مغادرة(ليو شامبرز)مستودع الذخيرة (614) الرئيس في فلسطين. ويذكر(هارولد دريبر) أنه فُقد من جماعته من دون أن يلاحظوا هذا مدّةً قاربت ستة أيام، وقد ظُنَّ أنه أُجيز إجازةً غيرَ رسمية من (فايد) هو وبعض الزملاء من مركز المغادرة.

في العام 1864م كان أفضلُ طريق للوصول إلى القدس من لندن عبرَ أسرع طريق مباشر، بواسطة سكة الحديد في البحر ثم بالحنطورِ العربةِ التي يجرّها حصان. وعن طريق فرنسا وإيطاليا، البحر الأدرياتيكيّ والأبيض المتوسّط. والمرحلةُ الأخيرة من يافا إلى القدس بالحنطور. وتستغرق الرحلةُ كلها ثمانية أيام.

وقد أصبح الطّريقُ معروفًا عندما افتُتحتْ قناةُ السويس عام 1864م، وطُوِّر ميناء (بريينديسي) ليستوعب سفنَ مسافرين أكبرَ حجمًا. والطريق البري كانت تستخدمه من فرنسا القواتُ البريطانية، إلى أن احتَلّتْ ألمانيا فرنسا ودخلتْ إيطاليا الحرب.

وبعد الحرب، أُعيدَ فتحُ الطّريق البرّيّ من فرنسا وإيطاليا، وكان الشّاويش (جاك هايمن) الذي خَدم في مستودع العتاد الرئيس (2) بين العامين 1941 و1945م، من أوائل مَن استخدموا هذا الطريق الذي أُعيد فتحه وهو المسمى (ميدلوك) . وكان كاتبَ مذكّراتٍ ثقةً يُوثق الأمورَ لا بالأيام والتواريخ حسبُ، بل بتواريخ المغادرات بالساعة وفي مراحل الرحلة كلها. وبعد ثمانين عامًا من إعادة افتتاح هذا الطريق أُخذ منه ومن زملائه ما مجموعُه تسعة وخمسون يومًا منذ مغادرة معسكر (153) ليصلوا إلى الوطن. وإن الخدمات التي يجب تقديمُها لنقل سرية من الجنود تُعْتَبَرُ أعظمَ وأصعب كثيرًا من نقل مجموعة مستقلة من المسافرين. وطبعًا، مِن مذكرات (جاك) شعرْنا بالإحباط الذي أصابه في مدةِ بُعده عن الوطن.

وقد غادر معسكرَ (153) يومَ الاثنين في السّابع عشر من أيلول 1945م، وقد بدأ اليومَ بالنحو الاعتياديّ: ذهبَ للفحصِ المعتاد ليتأكد من خلوه من الإصابة الساعة السابعة صباحًا. وفي الثانية عشرة أُخذت القوات مع عدتهم إلى محطة حيفا المركزية بالشاحنات، وقد أُخذوا للذهاب بالقطار المتجه نحو الجنوب الساعة (13:55).

وبعد رحلةٍ امتدّتْ ست عشرة ساعة وصلوا إلى تل الكبير الساعة (06:00) يوم الثلاثاء في الثامن عشر من أيلول.

وقد وصفَ (جاك) الرحلة بأنها مضطربة، وكان عليهم تغييرُ الحافلة في منتصف اللّيل في وسط سيناء. وقد أخذتْهم النقلياتُ إلى مستودع العتاد(5) ليكونوا في التجمع في تمام الساعة (9:30). وجُمّعوا مرةً أخرى في تمام الساعة (14:00)، ثم تفرقوا في النهار.

وفي خمسة أيام أصبحوا في حالة «ملل بسبب انتظار القارب»، وقد أُشيعتْ هناك إشاعاتٌ كثيرة ولكنْ دون فِعْل. وعلى كلّ، رَتّبوا رحلةً إلى صالة عرض الأفلام المدنية في شعفاط. ويومَ الخميس الخامس والعشرين من الشهر التاسع، وبعد ثمانية أيام من مغادرة المعسكر (153)، كان الطابورُ المعتاد على الساعة (8:00)، ولكنْ –وأخيرًا– كان هذا اليوم هو يوم الفعل.

وفي السّاعة (23:10) غادروا محطّةَ سكّة حديد مستودع الذخيرة الرئيس (5) في القطار الذي وصلَ الإسكندرية الساعةَ (23:10) في اليوم الثاني. وقد مر الصباح وهم راكبون في السفينة (م. ف. باتوريك)، وسعد (جاك) وفوجئ هو ورفاقه أنّهم أُعطوا قُمراتٍ وهي غُرَف للضباط خاصّةً. وقد أَبحروا الساعة (15:40) وأصبحوا بعيدينَ عن مصر الساعة (18:00).

وفي السابع والعشرين من أيلول أُخّرَت الساعة ساعةً واحدة، وفي الثامن والعشرين وفي بحرٍ مضطرب ظهرتْ إيطاليا للعيان من بعيد، من مضيق (مسينا). مرت السفينة (أم في باتوري) من جزيرة (ليباري) الصغيرة مع

بُرجها البركاني النشط(tromboli).

أُخِّرت السّاعة ساعةً إضافيّة وأصبحوا الآنَ في توقيت بريطانيا، وأضحى الوطنُ قريبًا جدًّا. وبعد مرور مضائق (بونيفاسيو) بين (كورسيكا) و(ساردينيا) رَسَت (باتوري) في (طولون) الساعة (7:00) في الثلاثين من أيلول (سبتمبر)، وفي الساعة (10:30) كانوا في معسكر النقل (312). كان الطقس باردًا وتعيسًا، ولكن قرية (لاساين) كانت تستحق الزيارة.

وفي اليوم الثّاني، كانت هناك طوابيرُ أكثرُ عددًا، وفي السّاعة (22:15) في الأوّل من الشهر العاشر غادروا في قطار ألمانيّ. وبعد خمس وثلاثين ساعةَ سَفَر ورُبع، وبالسفر من فرنسا -وكانوا جالسين على مقاعد خشبية- وصلوا إلى (دييي) الساعة (9:30) في اليوم الثالث من الشهر العاشر. كان الأمرُ يحتاج أربعًا وعشرين ساعةً إضافية قبل أن تصل هذه القوات المنهكة وتركب العبّارة (أيل أوف ثانيت)، وبعد سبع ساعات وعشر دقائق نزلوا على التراب الإنجليزيّ.

وُزِّع الشّاي والكعك في الميناء، وكانوا في القطار باتّجاه محطّة (دونينجتون)، في مقاطعة (شروبشاير)، ولكن الرحلة لم تكن خاليةً من العوائق! كتبَ (جاك): «انتظرنا هناك طويلاً في محطة (كلافام جانكشن)، وبعضُ صبيان (لندن) سَخِطوا وغضبوا شديدًا». وصلَ القطار إلى محطة (دونينجتون) في الساعة (22:15).

شهدَ صباحُ يوم الجمعة الخامس من تشرين الأول (أكتوبر)، مزيدًا من الاستعراضات العسكريّة، وكتب (جاك): «انزعجَ الجميعُ من التأخر». جُمعت الأجورُ والمؤن الساعة (12:00) ثم غادر (جاك) أخيرًا إلى المنزل الساعة (13:55) ووصل في منتصف الليل.

بَلَغَتْ مدةُ بُعْد (جاك) من يوم مغادرته المملكةَ المتّحدةَ إلى يوم عودته ألفًا وخمسمئة وستةً وعشرين يومًا، استغرقتْ عودتُه إلى المنزل آخرَ تسعة وخمسين يومًا منها.

لمْ يَكُن المجنّدون الشّبابُ الذين يسافرون إلى الخارج أوّل مرّة مُهتمّين بحساب الساعات، بل بالتفاصيل والتجربة الجديدة للرحلة التي تجاوزتْ جموحَ خيالهم. غادرَ (ستان هايوارد) قريةَ (ألدرشوت) للسفر من طريق (ميدلوك) في الاتجاه المعاكس، متجهًا جنوبًا عبر فرنسا بعد ثلاثة أشهر أو أربعة من رحلة (جاك) في القطار التي استغرقتْ مدّةً أطول، ووَصل فريقُه المؤلَّف من عشرين مركبةً من محطة التصليح في قرية (ألدرشوت) إلى (نيوهافين) الساعة (16:00) قرب منتصف الليل، وتناولوا وجبة الإفطار وغادروا الميناء على متن السفينة (رويال دافوديل)، وهي سفينةٌ صغيرةٌ باسلة استُخدمتْ في إخلاء (دونكيرك). كانت ليلةً قارسةَ البرودة والسفينةُ مكتظة، وليشعرَ (ستان) بالدفء جلس قرب المدخنة التي ما تزال مثقوبةً من رصاص الإخلاء الذي حصل منذ خمس سنوات.

رسَتْ (رويال دافوديل) في (ديبي) عند الفجر، وبعدَ تناولهم وجبةَ إفطار ثانيةً استقلّوا القطار.. كانوا يجلسون على مقاعدَ خشبية مضلّعة، واستغرقت الرحلةُ أربعة أيام، وكان الرجال يَستلقون ويَبذلون أقصى ما يُمكِنهم ليرتاحوا، فناموا نومًا قصيرًا متقطّعًا على رفوف الأمتعة، وكان (ستان) واحدًا منهم.

كانت الجسورُ الممتدةُ فوقَ الأودية لتمكين القطارات من المرور فوقها في تلك الفترة تخضع للتصليح، فانخفضتْ سرعةُ القطار إلى خمسة أميال في الساعة. وفي (تولون) كانت قوات الأمن الخاصةُ (أشانيا) تنتظر وصول قوات العسكريين إليها، وجُهّزتْ بعض الطوابق لزيادة سعة الإقامة. توقّفت السفينةُ في (مالطا) لتتزودَ بالمياه العذبة، واستغرقَ الأمر أربعةَ أيام في البحر الهادئ للوصول إلى الإسكندرية. وليس ثمة حاجةٌ للتوقف في الليل في أيٍّ من معسكرات العبور في فرنسا أو مصر، وقد ركبوا قطارَ جيشٍ في الإسكندرية متجهًا إلى تلّ الكبير.

مُبكّرًا عامَ 1946م قامَ السّيِّدُ (برين كروس) بالرّحلة نفسها، وقد كَتب بعضَ المشاهدات الممتعة: «مع وصولنا لـ(ديبي) بعد سفر استمر خمسَ ساعات من القناة رأيْنا حطام المعركة وذخيرةَ (303) أيضًا على الشواطئ، وإن أنقاضَ المعاقل المهدّمة التي لم تُنظَّف لَدليلٌ على الغارة الكندية على (ديبي) في شهر آب (8)- 1942م. وخمسةَ أيام بقينا محاصَرين في معسكر النقليات في (ديبي) من قِبل السكان المحليين ومعظمُهم نساء؛ وكنَّ على استعداد لدفْع أي ثمن ليحصلْنَ على صابون (لوكس) والسجائر التي كنا قد اشتريناها من معهد القوى الجوية والجيش والأسطول البحري (NAAFL).

مقابلَ الجُنَيْه كنا نحصل على خمسة أضعاف سعر الصرف الرسمي، وللأسف لم يكن معنا كثير. استغرقتْ رحلة (برين) ثلاثة أيام قياسًا برحلة (ستان) التي استغرقتْ أربعة أيام، وفي كلّ مكان هناكَ آثارٌ للحرب وحطام، ومنها البنادقُ المرمية على سكة الحديد.

يقول (برين): «ومرّةً ثانيةً وجدْنا أنفسَنا في (طولون) في معسكر النّقل، ماكثين أسبوعًا، وما زلتُ أتذكر شيئًا واحدًا عندما سُمح لنا بدخول البلدة: رجلٌ كبير جالس بصمت، يحرك إبهامه نحو طريقٍ جانبي، وهو يفعل هذا -طبعًا- لأن فرنسا كانت قد سقطت بيد الألمان، وكان هناك في أعلى الطريق بيتٌ للدعارة والفساد (ماخور).

كان هناك بعضُ المحتجزين، وبعد ذلك بقينا ثمانية عشر شخصًا، ولم نرغب في الذهاب إلى الماخور؛ فلا نحب الذهاب إلى مكان كان الألمان يذهبون إليه. ركبْنا بالسفينة (يمباير ماس) التي كانتْ مُتعبة جدًّا، فلا غرابةَ في عدم رغبة الأمريكان السفرَ بها رغم أنها صُنعت في بلادهم.

لمْ نُعْطَ الخبزَ، بل أُعْطينا بعضَ (البسكويت) القاسي، وعندما كنّا نسافر إلى الإسكندرية بهذا القارب الذي يشبه حوض الاستحمام، كانَ دُوار البحر يصيبنا معظم الوقت».

(وولتر هوروكس) الذي كان في مستودع الذّخيرة الرّئيس، حدّثنا قصّةً مشابهة: لقد غادر إنجلترا في تشرين الثاني من العام 1946م؛ وقال بأنّ معسكرَ النقل خارجَ (طولون) كان في (هيريز)، وكان هناكَ حيث أُعطوا الزيَّ الموحدَ (الكاكي) الخاصَّ بالتدريب. وكَتب:

«كنّا قادرين على زيارة (طولون) التي كانت أوّلَ تجربة لنا لمناخ البحر الأبيض المتوسط، وحتى في شهر تشرين الثاني كان شيئًا عظيمًا أن تكون بعيدًا عن أيامَ الظلمة المملة في بريطانيا ما بعد الحرب، رغم أننا كنا نُذَكَّر بالحرب من مشهد الأسطول الفرنسي في ميناء طولون.

ومن الأشياء الجميلة التي بقيتْ في ذاكرتي: فَنّانو الأرصفة الذين كانوا يرسمون لك رسمات جميلةً جدًّا بفَرَنْكَات قليلة، وترحابُ نادي كنيسة (سكوتلاندا) الحارُّ جدًّا مع الدعوة لفنجان شاي، ويعتذرون عن تقديم الكحول (الخمر). وإيّاك والخمر! لا تفكّرْ بها».

(دينيس بيرنز) الذي كان في المغسلة (52) المتحرّكة، ذهبَ إلى هناك بواسطة طريق (دوفر كلايس) في خريف العام 1946م. كانت (مايس) ما تزال في حالة صعبة وفوضى منذ الغزو، وقد كان دينيس ورفاقُه قد أمضَوا الليل -قبل أن يركبوا سفينة (سترو بالايسيز)- في طوابقِ سفينة (دوفر كاسلز) العلوية. يقول:

«قَطعتْ رحلةُ القوات زُهاءَ تسعمئة ميل، ومن (ديجون وليون). كان لدينا محطّةُ وقوف واحدة للتنظيف والطعام، والجسورُ التي مررْنا فوقها كانت تبدو فاقدةً بعضَ أجزائها، وفي لحظات شعرْنا أننا نسافر على سكة حديد وسط الهواء، وبعد يومين من وجودنا في معسكر نقليات (هيررز) ركبْنا سفينةً حربية في (تواون) في رحلة تستمر خمسة أيام إلى بور سعيد».

ذهبَ جندُ (آرثر هاموند) من الطّريق المعروفة بـ(ميدلوك سي) عبر (كلايسن) وألمانيا والنّمسا وإيطاليا، وهي الطريق التي كان السواح يسافرون فيها عام 1864م، ومن إيطاليا تأخذهم هذه الطريق إلى بور سعيد من البحرينِ: الأدرياتيكي، والأبيض المتوسط.

وقد سافر آرثر عبرَ أوروبا في تلك الأيّام عقبَ الحرب مباشرة، لكنه لا يتذكر معظمَ الأماكن التي مرّ بها، وإنما يتذكر «مئات الآلاف من أولئك الذين لا يجدون مأوًى ويصطفّون في طوابيرَ طويلة على طول الطريق! وقد توقّفْنا في (كاليه وشتوتجارت، وميونيخ) من أجل وجبات مطبوخة، وقد قُدِّم لنا شطائر (سندويشات) لنأكلَها في القطار، لكننا أعطيناها للمشرَّدين في كلّ محطةِ توقُّف.

وفي (كارلسروه) كان شديدًا؛ وكانت المباني المدمرة ما تزال واقفة، فسُحبتْ وأزيلت وأعيد بناؤها فورًا».

قليلٌ مِن مجنَّدي ما بعد الحرب كانوا قد سافروا خارجَ الوطن قبلُ، وبعضُهم لم يرَ البحر إلا بعد أن أتاح له الجيش الفرصة للسفر.

أدّت أحداثُ العام 1946م إلى تغييرات في الإستراتيجية البريطانية في فلسطين، وقد جُمع عددٌ كبير من الجند لنقلهم إلى فلسطين في الأيام الأولى من العام 1947م؛ وكان عليهم الذهاب بالبحر، وعلى السفن التي ستأخذُهم إعادةُ العمال وأزواج الضباط النظاميين إلى بريطانيا. عامَ 1946م كنتُ من عديدِ المجندين الذين أُجيزوا إجازةَ عيد الميلاد ومباشرة العمل، وقد أُفسدتْ لسوء الحظ لأنه كان علينا زيارةُ الثكنات القريبة لإجراء تطعيم آخر، وقد كتبْنا لمستودع العتاد في فيلثام لنحصل على إجازات أكثر. وهذا -شخصيًّا- لمْ يؤثّر فيَّ لأني كنتُ واثقًا تمامًا من أننا سنذهب إلى ألمانيا بلدِ النساء الودودات و(كاميرات ليكا) المخفَّضِ سعرُها، ثمّ حان وقتُ وداع الوالدينِ والأجداد والجيران مرةً

ثانية. والطفل الذي كان جاري وعمرُه ست سنين، بكى لفراقي، وتجمّعْنا مرةً أخرى في (فيلتام)، ثم خُصصتْ لنا أسرّةٌ من طابقينِ في عنبرٍ كبيرٍ غيرِ مدفّأ. لقد كنتُ أشعرُ بالبرد الشديد، ونمْنا بملابس المعركة.

أخذَنا قطارُ الأنفاق إلى (بيكاديلي) لكي نَقْدرَ على تحمُّل سهرة ليلة السبت، وكانت المرّةَ الأولى التي نرى فيها قلبَ لندن الشهير، والمرّةَ الأولى أيضًا التي أتركُ فيها نفسي إلى درجة السّكْر بعد زيارتي حاناتٍ كثيرة، وهنا أيضًا نمْنا بملابسنا وأحذيتنا، وكنا نعلم أن هذا سيحدث لياليَ عديدة.

لم نُمْضِ وقتًا طويلاً في أسرَّة النّوم يومَ السبت عندما نُوديَ للاستيقاظ. وفي الظّلمَة صَفَفْنا بخطٍّ مستقيم، ثمّ طَلب منا ضابطٌ أن ننتشرَ أربعةً أربعةً.

كانتْ رحلةً باردةً في قطارٍ غيرِ مُدفّأ. وقد توقفَ القطارُ مرةً فظَنَنّا أنّنا وصلْنا، لكنْ بعدَ إزالة الجليد عن النافذة استطعتُ رؤيةَ علامة مضاءة إضاءةً خافتةً تخبرنا أننا في بلدة (باسنجستوك)، ولذلك عرفْنا بعدُ أن وجهتنا كانت إلى (ساوثمبتون).

وفيها صففْنا مرّةً أخرى تحت مظلّة مغادرة وأمامَ (مولتون س س). بزغ الفجر، وكانتْ تُثلج خفيفًا، وكلٌّ منا أُعْطِيَ فطائرَ وكأسًا مملوءًا بالشاي الذي كان يبرد قبل أن نضعه على شفاهنا. وبعد انتظار ساعتين وُجّهْنا إلى متن السفينة.. أُخذنا، أنا و(راي ماشين) و(جورج بيلينجز) ومئتان آخرون إلى الطابق الأرضي، وأُعطينا الأراجيحَ وأُخبرنا عن مكان تعليقها، وسرعانَ ما بدا واضحًا أننا سنكون مثبَّتين فيها بإحكام. كان ضروريًّا أنْ نربطَ الأراجيحَ كلَّ صباح لنتناولَ وجباتنا على الطاولات التي كانت تحتها مباشرة، وكان لدينا عرضٌ توضيحي حولَ كيفية القيام بذلك.

وتمّ بناءُ وتسجيل (مولتان) في (بلفاست) عام 1923م، وشُغِّلتْ بطانةً فاخرةً قادرةً على حمْل ستمئة وستة وخمسين راكبًا حتّى العام 1938م عندما حُوِّلَتْ

لحمل لحوم البقر المبرَّدة، وفي العام 1941م حُولتْ أيضًا، لكنْ إلى حربيّة هذه المرّة، بنقل زهاء ثلاثة آلاف مسافر. كانت هذه السفينةُ المليئة منزلَنا للأيام العشرة القادمة.

الذي بدأ دمدمةً لا غير، من عدم الارتياح، تحوّلَ إلى غضب! حيث لا أحدَ من الذين يمكن أن نشكو لهم، على متن السفينة! وكان هناك طابورٌ من الشرطة العسكرية مُستمتعِينَ لغضبنا! لقد سُحبَ سلّمُ السفينة ثم تحركتْ بعيدًا عن الشاطئ، لكنْ ليس لدرجة ألّا نستطيع تناولَ بعض الثلج لعملِ كراتٍ نرمي بها الشرطةَ العسكريةَ المتهكِّمة.

وتحتَ وابلٍ كثيفٍ من كراتِ الثّلجِ التي رميْناهم بها تراجعوا خطواتٍ عديدة.

كان معظمُ الرّجال على متْن السّفينة من مواليد سنة 1928م، وكانوا من جيشِ المجموعة السادسة والسبعين، وبهيئتهم لم يكونوا كجنود المشاة. وفي الحقيقة كان كثير منا متجهين نحو اتجاه واحد هو مستودع العتاد المتقدم (614)، ولم ندركْ ذلك إلا حين وصولنا.

وكان على متْنها هناك أيضًا رجالٌ قُدِّرَتْ لي رؤيتُهم مرّةً أخرى بعد خمسين سنة؛ وهم(هارولد برمي درابر، وأليكس موناغان، وأريك لونغ، وجون وايت، وجاك هيبس). أليكس الشاويشُ، يَكْبُرُنا بضع سنوات، وكان عليه أن يَنظر إذا كان الرجالُ قد استحمّوا؛ وكان هذا غيرَ ممكنٍ إلى أن وصلْنا جبل طارق.

وحينما حَلَّ الظّلام تحرّكْنا من قناة(سولينت)، ولكنّ الجوَّ كان عاصفًا فاضْطُررْنا للرّسو ليلةً في شواطئ جزيرة (وايت). وفي اليوم الثاني، شققْنا طريقَنا في القناة الإنجليزية، وكانت الرؤيةُ سيئةً جدًّا والبحرُ هائجٌ لدرجة أننا أمضينا أيامًا عديدةً لا نعرف أين نحن! ورغم أن السفينة (مولتان) أضخمُ

سفينة، وتتسعُ في أيامها لعشرين ألفًا وثمانمئة وسبعة وأربعين طنًّا من الحمولة إجمالاً؛ كانت في ذلك البحر الهائج كعلبة فارغة، وكانت مراوحها تَخرج من الماء، وكما قال (إيريك لونج): «فعلتُ كلَّ شيء إلّا شيئًا واحدًا، هو أنها لم تتقلب».

معظمُ الرّجال كانوا يعانون من دوار البحر، وكلُّ شيء كان يؤدّي إلى الغثيان حتى ظهرُ السفينة المخصصُ للاستجمام؛ ولا مناصَ من هذا الواقع، وقد كانت الروائح تأتي من المَدخَنتَيْن: إحداهما تُفرّغُ مادة الكربون (المونوكسيك) من محركاتها التي لا تتوقف، والأخرى تَخرج منها الروائحُ الناتجة من نظام التهوية.

المراحيض، أو ما يسمّى بالرّؤوس -وفق لغة البحر- مقزّزةٌ جدًّا، وكانت المهاجع بلا أبواب، وأحواضُ المراحيض رُمِيت بعيدًا عندما ضُرب جانب السفينة بموجة، وكانت مبلّلةً بخليطٍ من ماء البحر والقيء والبرتقال غير المهضوم والبراز. هذا البرتقالُ الذي يجب أن يكونَ وليمة لهم بعد حرمانهم منه سنواتٍ عديدة.

الطّعامُ الذي كان على السّفينة جيّد، إذ كان بوسعك أنْ تأكله، وهو قطعُ خبزٍ فرنسيّ مخبوز وطازج، وبطاطا مصرية جديدة، وفاكهة معلّبة.. وكان (هارولد درابر) الرجلُ الذكيُّ الذي يستمتع بأكْله كلّه، يَتّبع حرفيًّا نصيحة بحّار قديم: «كُلْ كلَّ شيء يُقدَّم لك قبل الرحلة وأثناءها».

وقد كان من القلائل الذين لم يَشعروا بدوار البحر، ومِثلُه (إيريك لونج) الذي لم يَشعر بذلك بفضل مداومته على المشي حول ظهر السفينة، لكنها كانت باردةً وأعمدتُها مغطاةٌ بالثلج!

وقد أجرى (إيريك) تدريبات على قوارب النجاة، لمّا هاجَ البحر، وخرجتْ مراوحُ السّفينة خارجَ الماس، وكثيرٌ يشعرون بالمرض ويترنحون على حاجز السفينة. وقد كان عنبرُ إيريك أسفلَ المطبخ وثمة رَجلان من كل طاولة في المطعم وفق التوزيع المتناسب يفهمان بالتفصيل لجلبِ الطعام من المطبخ. ويتذكر في صباحِ يوم ما، عندما كان الإفطارُ (سلمون) مدخّنًا: «وكان رجلٌ يحمل إناءً كبيرًا

(صينية) من السلمون الحارّ والمبخّر، وقد تأثّر برائحته التي أسهمتْ في زيادةِ شعوره بدوار البحر، وكانت نتيجتُه زيادةَ شيء إلى صينيّة الإفطار[1]».



القوات في حالةِ راحةٍ على ظهر السفينة (أس أس مولتان)

في المياه الهادئة بالبحر المتوسط

كانت السّفينةُ باردة، وكنّا ننام في لباسنا الرّسميّ! وكنّا نُشبه بفلم من أفلام (لوريل وهاردي) الهزليّة حينما نركب الأراجيح، لأنه فورَ ركوبنا إياها نَسقط من الجهة الأخرى على أرجوحةٍ قريبة؛ عليها وعلى مَن يَركبها.. لكنْ في آخر المطاف اعتادَ الجميعُ ركوبَها.

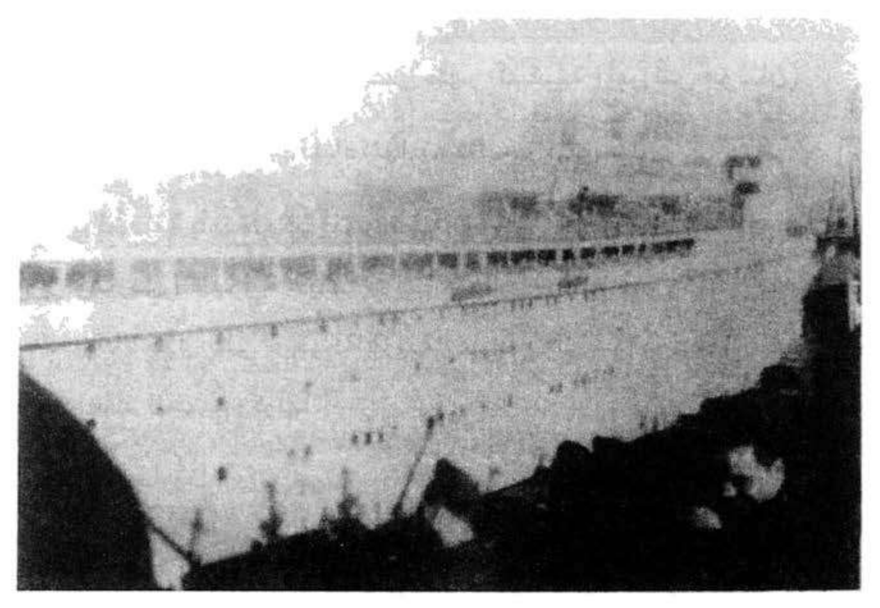
وعندما تجاوزْنا (راس فينيتير) هدأت العواصفُ قليلاً لكنّها بقيتْ باردةً وهائجة، وما يزال الجليد عالقًا على أعمدة السفينة وبنيتها الفوقية؛ وظلَّ الوضعُ كذلك إلى أن دخلْنا رأس الرجاء الصالح حيث هدأ البحرُ وذاب الجليد. وفي الصباح الباكر، حين كنا نقترب من بور سعيد، إذا بطائرة تمرّ في الجوّ، وبعد قليلٍ تجاوزْنا سفينةَ جندٍ تسمّى (إمبراطورة إسكوتلاندا)، كانت في طريقها إلى

(1) المترجم: يقصد (التّقيّؤ).

الوطن قادمةً من الشرق الأقصى. وكانَ الرجال الذين يفتقدون لحظات السعادة في تلك الظروف يضحكون وبتهكّمٍ يقولون: «اكسبْ تجربةً في الحياة! وسوف تكون آسفًا».

وقبلَ أنْ تنزل السّفينةُ (مولتان) مرساها، بدأت القواربُ ترمي حبالَها ليَعملوا خطًّا للتجارة، وكانت أنواع البضائع كلها تُقَدَّم؛ مِن الخنجر إلى حقائب اليد، فضلاً عن صِنفٍ يسمى «الطائرة الإسبانية» ولم أكن قد رأيتها من قبل.

وقد كانوا يقبلون العملة الإنجليزيّة، وهذا ما يريدونه، وكان هناك صرّافون كثيرٌ يعملون في هذه القوارب الصّغيرة، وهناك أيضًا أولادٌ صغارٌ يَطلبون منّا أن نرميَ العملة في المياه السوداء ثم يغطسون في الماء لالتقاطها، وهذه القطعُ النقدية لم تكن تصلُ إلى القاع لأنهم كانوا يَصِلون إليها قبل وصولها إليه، وكانتْ تلمعُ في الضوء الطينيّ.



الباخرة إمبراطورة إسكتلندا في طريقها إلى الوطن وهي تحمل القوات من الشرق الأقصى خلال مغادرتها بور سعيد، على ظهر الباخرة مولتان

وبعد أقلَّ من شهرٍ على إبحار مولتان ركبَ جنودٌ آخرون في (تيلبري دوكس) من أجل الخدمة في ألمانيا.

(مالكولم إستلي) كان أحدَ أربعة جنود محبَطين، لأنّه سُحب قبلَ ساعات قليلة من إبحار السفينة الحربية، ككثيرٍ من الشباب الإنجليز ذوي الثمانية عشر عامًا، الذين لم يجازوا يومًا في بريطانيا، فما بالك بما وراء البحار!

لقد كانتْ ألمانيا أفضلَ مكان في ذلك الوقت تنتقلُ إليه للخدمة جنديًا، وخلالَ أيّام -مثل الركوب في رحلة غامضة- ركبَ السفينة الحربية التالية مُبْحرًا من (تيلبيري)، ولكنه هذه المرةَ متجه نحوَ خطورةٍ ومغامرة أكثر؛ إلى فلسطين من بورسعيد.

وليس مدهشًا أنْ تستغرقَ رحلتُه في القطار من القاهرة إلى حيفا ثلاثةَ أيّام، وعندما تكون في القطار لا تستطيع توقعَ متى ستصل إلى وجهتك، وقد أدهشَه عددُ البائعين وتنوعُهم في كل محطةٍ توقّف. وقد عَلّق على ذلك قائلاً: «لقد كانوا بائعينَ ذوي مهارة، ونشّالينَ بارعين ولصوصًا أيضًا! ورغم ذلك، وبالنظر إلى الوراء الآن، يُدرِك المرء كم كانوا بؤساءَ ويثيرون الشفقة»!

بدا في بعض الأوقات أنّه لا منطقَ في تحرّكات القوّات، فمثلاً نُقل (ستان هيث) إلى مستودع إصلاح الذخيرة رقم (2) ومصنع التعبئة في وادي صرار من (فاماغوستا)- قبرص، ورغم أنها كانتْ تبعد سبعين ميلاً إلى حيفا؛ غادروا قبرص إلى صقلية ثم عادوا إلى بورسعيد، ومن ثَمّ رحلةُ القطار الطويلة إلى فلسطين!

خلالَ العام 1946م قضى (بيل مونسي) وقتَه في (كالكتا)، وفي أيار (مايو) 1947م كانَ في خيام معسكر العبور (ديولالي) في الهند، وبعد أربعة أسابيع من الانتظار حصل على حُجرةٍ في السفينة (إس إس شيتنال) في طريقه من

سنغافورة إلى المملكة المتحدة. لقد كان معروفًا أن عليه الانتظارَ شهرين ليحصل على سفينة، وهو ما أدّى إلى ظهور عبارة «ذهب دولالي». صحيحٌ أنه لم يُخْبَرْ عن وجهته الأخيرة، ولأنه جنديٌّ عاديّ لم يَبْنِ آمالَه على أنه سيعود إلى بريطانيا.

كَتَبَ (بيل): «عندما وصلْنا إلى السّويس أُخْبِرْنا أنّه -نظرًا لوباء الحمّى الصّفراء في منطقة القناة- سيُطَعَّمُ الأفرادُ جميعُهم، وسَيُخَصَّصُ لذلك سبعة أيام قبل السماح بالنزول». بينما كانت السفينة في المرسى، كان تكييف الهواء يعمل لوقتٍ قصير فقط، وهو ما جعل النّومَ تحت سطحها مستحيلاً، فذهبوا كلُّهم ليناموا على السطح المفتوح في الليل، فقد ينامون هناك. وصلتُ أخيرًا إلى معسكر العبور في ميناء السّويس، حيثُ أُخْبِرَ عددٌ منّا -بارتباك- أنّ حقائبنا لن تُفرَّغ في السفينة قبل الإبحار؛ ولذلك علينا تقديمُ تقريرٍ لمخازن إدارة الجودة عن العناصر التي فقدْناها ليُعاد إصدارُها. وبعد أيامٍ عديدة ركبْنا قطارًا إلى فلسطين ومستودع الذخيرة في وادي صرار.

النّقلُ الآخر لـ(بيل) كان في آذار 1948م، إلى مستودع العتاد (225) في الخرطوم: المحطّة الأولى للرّحلة إلى (أبو سلطان) مرورًا بصحراء سيناء، وبسبب خطأ صغير في المستندات وجد نفسَه في مستودع العتاد (525)، في أسمرة بجبال أثيوبيا، وبعد ذلك بأسبوعين أخذتْه سفينةٌ حربية إلى ميناء السودان، ومِن ثمّ برحلةٍ بالقطار طولها أربعمئة وخمسون ميلاً وصلَ إلى الخرطوم ووجهتُه المقصودةُ مستودعُ عتاد الجيش (522).

وكلُّ حركةٍ للقوّات تحتاجُ إلى توثيقٍ تفصيليٍّ كبير لتغطية أيِّ طارئ، وهذا يتضمّنُ مجموعةً مذهلةً من الأرقام.

لقد كان (بيل) يُنجز وظيفته وحده، وفي حال وجوده مع مجموعةٍ من القوّات يُفوَّض الضّابط الأقدم أو ضابط الصّف للعمل مسؤولاً عن العمليات المنوطة به، ويتولى مسؤولية جمع الوثائق، كما يتحمّل مسؤولية رفاقه المسافرين؛ انظرْ إلى حالةِ الرقيب (جون هاردويك) الضابطِ المسؤول عن مجموعةٍ من أربعة أشخاص:

هو نفسُه، والرّقيب (سي. أي فولكس)، والرّقيب (آر. إتش باراس) و(بي. تي إيه هاريس)، وثلاثُمئة وثمانيةٌ وسبعونَ شخصًا عائدونَ إلى ديارهم بسبب التسريح من الجيش.

ونُسَخٌ من أمر الحركة أُرسِلَتْ إلى)ضابط العمليات الرئيسة والقيادة العامة)، وكان على الشاويش (هاردويك) أنْ يأخذ ثلاثَ نسخ إلى معسكر النقل (163) هو يحتوي على مغلَّف مغلق فيه وثائقُ للأفراد. ولكنْ، في حال مجموعة من القوات، فإن الشخصَ الأعلى رتبةً يتسلم مركزَ ضابطِ موجّه القوات؛ خذْ مثلاً حالة الشاويش (جون هاردويك) (DCO) مع مجموعة من أربعة: هو والشاويش (سي أي فولكس) والشاويشان (آر أتش باراس) و(أي كي هاريس) والثلاثمئة والثمانية والسبعون، جميعهم، رجعوا إلى الوطن بسبب تسريحهم من الخدمة.

وأخيرًا، كان على جون التّثبت من أنّ كلّ رجلٍ مأذونٌ له بنزول البحر للسّفر إلى بريطانيا وأنه تلقّى التطعيم ضدّ الحصبة السنتيْن الماضيتين، وهو ما يُسَجّلُ في سجل العسكر. ولمْ يَكنْ مستغربًا أنْ يَتضمّنَ الأمرُ وجوبَ بقاء الذّخيرة والسّلاح مع الشّخص كلَّ الوقت، وعدمَ جواز تركهما بأيّ ظرف. الشاويش (هاردويك) سوف يُحذّر مجموعته من الوقوع في يدِ العدو أو معداته؛ بُغْيَةَ تجنّب استخدام الأسلحة التي تُؤْخَذُ تذكارًا وتحتَ عنوان (مؤن)، وهو ما يعني -في هذه الحالة- تسليمَ الدّخان والكباريت مجانًا أسبوعيًّا حتّى الخامس والعشرين من آذار، والسّماحَ بشراء الدخان والصابون وسائر مشتريات معهد القوى الجوية والجيش والأسطول البحري(NAAFI) بسعرٍ منخفض حتى السابع والعشرين من آذار.

أمرُ الحركة الموقّع من الرّائد (أر. أس. تي. نيومان) الذي كان يحكم مخزنَ العتاد (سي) أو (614)، يُفوِّض (جون) ورفاقَه بالتحرك من مخزن العتاد (614) إلى معسكر النقليات في عكّا وحيفا ومن ثمّ إلى بريطانيا للدرجة (A) في

مجموعة العمر والخدمة (69) التي كانت تُعرَفُ بـ(مجموعة التسريح من الجيش).

لقد ارتبطوا برجالٍ من وحدات أخرى في آخر الصّفّ كانوا من معسكر (153)، وقد شكلوا قافلةً سارت في الطريق الأعلى فوق جبال الكرمل ليتجنبوا القتال العنيف بين اليهود والعرب في حيفا، وقد مرُّوا من المنطقة اليهودية، ولكنهم عندما دخلوا المنطقة العربية أجبرَهم العربُ المسلّحون على الوقوف. وقد حاول ضابطُ صفٍّ من الجماعات الأخرى أن يأخذ العرب ولكن (جون) والرجال الذين كانوا على وشْك التسريح من الجيش أقنعوه ألّا يفعل لاجتناب الخلاف.

قطاراتُ القوات المسلحة في الشّرق الأوسط -مثل السّفن- محتشدةٌ نهارًا وليلاً، على الدوام؛ لدرجة أنك لا تكادُ تجد فرصة للنوم، وقد كان البعضُ يستطيعه على كرسيه، ولكن النومَ على كرسيٍّ من الألواح الخشبية لا يُعْتَبَرُ إنجازًا كبيرًا، وكان آخرونَ ينامون على حقائبِ العدّة على الأرض، وآخرون ينامون على رفوفها، ولم يكنْ هناك زجاجٌ على النوافذ، وهذه نعمةٌ في المناخات الحارة، ولأسباب أمنية أو لسوء الطقس هناك مِصْراعٌ للنوافذ، وقد كانت تُغْلَقُ بإحكام احتراسًا من السارقين المحليين المنتشرين في الصحراء التي تبدو غيرَ مأهولةٍ! كانوا يسافرون على السطح ويتمدّدون فوقه ليَسترقوا نظرةً إلى الداخل منتظرين اللحظةَ التي لا حراسةَ فيها، وعندما ينوون السرقة -وبطريقةٍ غريبة ومميزة!- يدخلون إلى عربة القطار ويأخذون أيَّ شيء تطاله أيديهم.

إذا لمْ تَكنْ في آخِر إحدى العربات، يستحيل وصولك إلى المرحاض. وفي السنوات المبكرة كان الضوءُ في العربات يُوضَع في كرات، ولكنها كانتْ منذ زمنٍ بعيدٍ تُسْتَخْدَمُ أماكنَ للتّبوُّل.

الطّقسُ الحارُّ وشُرْبُ قليلٍ من الماء، كانا لا يُحْوجاننا للتبول، أما الذين يحتاجون لذلك فكانوا يفعلونها من الشبّاك في أثناءِ إبطاء القطار سيْرَه تمهيدًا للتوقف أو في أثناء وقوفه مراعاةً لوجود مسافرين آخرين.

أحاطَ بائعونَ من مُختلف الأوصاف وجميع الأعمار محطّةَ القطارات في مصر، يروجون بضائعَهم بالصراخ: كعك طازج.. عصير ليمون مثلّج.. كوكا كولا.. عصير البطّيخ... وهذه المنتوجاتُ المُباعَةُ (المعروضةُ للبيع) لمْ تكنْ جديدةً كليًّا، وكانوا يتجولون ويقولون بصوتٍ خفيٍّ سرّيّ: هل تريد كتابًا وسخًا يا (جوني) أو صورًا بذيئة؟!..

ومِن هذه الشّخصيّات المختلفة هناك بعضُ اللّصوص المحترفين؛ فقد فَقَدَ كثيرٌ نظّاراتِهم وهي على أنوفهم!! وفقدَ عديدٌ ممّن كانوا يُخرجونَ أيديَهم من نوافذ القطار -وهو متوقّف- ساعاتِهم!!

كان اللّصوصُ يقفزونَ ويَضعونَ أصابعَهم على فخّ السّاعة ويلقّونها هناك، فإذا صرخَ المسروقُ اختفى السارقُ والساعةُ بينَ الحشود! كان ذلك يحدث بسرعة وبراعة؛ وهو ما يُدلل على أن هؤلاء السارقين ذوو خبرة طويلة اكتسبوها مما مارسوه على عدد كبير من الضحايا.

كانَتْ هناكَ خدمةُ السّاعي المنتظمةُ بينَ المستودع الرئيس في تلّ الكبير ومنشآت عتاد الجيش الملكي في فلسطين، والساعون -وهم في الغالب برتبة شاويش- كانوا يسافرون في قطارات مدنية، مسلّحين بمسدّسات محمولة بأحزمة تُثبَّت على الورِك. (آرثر فيليبس) لم يكن ساعيًا منتظمًا، ولكنه اختير من قِبَل (أر.أس.أم وايتنيل) من مستودع العتاد الأساسي لمهمة خاصة إلى (كولنيل جور)؛ وقد لخّص العقيد لآرثر تلك المهمة التي كانتْ له مفاجأة؛ فقد أُعطي صندوقًا فيه بصلةٌ كبيرةٌ لكي يُسلّمها إلى ضابط في تل الكبير لتسوية رهانٍ كانا قد تراهنا عليه من قبل! لقد أُرسل له من بريطانيا لتسوية هذا الرهان مع رفيق له في مصر بصلةً ستكون أكبرَ من أي بصلة رآها بحياته في مصر! لقد ذهب

آرثر في قطارٍ مليء بالعرب الذين كانوا ينظرون له بعين الريبة طيلةَ الرحلة، ولكنه حينما وصل وجد أن الضابط الذي ذهب من أجله غادر إلى بريطانيا، وبضجرٍ عاد إلى حيفا مع البصلة البائسة. هذه المغامرة المبالغُ فيها لا يُمكنُ أنْ يَخْلُقَها إلّا ضابطٌ كبيرٌ لا يهتم للمخاطرات التي قد تتعرض لها القوّاتُ في كلّ مرّة تقومُ فيها بمثلِ هذه الرّحلات الخطيرة.

ولِوصف خطورة هذه الرّحلة، أرسل (أندرو هاوي) هذه القصّة، وقد كانَ ساعيَ بريدٍ يرحل باستمرار على نحو رحلة آرثر، وهو يتذكر لحظةً في آخر العامْ 1947م كانت على وشك أن تتحول إلى رحلة من الجحيم..! تقريبًا ساعةً خارجَ (أبو كابير)، وفي أثناء العودة إلى حيفا، غفا أحد الحرس في الطريق فسقطتْ بندقيته على سكة الحديد، فأَوقف (أندرو) القطار وطلب دوريةً لاسترجاعها.. وعندما بزغ الفجر شعر بالتعب فقرر أن يغفو قليلاً، وقال: «لقد استخدمتُ مِخْفظتي مخَدّةً لأنني أدرك أنْ لا أحدَ يستطيع أخذَ مسدّسي بدون إيقاظي. حِسّيَ الأمنيُّ الخطأُ تأتى من أن المسافر الوحيد في الحُجرة كان شاويشًا من مركز الحجز العسكريّ.

تخيّلوا رُعْبي حينما استيقظْتُ ومسدَّسي مفقود..! الشّاويشُ قال أنّه لا يَعلمْ عنه شيئًا، وكلُّ بَحثي في القطار لم يَنتج عنه أي شيء.. وعندما عدتُ إلى الحجرة أعطاني الشاويش المسدّسَ وقال لي: «لِتَجعل ذلك درسًا لك». ولم أَحتجْ إلى أن أُخبِر عن فقدان شيءٍ مرةً ثانية.

وبينما كان القطارُ يقترب من محطّة اللّدّ، وقعَ انفجارٌ قويّ، وقُلبت العربة على جانبها..! سحبْتُ نفسي وذهبت إلى رأس القاطرة فنظرتُ في مقصورة السائق فوجدتُه، ورأيتُ قطعةً معدنية في رِجله فمددتُ رجلي إلى الأسفل لأجدها في رجله؛ لقد كان بترًا كاملاً!».

وفي فرصة نادرة، تسنّى لأندرو أنْ يقابل والدَه في أواخر كانون الأول 1947م، ولأنه كانَ ساعيًا خبيرًا وذا علاقات متعددة؛ استطاع أن يكون في بورسعيد قبل عيد الميلاد بأيام، وقد جاءتْه برقية وصلت لمستودع العتاد المركزي تُخبره أن والده الذي كان متجهًا إلى الوطن من الهند سوف يتوقف في بورسعيد.

وفي هذه الأثناء كان الرائد (ديفيدسون) في زيارة لمستودع (614)، وكان أندرو يَعرفه جيّدًا بحيث يَستطيع أن يَطلب منه أمرَ الحركة الضروريَّ فيستجيب له ويوقع عليه.

لكنهما اتّفقا على أنْ يكون الهدفُ من ذهابه إلى بورسعيد أنْ يَفحص عربة، وقد سافرا معًا إلى بورسعيد وفيها كان لأندرو صديقُ مَدرسةٍ هو العريف (مكدونيل) الذي يَعمل في الإشارة الملكية، وكان يَعرف بورسعيد جيدًا، فأخذه إلى مبنى شركة السفن البخارية، وقد كان موعد السفينة في اليوم الثاني منتصفَ الليل، أيْ بعدَ ساعة من موعد زامور الخطر.. أخذَ مكدونيلُ أندرو إلى خبّازٍ لطيف سمح لهما بالبقاء تحت الغطاء إلى أن رسَتْ سفينة الجند، وقد اجتمع ضباط الذخيرة والدروع قبل يوم من موافقتهم على أخذهما على ظَهر السفينة. وكانت الكوليرا منتشرةً في مصرَ منذ شهر أيلول، ومات الآلافُ بسببها! ولذلك اتُّخذتْ إجراءاتٌ احتياطية لجعْل السفن الراسية في موانئ مصرَ بعيدةً عن هذا الوباء. وكما أنهما كانا قادريْن على إثبات هويتهما بأنهما مِن (أي بي 64)؛ كانا قادريْن أيضًا على إثبات أنهما تطعَّما ضدّ الكوليرا!

تلك الليلةُ أُمْضيتْ بالحديث مع والد أندرو في حُجرته.

طريقُ السّكّة الحديديّة لمْ تَكنْ مُخصَّصةً للتّجارة فقط. وفي عطلة البنوك في شهر آب عام 1947م استُخدمتْ لأخذ مجموعة من الرياضيين المتحمّسين من مستودع العتاد الرئيسي (614) إلى رفح من أجل يوم الرياضة الخاص بمستودع العتاد (615). (جون وايت) كان مشاركًا في ذلك الحدث، وذكر في مذكراته رحلةَ السبع ساعات التي أمضَوْها للوصول إلى هناك. تمّت النشاطاتُ الرياضية

في اليوم الثاني بفوْز مستودع (614) في النشاطات الافتتاحية كلّها. وللعودة إلى حيْفا طُلب منهم التجمّعُ الساعة الثالثة في اليوم الثاني للتوقف من أجل الإفطار في غزة. ورغم أنه كان يومًا طويلاً، عليهم أن يعودوا للعمل في اليوم التالي.

سكةُ الحديد الشّماليّة الجنوبيّة كانتْ أساسيّة، وفي جزء منها كانتْ مقصوراتُ النّوم ممدّدةً على رملٍ مكشوف وبدون ثقلِ الموازنة، وكان القطار -بنحوٍ مكرورٍ- يَخرج من سكته بوساطة قنابلَ أصبعية الشكل، ولكنها مؤثّرة.

كانَ هناكَ طريقٌ فرعيٌّ من اللّدّ مُرورًا بصرفند، فيه كثيرٌ من التّحويلاتِ والمنعطفاتِ التي تُوَصِلُكَ إلى القدس.

ومِن حيْفا كان هناكَ سكّةُ حديد تَربطُ الحجازَ بخطّ دمشق، وهو الخطُّ الذي كان (ت. ي. لورنس) والعربُ يهاجمونه كثيرًا في الحرب العالميّة الأولى.

وفي تقاطُع حيْفا، كانتْ سكّتا الحديد الأساسيّة والفرعيّة تلتقيان. وقد عُيِّنَ (تشارلي إيلز) و(أيان نابير) لكي يُساعدا ضابطَ النّقل الملكيّ.

وبعدَ استسلام الفرنسيّ الفيشيّ في سوريا عام 1941م أُخذت الذخائرُ الفرنسيّةُ التي تمّت السّيطرةُ عليها إلى حيْفا بوساطة سكّة من دمشقَ إلى منطقة القناة في مصر.

وقد كان (تشارلي) و(أيان) مسؤولَيْن عن مجموعة عربيّة وأخرى يهوديّة، وكانتْ وظيفتُهم نقلَ القنابل والقذائف من عربات سكّة الحديد الفرعيّة إلى عربات سكّة الحديد الرّئيسة. وفي آخر المطاف، لمّا تمّ نقلُ الذخائر كلّها من آخر قطار وتمّ إرسالُ المجموعتين في رحلتهم الطويلة إلى مصر، قرّرَا أنْ يَأخذا إجازةً غيرَ رسميّة ليقوما برحلة إلى دمشق. ومن العربات المفتوحة حيثُ جلَسا، استمتعا بالمشهدِ غيرِ المتقطّع لِريفِ سهْلِ مرْج ابنِ عامر وفوق نهر الأردنّ على جسر المجامع.

وكتبَ تشارلي: «مررْنا فوقَ الجبال، وأحيانًا كانتْ أيْدينا ويَدَا السّائق تتلامسُ عندما نمرُّ ببعض الانحناءات». وفي دمشقَ أقاما في ملحق لأصدقائهما في مستودع الذخيرة المتقدّم السادس، ومِن ثم رجعَا مجّانًا إلى حيفا. كانت متعةُ الركوب في إجازةٍ غيرِ رسمية كوقتٍ مسروق في وسط الحرب، إلى درجةِ أنْ لم يَفتقدْهما أحد!

وإذا كانَ الأمرُ حياةً أو موْتًا، فإنّ الوصول -نظريًّا- إلى بريطانيا ممكنٌ في الطّائرة بل أسرع. ومنَ الواضح أن كبارَ ضباط الحكومة البريطانية يستطيعون الدخولَ والخروجَ من فلسطين وإليها بسرعة متى شاؤوا. ولكنْ ماذا عن الرتب الأخرى؟! بالنسبة للعريف (جيس برين) فقدْ تمكنَ من ذلك:

بدأتْ قصّتُه قبلَ ساعة الاستيقاظ[1] في اليوم الثاني من تشرين الثاني 1947، عندما أيقظه من النوم شاويشُ ضبْط النظام والقائد (جينكينز) المعاونُ، ليُخبراه أن والدَه على أبوابِ الموت وعليه أن يطير إلى الوطن! كان عليه أنْ: يُجهِّز حقيبته وأشياءه، ويُطعَّم مطعومَ الكوليرا، ويحصلَ على تذكرة السفر لتأخذَه إلى (فايد) في مصر.

لقدْ أمضى اثني عشر يومًا من المَلل في فايد، إلى أن جاء أمرُ نقله! وقضى وقتَه بينَ سريره ومعهد القوة الجوية والجيش والمطبخ، إلّا عندما يُطلب منه تسليمُ الأغطية لكتيبة المشاة، وبعد مرورِ الوقتِ أُخِذَ (جيس) مع الآخرين إلى أرضية المطار.

كتبَ جيس: «أُخِذَتْ حقائبُ مقتنياتنا إلى حُجْرة الحقائب ونحن نصعد إلى الطائرة، وقد ذهبَ الضباط إلى الأماكن الخلفية من الطائرة للجلوس، أما نحنُ والرتب الأخرى فإلى الأماكن الأمامية.

انسحبتُ من مكاني وجلستُ على مَقعَد عندَ النافذة، ثم جاء ضابطٌ من القوة الجوية التخطيطية(RAF) من خلف الستارة الخضراء التي تَفصلنا عن

(1) في الجيشِ وقتٌ محدَّدٌ للاستيقاظ صباحًا في المعسكراتِ كلِّها.

الصندوق الأسود وطَلب منا أن نَربط الأحزمة، وفجأةً ارْتَجّت الطائرة وملأ هديرٌ عالٍ القمرة! ولمدةِ عشر دقائق وقفت الطائرة مهتزةً بلا سيطرة! ثم ارتفع صوت المحرك.. ثَبَّتُّ نفسي في مقعدي وكانت الطائرة تتحرك.. شاهدتُ سرعة الأرض تزيدُ وتزيد حتى أصبحَ لونُها أزرقَ بنّيًّا خفيفًا ومتساويًا.. لا ناسَ ولا جمالَ ولا منازلَ ولا سماء، رمالٌ فقط! أميالٌ وأميالٌ من الرمال...ولما ظهرتْ (مالطا) هبطْنا بعد أن دُرنا حول الجزيرة في أثناء الهبوط. وفي مبنى الوصول أُعطينا أسرّةً لقضاء الليلة، وفي غرفة العَشاء وجبةٌ ساخنةٌ تنتظرُنا، ويا لَدَهشتي! وجدْتُ أن كل مَن على الطائرة يجلسون معًا ضبّاطًا وضبّاطَ صفّ وجنودًا؛ فعلى طاولتنا ضابط صفّ قدّمَ اللحمة، وخدمَنا قائد بتقديم الخَضْراوات، ويُرحّب عقيدٌ بالضيوف ويُقدّم البطاطا. وخلالَ الوجبة، أَخبرَنا العقيدُ أن الرحلة من الإقلاع إلى الهبوط تأخذ سبع ساعات، وبينما كنا في قاعةِ العبور أُخبِرنا بإمكانية التحرك في أي وقت، وقدْ نُحْجَزُ في معسكر».

وبعدَ إفطار جماعي نقلتْنا الحافلةُ إلى الطائرة. وجلسَ (جيس) على مقعد الشباك ذاته ولكنه نام. ولا بدّ أنهم مرّوا بالطيران فوقَ صقليّة و(ساردينيا) و(كورسيكا)، وحينما استيقظ (جيس) كانوا يَمرون فوق ساحل فرنسا الجنوبي. وبينما كنا نطير فوق فرنسا دُهش برؤية أميال من الطرق بلا سيارات! ومن القناة، وفي بريطانيا، لاحظوا الفرْق فورًا فلا طريق هناك بدون سيارات. وقد هبطوا في (لاينام) بعد سبع ساعات من الطيران. وقد كان سفر (جيس) إلى الوطن أسرعَ منه بالسفن أو بـ(ميدلوك). لمْ يَكنْ والدُه على أبوابِ الموتِ كما كان يظنّ! وقدْ عاشَ سنينَ عديدة بعد ذلك.

4. الصِّدَام الأوّل بعدَ الحرب

عندما وَصَلت الأخبارُ باستسلام ألمانيا في الثّامن من أيّار، عَرَفَ المجنَّدونَ الذين كانوا يخدمون في فلسطين أنهم قريبًا سيكونون في الوطن. وعَدَا البعد عن الوطن، فإن خدمة الجنود في صفوف الخدمات الخلفية كانت مريحةً كثيرًا.

كانوا يَعلمونَ أنّهم استمتعوا بحرب مريحة، وهم في نعمة لأنّهم لم يكونوا على وَعْي بالاضطرابات التي توشك أن تثور خلال أشهُر من مغادرتهم. وكان الذين سَيحلون مكانهم يتحركون من أوروبا إلى الشرق الأوسط؛ لقد جُندوا في السنوات التالية للحرب، وقد خَدموا سَنتَيْن تقريبًا في الحرب.

المُلازمُ (جاك هاريس) أُلْحق بفرقة المُشاة (158) في قسم المخازن، وقد الْتَحق بالجيش الإقليمي عام 1939م، وكان مع فرقة المشاة عندما حَطّت في (النورماندي) عام 1944م حتى وصلتْ (هامبورج)، لكنْ بانهيار ألمانيا نُقل إلى فرقة المشاة الثالثة التي انتقلتْ إلى فلسطين في أيلول عام 1945م. وقد شاركتْ فرقته في حماية فلسطين مع فرقة المشاة السادسة المحمولة جوًّا. كتب (جاك): «كانت الحدود الشمالية ملتهبة فكانت الدورياتُ المكثفة. وكان كثير من اليهود يتسللون بعد رحلة عشوائية رهيبة من أوروبا حتى بولندا، وقواتُنا لا يُمكنها إلّا أن تعطف عليهم، فقد رأينا (بيلسين) في ألمانيا قبل مجيئنا إلى هنا. لقد كانوا يائسين من الذهاب إلى فلسطين، ولذلك غُضَّ الطرْف عن دخول كثير منهم وتسللوا)[1](. ورغم ذلك، وعندما كنا في الأجزاء الرئيسة من فلسطين؛ واجهْنا كثيرًا من العداء! حتى إنهم بَدَوْا يكرهوننا أكثر من الألمان. وقد كان مريحًا جدًّا أن نحصل على استراحة بمناسبة ما قريبًا من البحيرات المرّة(bitter lake) في مصر، التي كانَ يُنظر إليها مركزًا للمغادرة. وتُعَدُّ الأشهرُ التّسعةُ التي قضيْتُها في فلسطينَ أكثرَ الأشهر سوءًا في خدمتي! وليس عدلاً ألّا نعطى شهاداتِ تميّزٍ عن هذه الحملة».

(1) المترجم: يُوضح الكاتبُ بذكاء أن التعاطف مع اليهود في تلك الفترة كان لظروفهم الصعبة في أوروبا، وكان على حساب فلسطين؛ فهم يغضون الطرف عن تسللهم إلى وطن غير بريطانيا؛ أي ليس وطنَهم، لإراحة ضمائرهم مما حدث لهم في أوروبا؛ بالسماح لهم أنْ يَتسللوا.

بينما كانَ (جاك) ووحدتُه يَصلونَ إلى سلاح ذخيرة الجيش الملكيّ وسلاح مهندسي الكهربائيات والآليات الملكي (REME)؛ كانت القواتُ تغادر إلى الوطن مجموعاتٍ صغيرةً يَصلُ عددُها إلى ثلاثين في كل مرة. وكان الجندي يعطى في أوقات الحرب رقمًا سريًّا إذا كانت خدمته فيما وراء البحار، وهو (شيفرة) تُقدَّم لاستبدال فترة محددة إذا لم تَقبل طلبات الحرب العقودَ الثابتة. (جون فارو) و(فرانك بيل) كانا بفلسطينَ في مستودع الذّخيرة الرّئيس (2) أربع سنوات؛ كانا ذاهبيْن إلى الوطن على متن السفينة (بايتون) مع ثلاثين رجلاً أعمارُهم -ومجموعات الخدمة (جماعة التسريح من الجيش)- بينَ الخامسة والعشرين والثامنة والثلاثين، وقد غادروا حيفا بالقطار إلى معسكر النقل (156) وبورسعيد في السابع من تشرين الثاني 1945م، وكلاهما كان عائدًا إلى الوطن وفي ذاكرته ذكرياتٌ جميلة عن فلسطين: (فرانك) عاد إلى الوطن مع ذكرى جميلة من القَدَر الذي أنقذه، حيث لم يُقْبض عليه في طبرق، وقد تطوّع في بداية الحرب ومجموعة التسريح (رقم 26) التي كان فيها، وكان صديقُه (جون فارو) في المجموعة (37)، لكنّهما كليهما كانا على متن السفينة (بايتون)، وكان (هوارد فارو) -وهو من طلائع مجنّدي الحرب عام 1940م- من أوائل مَن سيعودون إلى الوطن، وقد غادر قبل نهاية الحرب في أوروبا، وركبَ (ستيرلينج كاسل) في ميناء بورسعيد يوم عيد الميلاد عام 1944م. حدثَ هذا منذُ ستين سنة، لكنْ ثمة شيئان ما يزالان عالقيْن بالذاكرة: أولهما أن الإفطار يوم عيد الميلاد كان (سلمون)، وثانيهما أنهم مروا خلال عَشاء رأس السنة من ممر جبل طارق وقدْ أضاءت الكشافات الصخورَ وصفاراتُ إنذار السفن تطلق أصواتًا للترحيب بالسنة الجديدة السنةِ التي كان مؤكَّدًا أنها ستمر بسلام.. وعندما بدأوا يبحرون تجاه الساحل البريطاني كانت تلالُ ثلج (ويلز) أول ما شاهدوه من بريطانيا، ورستْ (ستيرلينج كاسل) في (ليفربول) على صوت فرقة عسكرية.

وعندما لاحَ أنّ السّلامَ على وشك التحقق، امتلأتْ شوارعُ أوروبا بالنّاس الذين لا مَساكن لهم، وأصبحت جنات الأمان في خطرِ أن يملأها المهاجرون.

ومستوًى عالٍ من الحديث عن مستقبل فلسطين كانَ عامَ 1945م؛ والدبلوماسيون من الجنسيات كلها أضحَوْا يعبّرون عن وجهات نظرهم في هذا الشأن، وكانت الأكثريّةُ من البريطانيّينَ والأمريكان.. كانت الوكالة اليهودية الصاخبة تضع مقترحاتها بقوة غيرَ مهتمة بظروف فلسطين حينئذ! ورغم أن مشكلة أوروبا لم يَخلقها العرب فإن داعمي الصهيونية في أميركا وبريطانيا كانوا مهووسين بإسكان اليهود في فلسطين[1]!

لمْ يكنْ للنّاس الذين أوشكوا على خسران وطنهم سياسيون على مستوًى عالٍ يدافعون عن قضيتهم. وبالمقاييس كلها، كانت حالُ العرب الفلسطينيين أقوى، وحاجتهم لأن يسمعَهم الآخرونَ أعظم. مَلكُ السعودية ابنُ سعود أظهر وجهةَ نظره، لكنها لم تُعط إلّا قليلَ انتباه؛ فالمملكة العربية السعودية لم تكن في ذلك الزمن بتلك القوة التي هي عليها الآن، واستهلاكُ النفط في العالم وقتئذ لم يكن كهذه الأيام. وفي الواقع، فإن بعض العرب غادروا السعودية ليعملوا بالجيش البريطاني في فلسطين، وبعضُهم عُين في مستودع العتاد الأساسي (614)؛ فناصرٌ مثلاً -وهو عربي سعودي- عمل بمطبخِ معسكر (153)، وكان يدّخر فلوسَه ليتزوج حينما يعود إلى السعودية.

وليس خطأ العرب أنْ لا متحدّثَ باسمهم، فبريطانيا لم تحاول قَطُّ أن تُجهّزَ الفلسطينيين للاستقلال رغم أن اليهود كانوا يعملون (على المكشوف) ويطورون إدارة حكْم ذاتي! وكان باستطاعة بريطانيا مساعدةُ الفلسطينيين لتحقيق ذلك!. اختار الفلسطينيون المفتي الحاجَّ (أمين الحسيني) قائدًا متحدثًا باسمهم، وقد نُفي وما يزال لاشتراكه بالثورة العربية، وكان (هيربرت صموئيل) قد عيّنه مفتيًا للقدس عام 1921م لكنه أصبح عدوًّا للبريطانيين لسماحهم لكثير من اليهود بدخول الوطن. ولكنّ، كان هناك رجلٌ آخرُ مثقّفٌ اسمه (أمين العَلَمِيّ) -وقد

---

(1) المترجم: هنا يُظهر الكاتب وجهة نظره من معرفة دقيقة بالأحداث، لأنه شاهد عيان بأنهم لم يكونوا يملكون فلسطين، وأنهم فرضوا وجهة نظرهم السياسية عليها ظلمًا وعدوانًا وغطرسة، والذين يناقشون موضوع فلسطين العربية ليسوا فلسطينيين ولا عربًا!

درس في (كيمبردج)- تربطه بالحسيني علاقة قربى عن طريق الزواج، فقد كانت شقيقته زوجًا للحسيني. وكان لابن سعود مصلحةٌ في الخروج بوضع مُرْضٍ في فلسطين، وكان بينه وبين الرئيس (روزفلت) مراسلاتٌ؛ كان يَنظر إليه على أنه الأمل الأكبر لإيجاد حَلٍّ مناسب. وكان (روزفلت) كسلفِه (وودرو ويلسون) يفضّل وجود وطن حقيقي لليهود. وفي العام 1945م شاور العلمي الملكَ ابن سعود، وانتهيا إلى أن يبقى عدد اليهود في مستواه عام 1945م؛ المستوى الذي رآه الفلسطينيون عاليًا جدًّا: (400000)، وقد كانَ (55000) في العام 1919م؛ ورغم أن اليهود لم يَكونوا يملكون إلّا خمسةً بالمئة من الأرض؛ حققوا تقدّمًا في المنطقة التي كانوا يعيشون ويعملون فيها. أَخبر (السيناتور كلود بيبر) العلميَّ أن اليهود جلبوا معهم ازدهارًا كبيرًا لفلسطين؛ وكانت وجهةُ النظر هذه تَسمعها القواتُ كثيرًا في السنوات الثلاثة التالية منذ ذلك الحين، وقد كانت وجهةَ النظر التي نوقشت وتبناها البعض إلى أن حدث ما حدث في إسرائيل بعد ذلك، وهو ما أوقفهم عن الحديث في هذا الشأن.

وتضمَّن ردُّ العلمي على السيناتور المنطقَ العربي البسيط: «يستطيع (السيناتور بيبر) الأغنى من العلمي أن يزخرف بيتَ العلمي ويكسوَ أطفالَه أجمل الملابس. وبالتأكيد، يُدرك السيناتور أن هذا لن يكون سببًا مشروعًا لقَبولِ العلميِّ التخليَ عن بيته وأطفاله للسيناتور المميّز».

ولمْ ينشَط الإرهابيون نشاطًا كاملاً في سنوات الحرب: كان هناك حوادثُ عنْف، وخَسر الصهاينة في أحدها داعمًا متحمسًا قويًّا هو (نيلسون تشرتشل). وفي السادس من تشرين الثاني 1944م اغتيل (اللورد والتر موين) وزيرُ المستعمرات السابق أمامَ منزله في القاهرة، اغتاله اثنان من جماعة (ليحي/ Lehi): (الياهو هاكين) و(الياهو بيت تسوري)، وكان اللورد من مؤيدي التقسيم وصديقًا شخصيًّا لتشرتشل.

وفي خطاب وُجّه إلى مجلس العُموم في السّابع من تشرين الثاني، قال تشرتشل: «إذا كانَ أيّ حُلْم للصهيونية سينتهي بدخان مسدسات قاتل، وإذا كان عملُنا لمستقبل الصهيونية سوف يُنتج رجالَ عصابات كالنازي الألماني؛ فسَيغيّر كثير مثلي موقفَهم الذي حافظوا عليه دائمًا ومنذ زمن بعيد. إذا كان هناك أيّ أملٍ أو سلام لمستقبلِ الصهيونية، فلن يكون إلّا بإيقاف العدوان. وهؤلاء -المسؤولين عنها- يجب أن يُدمِّروا جذورًا وفروعًا».

ولكنّ الأعمالَ الشّرّيرةَ لمْ تَتوقّف. وبينَما أوشكت الحرب في أوروبّا أن تنتهي، غَيّر الصهاينة حَمْلةَ منشوراتهم ضد البريطانيين إلى عنْف؛ ففي أيار العام 1945م فجّروا خطّ أنابيب ومحطات شرطة وأعمدةَ برقيات، وفي تموز فجّروا جسرًا.

وقد استُبدل (اللورد موين) مؤيّد التقسيم بـ(إدوارد جريج) الذي كان مع (اللورد جورت) المفوَّض السامي، وقد قرّرا أن التقسيم غيرُ قابل للتطبيق. وبشكْلٍ خاص كان نصْحُ (جريج) (أنطوني إدين) بأن «التقسيم -على الأرجح- سيؤدي إلى ولادةِ دولة يهودية نازية جدًّا، وستكون غير راضية فتصير طبيعتُها عدوانية».

وفي الرابع عشر من حزيران 1944م ظهر تقريرٌ في صحيفة (فلسطين بوست Palestine Post) عن عصابة (شتيرن)، بأن (ديفيد ميري) الذي كان حليفًا لـ(بيغين) حُكم باثنتي عشرة سنةً لحمْله سلاحًا، وقد مَرّرت الحكْمَ محكمةُ القدس العسكرية، وقرأ (ميري) خطبةً سياسية طويلة كانَ قد كتبها في الحبس المؤقت.

استغرقتْ معظمَ الجلسة الصّباحيّة، وانتهتْ بعبارة: «نحنُ المقاتِلونَ من أجْل حرّية إسرائيل، أعضاءُ الحركة اليهودية تحت الأرض، نقف وجهًا لوجه ضدكم أعداءً. فلْنكنْ أعداءً على المكشوف، متحاربين. لا تعاملونا على أننا مجرمون، بل سجناء حرب».

وقال (الميجور جي. واو. أندرسون) الذي كانَ رئيسَ المحكمة العسكريّة: «أفكارُكَ تَفتح الطريق لتُدمرَ نفسك فقط»، وفي خاتمة كلامه قال: «لقد أظهرتَ نفسَك خبيرًا بالقنابل والأسلحة النارية. كان بوسعك استخدام هذه المعرفة بشرفٍ وجهد جيد كما فعل المقاتلون الصادقون من أبناء إسرائيل الذين كانوا مع التحالف ضد النازية، ونحن نَشعر بفخرٍ في أن نُسمّيهم إخوةً في السلاح».3*

ليس لـ(ميري) صورةٌ في المقال، ولكنّ خطابَه السّياسيّ فيه السّماتُ المميّزةُ لخطب (مناحيم بيغن)، وصورةُ ميري على ملصقات الشرطة تشبهه، ولكن الحادثة لم تُذكَر في «الثورة» (The Revolt).

وفي العام 1945م أَرسل تشرتشل رسالةَ جوابٍ إلى (حاييم وايزمان) بناءً على طلبه، يقول فيها أنه سحب دعمه بسبب اغتيال صديقه (لورد موين).

وفي تمّوز، استفسرَ تشرتشل المخذول في ملاحظته الوزارية الأخيرة لرؤساء الأركان: «لماذا على بريطانيا مسؤوليةُ كلّ ظرفٍ صعب، في حين تجلسُ أميركا في الخلف وتنتقد؟!»

إنّ المقياسَ الصّادقَ للنّدم والقلق الذي أظهرتْه القيادةُ اليهوديّةُ عامَ 1944م بعد اغتيال (لورد موين) ظهرَ واضحًا في السادس والعشرين من حزيران 1975م عندما نُقل رفاتُ القاتليْن (الياهو حكيم) و(الياهو بيت تسوري) من قبرَيْهما في القاهرة إلى القدس ودُفنا بتشريفٍ عسكري كامل على جبل (هرتزل).

تَحالَف (لهي) و(لورجان)، حيثُ نصبَ الإرجون كمينًا في الثالث عشر من تموز (يوليو) لعربة تَحمل متفجرات، فقُتل مُرافق الشرطة الفلسطينية، وفي الخامس والعشرين يوم انتخابات بريطانيا قامَ أرجون بتفجيرِ جسر على سكة حديد حيفا- القنطرة؛ في تموز شهرِ التغيير، فقد حَلّت الحكومةُ العمّالية محلَّ ائتلاف الحرب، وصار (كليمنت أتلي) رئيسَ الوزراء الجديد.

رحّبَت الوكالةُ اليهوديّةُ بحكومة العمّال في بريطانيا العظمى، وإنَّ حزبَ العمل البرلمانيَّ هو الذي رفعَ توقعاته في الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) 1944م، وقد قرأ اليهودُ في صحيفة (فلسطين بوست) الصحيفةِ الصهيونية التي كانت القوات تقرأها أيضًا: أن اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال البريطاني سَتقدّم تقريرًا إلى مؤتمر حزب العمل السنوي، وذكر التقرير: «هناك حالة لا تُقاوَم الآن بعد الفظائع التي لا تُوصف ضد اليهود في أوروبا للسماح لهم بدخول فلسطين وأن يصبحوا الأغلبية»، وتَطَرّقَ أيضًا إلى نقل السكان المحليين العرب: «العرب لديهم أراضٍ عديدة واسعة خاصة بهم، ولا يصح ادعاؤهم بوجوب استبعاد اليهود من أراضي المنطقة الصغيرة في فلسطين»*4.

خاطبَ زعيمُ حزب العمل البرلماني (آرثر غرينوود) في مسيرة عيد العمال في (بوالي زيون) في لندن، قائلاً «إن قلبَ الحركة العمالية البريطانية تأثر بموضوع اليهود الأوروبيين». مشيرًا إلى بيان السلطة التنفيذية الذي تحدث عن نقل العرب من فلسطين، وأنهم لا يتحدثون عن الطرد القسري للعرب فهذا يخضع لحرية الاختيار، وشدّدَ على أن الحلول كانت تقوم على صداقة لا كراهية: «نيّتنا هي إقامةُ وطن قومي لليهود والسماحُ لهم بالذهاب إلى هناك ليصبحوا أغلبية، ونحن مقتنعون بأن أول إصلاح حقيقي لليهود هو الوطنُ القومي اليهودي في فلسطين، حيث يجب أن يُرفع العَلم اليهودي في الوطن اليهودي».*5

ومن المشكوك فيه ذهابُ آرثر اليهوديِّ إلى فلسطين والتقاؤه السّكّانَ المحلّيّينَ المسيحيين والمسلمين في مدنهم وقراهم ومنازلهم، ولو كان هذا لحدث له ما حدث لنا نحن المجندين؛ ربّما يضع نفسَه مكانهم!

وفي غُضون ستّة أسابيعَ من الفوز في الانتخابات، كانَ الحلُّ الذي بدا بسيطًا للغاية حول طاولة مؤتمر حزب العمل، مختلفًا جدًّا حينما واجهَ الواقع ومسؤولية

التعامل معه! وأدركَت القوات التي كان من المفترض أنْ تَتَتَبّعَ أحوال فلسطين في «وقت السلم»، أدركتْ بسرعة أن فلسطين مقدسة عند العربي الفلسطيني تمامًا كما أن بريطانيا مقدسة عندهم. لم يكن صعبًا على الجنود فهْم سبب رفض الفلسطينيين إخراجَهم وإبعادهم عن منازلهم وأراضيهم، ألمْ يَخُض البريطانيون حربًا وحشيةً للحفاظ على بلادهم؟!

وفي العام 1945م استُخدم الإرهاب لتحقيق هدف سياسيّ يروّع العالَم وبريطانيا. ومنذ مؤتمر حزب العمال في أيار (مايو) 1944م كانت فكرةُ نقل السكان غير اليهود خارج فلسطين ذاتَ نتائجَ غيرِ مجدية، فقد تغيّر الوضع الآن.

دافَعَ (هاري إس ترومان) الذي أصبحَ رئيسًا للولايات المتّحدة عقبَ وفاة (روزفلت) في (إبريل)، دافعَ عن الهجرة اليهودية الحرة، وكان يوصي (آتلي) في تموز (يوليو) بالسماح لدخول مئة ألف يهودي إلى فلسطين، ولكن هذا يَفوق طاقةَ تحمّل الحكومة، فاقترحوا تقييد دخولهم بألف وخمسمئة يهودي شهريًا. وقد أزعجت بريطانيا العربَ بمحاولتها تهدئةَ أمريكا وجماعةَ الضغط الصهيونية (اللوبي الصهيوني)، وأراد اليهود المزيد، وكانوا يتظاهرونَ في تل أبيب ودخلَ في هذا الوضع عنصرٌ إجرامي. وفي الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر) طالبَ مجموعةٌ من المبتزين الإرجون صاحبَ مقهًى يهودي بثلاثمئة جنيه إسترليني بسبب توظيفه العرب؛ ولما رفض اقتُحم المقهى مساءَ ذلك اليوم ودُمّر، وبعد ستة أيام سَرقتْ مجموعةٌ أخرى مديرَ مكتب بريد يَحمل أربعة آلاف وسبعمئة وستين جنيهًا إسترلينيًا وهو في طريقه إلى المكتب عائدًا من بنك (باركلي) في تل أبيب، وقُتل أحدُ مرافقي الشرطة. وبحلول تشرين الأول، رُفض طلبُ (ترومان) السماحَ لمئة ألف مهاجر بدخول فلسطين، ووَعد ترومان (آتلي) بعدم إفشاء موضوع هذا الطلب وما تبعه من رفض، ولكنه رغم ذلك وَصل إلى العموم.

كانَ (إرنست بيفين) وزيرُ الخارجيّة مُقتنِعًا بأنّ الصّهيونيّة ظالمةٌ وغيرُ ضروريّة بعدَ أنْ مكثَ في مكتبه ثلاثة أشهر لدراسة الوضع الفلسطيني. فمن وجهة نظر جنديّ، لن تكون فلسطين مجتمعَ المساواة على النحو الذي فاز بسببه العمالُ في الانتخابات البريطانية. لن يكون الموضوع قضيةَ استصلاح صحراء، بل من المرجّح أنْ سيكون أخْذ أراضٍ عربية أكثر. لقد كان (بيفين) وزيرَ الخارجية! لكن هذا كان متأخرًا خمسًا وعشرين سنة.

وفي نيّة واضحة لتخويف الحكومة، قامت عصاباتُ الهاجاناه، والإرجون، وليحي، مجتمعةً، وبالتنسيق فيما بينها، في الحادي والثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر)، قامتْ بتفجيرِ عبوات ناسفة ضد أهداف سهلة، وهو التكتيك ذاتُه الذي استخدمه النازيُّ في (كريستال ناشت) وهم يصعدون إلى السلطة.

وقدْ غَرقَ زَوْرَقَان للشّرطة في ميناءِ حيْفا بألغام أرْضيّة، وتَسَبَّبَتْ تفجيراتٌ بمئتين واثنين وأربعين خرابًا في شبكة سكة الحديد. وفي ساحة البضائع في اللد، دُمِّر قطارٌ وثلاث قاطرات، وقُتل ثلاثة مدنيين عرب في محاولةٍ فاشلة لتفجير محطة النفط في حيفا.

لَقَدْ غَيَّرَتِ الظُّروفُ طبيعةَ الدّوْرِ البريطانيِّ في فلسطين.

دَخَلُوا في دور شرطي أكثَر، واستُدعيتْ قُوّاتُ مُشاةٍ وقُوّاتٌ محمولةٌ جوًّا، وزادت الحوادث الإرهابية فزادت الإجراءاتُ ضدّ الإرهابِ قسوةً.

كان (إيفان ليود فيليبس) مُفوّضَ منطقَتَيْ غزّةَ وبئْر السّبع، وقدْ لَخَّصَ الوضْعَ هناكَ برسالة إلى والده قال فيها: «فلسطين كانت ستصير -تقريبًا- مكانًا مثاليًّا لو لم يكن فيها إلّا نحن والعرب»*6.

وفي العام 1946م مَنَحَتْ بريطانيا إمارةَ شرق الأردنّ الاستقلالَ، وَقَد اتَّهَمَ الصّهاينةُ بريطانيا -بسبب هذا المَنْح- بخرق إعلان بلفور، وهذا يشير إلى وجود ثغرة في الإعلان. ولم يكن في العقول الإنجليزية شَكٌّ في أن فلسطين وإمارة شرق

الأردن دولتان منفصلتان بحدود يشكّل البحر الميت ونهر الأردن جزءًا منها. وعسكريًّا كانتا تُحميان معًا من قِبل قيادةِ أليِنبي في القدس.

علمًا أنَّ إعلان بلفور لمْ يَعِدِ اليَهودَ بدولةٍ في فلسطينَ بلْ بوطنٍ فيها.

كانتْ فتْرةً منَ الاجتماعات المكثّفة والمحادثات، حولَ مأزق اليهود الأوروبّيّين، بدلاً من مستقبل الفلسطينيين غير اليهود؛ هذا ما كان يسيطر على النقاشات.

ومعَ نهاية الحَرْب العالمية الثانية، اسْتُحدثتْ تغييراتٌ في ترْكيبة الجَيْش: أصبحَ العددُ المحتاج إليه في الخطوط الأمامية أقلّ، وأوكل الجنود القدامى بالخدمات الخلفية، وكان كثيرٌ منهم في مرحلة التقاعد، لأنهم خَدموا في الحرب العالمية الأولى؛ وهو ما أدى إلى نقل ضباط المشاة في زمن الحرب إلى الخدمات الخلفية أيضًا. وقد حافظ بعضهم على شعار المشاة، وحُوّل آخرون بعد تلقي التدريب المناسب إلى سلاح ذخيرة الجيش الملكي أو سلاح الميكانيكيين والكهربائيين الملكي (REME) أو خدمات مساندة أخرى.

كَثُرَت الهجماتُ الإرهابيّة، وكانتْ مراكزُ الشّرطة أهدافَها السّهلة، وفي شباط 1946م هجم الإرهابيون على بنك ومحطات أجهزة كشف (رادار) على جبال الكرمل، وكانت المؤسسات البريطانية كلها عرضة للهجوم! هذه تصرفاتُ مَن سعت بريطانيا سعيًا كبيرًا لتُحرّرهم من أكثر نظام شرّير في العالم!!![(1)] ولم تكن مبرَّرةً نهائيًّا. وفي الحادي والعشرين من شباط هاجم الإرهابيون ثلاث محطات شرطة.

على كلّ، الهجومُ على المراكز الثلاثة فشل، وقُتل ثلاثةٌ من (كوماندوز الهاجاناه). وكان دعمُ السكانِ اليهودِ الكبيرُ للعمل الإرهابي واضحًا عندما وقف خمسون ألف شخص على طول خط سيْر جنائز الإرهابيين! وقد اختير التاريخُ بحيث يكون موافقًا ليوم رجوعِ (حاييم وايزمن) إلى القدس.

---

(1) المترجم: هنا يوضح الكاتب أنه رغم كل ما فعلتْه بريطانيا لليهود، نفّذوا هجمات إرهابية على الأهداف البريطانية الممكنة كلها! وهذا هو المستغربُ جدًّا من قِبَل المؤلف إريك لو!

وفي اليَوْم الثّاني، هَاجَمَ الإرجون مطارات اللدّ و(تيقد/ Tiqd) و(بيتاح/ Petah) و(قاستينا/ Qastina) ودمروا اثنتي عشرة طائرة. وازدادت الهجمات ضراوةً، وكان لحادثيْن في نيسان 1946م عواقبُ استمرّت زمنًا طويلاً: ففي الثالث والعشرين من ذلك التاريخ أَغاروا على مركز شرطةِ (رامات جان)، فقُتل شرطيٌّ عربي وأحدُ المهاجِمين، وقُبض على إرهابيٌّ آخرَ من الإرجون يدعى (دوف جرونر) وجُرح جراحًا بليغة، ووُضع في المستشفى تحت الحراسة.

وبعدَ يوميْن، وقعَ حادثٌ كبيرٌ فدُفعتْ قوّات إلى مكان العصيان؛ كانَ هناكَ موقفُ سيارات للجيش في ساحة (هيربيرت صموئيل) على وجه تل أبيب البحري، وكان محروسًا بخمسة عشر مظليًّا من القوة السادسة المحمولة جوًّا، فقامت عصابة من ثلاثين إرهابيًّا تقريبًا بمصادرة بيت يطل على موقف السيارات ومعسكر الحرّاس المحمولين جوًّا؛ غطى بعضهم موقف السيارات من البيت، وزحف البقية المسلحون ببنادق نصْف آلية نوعُها (تمبسون/ بنادق تومي) إلى المعسكر فقَتلوا سبعة جنود، منهم الخفيرُ الرجلُ الوحيد الذي كان يحمل سلاحًا، وهربوا بسرعةٍ كما دَخلوا، وأخذوا معهم اثنتي عشرة بندقية.

لَمْ تَكُن القُوّاتُ الموجودة في فلسطينَ كلّها سعيدةً بعَدَم وُجُود سياسة فَعّالة ضدَّ الأعمال الإرهابية، وكثير من تلك القوات التي أتت إلى فلسطين كانوا قد خَدموا في كنفِ الحرية في أوروبا وعانوا من خسائر كبيرة.

كان اللّواءُ (جيمس كاسيل) -الذي كانَ القائدَ العامَّ للفرقة السّادسة المحمولة جوًّا- غاضبًا ومندهشًا مما كانت قواته تواجهه، وقال: «لا أظن أن اليهود يدركون أن معظم رجالي نزلوا بمظلّة الهبوط الـ(باراشوت) في الـ(نورمندي) حزيران 1944م، وأعدادٌ كبيرة منهم قُتلوا أو جُرحوا وهم يقاتِلون لإخراج هتلر مِنْ على وجه الأرض».

الإرهابُ لا يُمكنُ أنْ يُواجَهَ إلّا بأشدّ الطّرق وحشيّةً، ضدَّ السّكّان اليهود كلهم. وهي الطريقة ذاتها التي استخدموها ضد العرب إبان ثورتهم قبْل ثماني سنوات.

كتيبةُ المظليين الخامسة كانت على وشك الثوران، لكنْ -وهم مجتمعون سرًّا- أَغلق الضباط الذينَ كانوا يشعرون بالاضطراب على الأسلحة النارية، فقد أرادت القوات أن تنتقم، ولكنّ أكثر شيء قدروا على فعله هو تكسير النوافذ في (ناتانيا).

وقدْ أرادَ اللّواء (كاسيلز) تحصيلَ غرامة مقدارُها مليون جنيه من سكّان تل أبيب، لكن الفريق (ألان كننغهام) المندوبَ السّامي لم يوافق على ذلك.

وافقَ على إغلاقِ المطاعمِ والأماكنِ المهمّة حتّى الثامنة مساءً.

وبسبب الحادث، أصبحَ (بيفين) مُتَردّدًا جدًّا في الموافقة على طَلَب (ترومان) السماحَ بدخول مئة ألف مهاجر. ولم يكن المهاجرون من كبار السن، بل شُبّانٌ اختارتهم بعنايةٍ الوكالة اليهودية ليقاتِلوا في فلسطين. وجَلبت السفينتان (فينيس) و(فيدي) ألفًا وأربعة عشر رجلاً تتراوح أعمارهم بين خمس عشرة سنةً وخمس وثلاثين سنة، وقد كان واضحًا أنهم عُيّنوا لزيادة أعداد الجيش السّريّ الذي يزيد على الدوام.

وبمُرُور الوقت، صارَ تَطْبيقُ القانُون أغلظَ؛ فقدْ حاولَ الجيْشُ فرْضَ القانون بحياديّة بين العرب واليهود. وبوضوح شديد، كان توجّههم تجاه اليهود أكثرَ عدائيةً منه تجاه العرب؛ لأن اليهود هم الذين يَقتلون ويُفجّرون، أما العرب فلمّ يكونوا متعاونين فقط، بل كانوا -بكل ثقة- مخلصين للجيش. الصحف الأمريكية واليهود الأمريكيون، هدفوا لوابلٍ من الدعاية المدعومة صهيونيًّا ضدّ بريطانيا.

وهذه الدعاية نجحت في زيادة النشاط الإرهابي، وقد عبّر الرائد (دير ويلسون) عن مزاج الجندي البريطاني الذي كان شديد الحيرة بشأن السبب الذي جعله يصل إلى فلسطين: «فورًا سأل نفسه: من أجل ماذا كنتُ أقاتل في السنوات الخمس التي مضت؟!».

وفي حزيران اعتُدي على الجسور وسكك الحديد، وقد كانت تعدّ من الأهداف السهلة. ولكنْ في السابع عشر من حزيران اعتدي على ورشة سكة حديد (كيشون)، فأدى ذلك إلى مقتل خمسة وثلاثين إرهابيًّا من (ليحي): دخلوا إلى المجمع ثم قاموا بتفجيرات عديدة؛ وهو ما أدى إلى تدمير قاطرة وسيارة إطفاء، لكنْ خلال القيام بالعملية قُتل رجلان منهم. وبينما يحاول الآخرون الهرب، اصطدمت شاحنتهم بأحد الحواجز، ثم أطلق الرجال الموجودون على هذا الحاجز النار عليهم، فقُتل سبعة أشخاص وجرح أحد عشر آخرون. ثم قُبِض ستةٌ وعشرون رجلًا منهم وهم في كامل عتادهم من بنادق (برن) وبنادق (تومي).

سَنَةٌ واحدَةٌ فقط، مُنْذُ نهاية الحرْب في أوروبا، وأقلُّ من سنة منذُ هزيمة اليابان. زادَ هذا من ذعر الإنجليز من ردّة فعْل اليهود في فلسطين! فلسطينُ التي كانت في أيام الحرب مكانًا لراحةٍ واستجمام القوات المسلحة البريطانية التي خدمتْ في البحر الأبيض المتوسط، وكانت القدس وتلّ أبيب مركزيْن معروفين لقضاء الإجازة؛ كانت القدس مكانًا مثاليًّا للمهتمين بالأمور الإنجيلية، وكانت تلّ أبيب مكانًا مثاليًّا لُمحبّي البحر، فهي تشبه (بوموث)، لكنها تَختلف عنها بتوافر أشعة شمس أكثر. فيها حياةٌ ليليةٌ وشواطئُ رملية، وفي أوقات الحرب كانت ملائمةً أكثر. في بريطانيا شَواطئُ عديدةٌ كانتْ مُحاطَةً بسياجات شائكة وحراسة مشدَّدة، والطّعامُ كانَ مُقنّنًا، لكن انقطاع الكهرباء كان يُقلّص الحياةَ الليليةَ فيَحول دون أن تكونَ منتجعات عطلة. إن معرفة رجال الخدمات في أوروبا عن جوّ فلسطين اللطيف جَعلتْهم يَعدّونَها وجهةً سياحيةً مناسبة مريحة (Cushy posting).

كانَ الذينَ يُجازون للذهاب إلى تلّ أبيب يَكْتبونَ لمدير مكْتب قائد الشّرطة العسْكريّة للجيش في شارع (هايركسون 123) ليحصلوا على تصريح مُرُورهم مختومًا وليضعوا أسلحتهم وديعةً لحين عودتهم إلى العمل. وقد كان هناك شقق متوافرة في فندق استراحات الحرب (أتش توك/ Toc H، St Andrew's house) و(وبيت هيربيرت).

بَعْضُ هؤلاءِ يُفَضلونَ فُنْدُقًا خاصًا، وهُناكَ أيْضًا ستة وستون فنْدقًا يَسْتطيعونَ الاختيارَ منها. (جون كليج) ورفقاؤه الثلاثةُ اختاروا (ياركون)، وأدبيّاتُ الفندق تقول أنه يَستقبل مَدنيين أيضًا.

لمْ يَخْسرْ هذا الفندقُ شعبيّتَه عامَ 1946م، إلى أن جاءَ الثّامنَ عشَرَ من حزيران، ففي أثناء اجتماع بعض الضباط في غرفة الطعام لتناول وجبة الغداء؛ دخلتْ عصابة من اثني عشر رجلاً من الإرجون بوابةَ الفندق، وكانوا يَبحثون عن رهائن. وكانت المحكمة العسكرية قد حكمتْ على رجُلين منهم، بعد القبض عليهما في حامية صرفند، بالإعدام في الثالث عشر من تموز، ووقف سبعة من هؤلاء الإرهابيين حرّاسًا خارجَ الفندق، ودخل خمسة منهم مسلَّحين بسلاح (تومي). أَخذوا رهينتين لقتلهما في حال أُعدم الإرهابيون. لقد كان الرجلان ضابطين: القائد (دي تي ري) والملازم الطيار (توماس روسيل)، وقد أُخذا بعيدًا في شاحنة مناسبة فيها صناديقُ طويلة تحت الألواح السفلية، ولمّا خُفّضت أحكام السجين أُطلق سراحُ الأسرى.

وفي تمّوز، جَرَتْ مُحادثاتٌ بَيْنَ بريطانيا وأميركا على مُسْتوًى عال، وستُفلس بريطانيا إذا لم تَقترضْ منها. ليس أمرًا حسنًا أنْ نَستجدي ونحن الأمة التي سَخّرَتْ كل ما تَملكهُ لتخليص أوروبا من النازي. لقد كانت هذه وجهةَ نظر أغلبية سكان بريطانيا. ووافقت أميركا على القرض في الثالث عشر من تموز رغم التحريضات ضد بريطانيا بسبب القضية الفلسطينية.

القُدْسُ التي رآها (ستان هايورد) عامَ 1946م تَخْتلفُ كثيرًا عن القدْس التي عَرَفَها (بيل هاورد) قبل عشر سنين؛ فقد كان (ستان) أيامَ تفجير فندق الملك داود؛ ذلك الفندقُ الذي يختلف كليًّا عن فندق الملك داود الذي مُنع من دخوله (بيل هاورد) لابسًا حذاءَه العسكري! كان دمارًا شاملاً؛ فظائعَ مُفظّعةً من تدبير الإرجون، أودتْ بحياة مدنيين أكثر من رجال الخدمة البريطانيين! قُتل واحد وتسعون شخصًا: واحد وأربعون عربيًّا، وثمانية وعشرون بريطانيًّا، وسبعة عشر

يهوديًا، وخمسة آخرون. كان (مناحيم بيغن) -بلا شك- يبحث عن نصر نبيل، إن جاز أن نصف الإرهاب أو القتل بالنبل! وفي كتابه (التمرّد) عَرض فندقَ الملك داود قلعةً إنجليزيةً مسلحةً تسليحًا كبيرًا. ولكن، كما في يوم (بيل)، ما زال يَعمل فندقًا ومطعَمًا، وكان مدخله الرئيس بلا حراسة. لقد كان مركزَ القدس الاجتماعيَّ الريادي، وكان جزءٌ من المبنى يُستخدم مكتبًا يراجعه العامةُ لقضايا إدارية عمومًا.

دَخلتْ عصابةُ الإرْهابيّين، مُنْتَحلينَ مُوْهِمينَ أنّهُم عَرب، من باب خدمةٍ غير مَحْرُوس وجَعلوا عمالَ المطبخ تحت الحراسة، وفَرّغ آخرون خضّاضات الحليب ودَسّوا فيها متفجرات ووضعوها في مكانها. ويدعي (بيغن) في كتابه وقوعَ معركة ضارية لاختراق القبو، لكن الحقيقة أنه لم يكن هناك إلّا ضابط إنجليزي واحد وقد قُتل حينما تحدى العصابة. وأدّى انْفجارُ قنْبلة أخرى صغيرة خارجَ الفنْدق إلى مقتل كثير منَ العرب؛ فَجّرُوها خارجَ الفندق لتفريق الناس في المنطقة. ولسوء الحظ، كانت الحافلة ذات الرقم (4) تمر بالمنطقة فحوصرتْ بالانفجار فجُرح بعض العرب وأُخذوا إلى الفندق ليُسعَفوا إسعافاتٍ أولية. ركض عمال الفندق إلى الشبابيك والشرفات ليروْا ما يَحدث، ثم توجهوا إلى انفجار عبوات الحليب ((chrns، وقد اختُلف في: هل صَدر في تلك الظروف تحذيرٌ كاف أم لا؟ (بيغن) يدعي ذلك وأنّ رئيس السكرتارية (جون شو) تجاهله، ولكن (شو) والشهودَ الإنْجليز كلَّهم أنكروا، وادعى الإرجون أيضًا أنهم حَذّروا المباني المجاورة لبريد فلسطين والقنصليةَ الفرنسية، وقد كانَ ذلك جيّدًا، لكنه في الحالتين كلتيهما بعد التفجير. وعلى أيِّ حال، سواءٌ أَحَذَّرُوا أمْ لَمْ يُحَذِّرُوا، فالسَّفَّاحُونَ الذين ارْتَكَبُوا هذه الجَريمَةَ البغيضة التي استَهدفت الجيش الإنجليزي هم الملومون، فهم مَن زَرعوا القنابل وفجروها لا غيرهم.

وعلى الرغم من أنّ هذا الحدثَ غَيّرَ قليلاً في طريقة تفكير (بيغن) وخياله؛ لمْ يَكُنْ -مع الصهاينة- كافيًا لتغيير التوجه السائد ضد الإنجليز.

(أرين لويس) كانتْ مُجَنَّدَةً في خدمة التّطوّع النّسائيّة (ATS) داخلَ الفنْدق في ذلك اليوْم القاتل؛ وكانت قد تجنّدتْ في خدمة التطوع النسائية في مستودع عتاد الجيش الملكي (أولد ديلي ليسستر) عام 1944م، وتطوعتْ للخدمة فيما وراء البحار عام 1945م، وقد عُيّنتْ في قيادة فلسطين بفندق الملك داود، وذهبتْ لتَعمل كلّ يوم بشاحنة الثلاثة أطنان من قيادتها في ثكنات (الينباي)، وقدَّمت هذا التقرير التصويريَّ لتلك الحادثة:

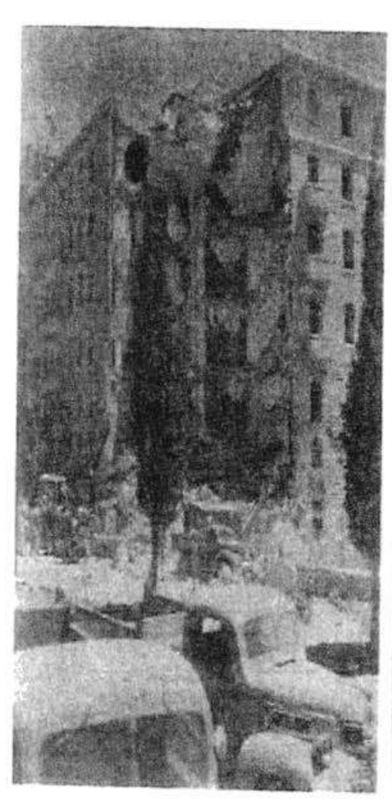
«القُدْسُ مدينةٌ جميلة! مَن كانَ يَتخيَّلُ الشَّرَّ يَتخمَّرُ في عقْلِ رجال ونساء! وقد وَصَلَتْ ذروتُه في الأحداث المروعة التي وقعت يوم الاثنين الثاني والعشرين من تموز 1946م.

كانَ يوْمَ عَمَل اعْتياديّ، يومًا آخرَ مُشْمسًا مهولاً! وزادَني متْعةً أنَّ اليوْمَ الثّانيَ عيدُ ميلادي الثالث والعشرون. ولكن، في الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة بعد الظهر، سمعْنا صوت انفجار كبير تبعَه إطلاق نار في الخارج، لكننا بعد الصدمة الأولى استمررْنا نعمل، وكان الوقت قريبًا من موعد الغداء.

جاءتْ إحْدى زميلاتي من خدمة التّطوّع النّسائيّة تَطْلبُ منّي أنْ أَصْعدَ مَعَها إلى السّطْح لنرى ما الذي يَحدث، ولإيماني بأن العقل أفضلُ من الشجاعة رفضتُ طلبها. وفي تمام الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقةً مساءً وَقع أكبر انفجار مزلزلٍ! لكنْ، هذه المرةُ في داخل الفندق. اهتزت المعدات والمبنى بالكامل. سَمعنا صوتَ ارتطام المباني الحجرية والأنقاض على الشارع، ورأيْنا سحابة هائلة من الدخان والغبار تتطاير حول النافذة. تَوجّهْتُ إلى المكْتب التّالي الذي يَعملُ فيه أصْدقائي فوجدْتُهُمْ في حالة شديدة من الصدمة ويَنظرون من فجوة في الأرض. وجاء بعد قليل أمرٌ بإخلاء المبنى من جهة الفندق الأخرى. استطعنا رؤية الدمار والمجزرة الناجمة عن الانفجار. هُدمَت المنطقة الجنوبية الغربية بالكامل! واكتشفْنا أن القنابل ضُبطت للانفجار في القبو في تمام الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقةً مساءً. وَصَلَ الجُنُودُ بسُرْعة كبيرة، وبدأْنا نَبْحَثُ معًا،

بمساعدة أعضاء الشّرطة الفلسْطينيّة، عن الموظفين المدفونين تحت الركام. كانَتْ لحظات مروّعة، وفي الأيام التالية خاصةً، حين تَوجّب عليهم ارتداء الأقنعة لكثرة القتلى!.. طار مدير مكتب البريد إلى الحائط المقابل للفندق، واكتشفتُ لاحقًا أن صديقتي التي صعدَتْ إلى السطح طارت نحو الحدائق!.. قيل لي إنها بخير، لكنني لم أرَها مجدّدًا! وبقيتْ في رأسي فكْرةٌ أنه كان يمكن أن أكون معها»!

كانَ (جون جيفري) يَعدّ نفْسَهُ سائقًا سائقًا في القيادة! لقد أُرسلَ لإيصال طرْد لزوج العميدِ المسؤولِ عن الإدارة. كانَ يَظن أنها هديةٌ (قميص نوم)، وقد رافقه (ليز أيل)، وفي طريق عودتهما من مكتب بريد الجيش سَمعَا صوت إطلاق نار، وكانَ هناك عربيٌّ فلسطيني من الشرطة يُطلق نارَ رشاشه (الستين) على الطريق الجانبي الواصل إلى المدخل المخصَّص للتجار. تَمدّدَ المشاة المحليّون الذين كانوا يمرون من هناك في القنوات، و(جون) و(ليز) تَغطّيَا خلف بوابة جمعية الشبان المسيحية، ومِن هناك رَكضَا إلى بوابة الشرطة العسكرية خارج مدخل الفندق الجانبي.




– من الجهة اليسرى فنْدُقُ الملك داودَ بعْدَ ثمانٍ وأربعين ساعة من الانفجار، وما زالَ الجنود يبحثون عن ناجين.

– من الجهة اليمنى (إيرين لويس) (أر) مع صديقتين في ثكنات ألنبي. وكانت (إرين) في الفندق حينما زُرع بالديناميت.

(الصورة مِن: ستان هايوارد، وإرين لويس)

في تلْكَ اللَّحْظة انْفجرتْ قنْبلةٌ في مكانٍ قريب. وكَتَبَ (جون): «لأننا دَخَلْنا منَ الباب الجانبي ركضْنا صاعدين الدّرَجَ؛ قليلاً ما كنا نَعرف أننا جالسونَ فوق المتفجرات. شعرْنا أننا بحاجة لـ(كاس)، واختفينا خِلسةً في معهد الجيش والقوة الجوية والبحرية، آخذينَ بالطريق معنا (فيرا) وهي بنتٌ تعمل معنا من خدمة التطوع النسائية.

صعدنا إلى الأعلى، إلى السّطح، حيثُ سكنُ معاهد القوى الجويّة والبحريّة والجيش في كوخ في أواخر الجهة الشمالية. أنا و(ليز إيل) بقينا نشرب الشاي، وذهبتْ (فيرا) إلى آخِر السطح من الجهة الأخرى. وَقع هناك انفجارٌ ضخم وغيمة كبيرة من الغبرة! والشيء الآخَر الذي رأيتُه من (فيرا) أنها كانت تترنّح طيلة الطريق خارج جمعية الشبان المسيحية ولم أرها بعد ذلك. أتخيّل أنها زحلقتْ من فوق السطح لمّا انهار الحائط..

كَتَبَ (تريفير كيربي)، وهُوَ شُرطيٌّ من فلسْطين، عَمّا عايَنَهُ وعايَشَهُ من التفجيرات؛ إنَّهُ يتذكّر الاثنين اللذين كانا خارجًا في الطريق حوالي الساعة الثانية عشرة، وبعد انتهاءِ الواجب الرّئيس الساعة الثانية عشرة وسبع وثلاثين دقيقةً ظهرًا أُرسل فورًا ليرافق الشاويش في شرطة (كين برايس) الذي ترك كتاباتٍ عن معلومات الضحايا في أعلى درجات المدخل الرئيس، وقد احتَفظ بها هو و(تريفور) الأيامَ والليالي اللاحقة بينما تسجِّل محطةُ المراقبة الرئيسة الأحداث من شاحنة عسكرية قريبة.. في البداية كانَ هناك مئات الأسماء! ولكنْ في آخر المطاف تَقلّص العدد تدريجيًّا من قِبل الأشخاص أنفسهم أو أقاربهم أو أصدقائهم قبلَ التعرف على الجثث. دُفن بعضُهم أحياءً، وكانَ آخرُهم السيدُ (دي سي طمسون) -وهو سكرتير مساعد- قدْ أُنقذ بعد (31) ساعة، ولكنْ يا لَلحزْن! فقد توفي بعد بضعة أيام!

رجَالُ الخدمة الذينَ كانَ مُعْظَمُهُمْ منْ فرْقَة المُشَاة المَحْمولَة جَوًّا، سَعَوْا بلا توقّف لإزالة الركام المتراكم، وفي التاسع والعشرين من تموز هَدم المهندسون العسكريون العمود المركزي ليتخلصوا من خطر الحطام الآيل للسقوط، وبذلك يتمكنون من تنظيف الموقع..

وفي الثاني منْ تَمُّوز، كانَ العددُ النِّهائيُّ للقَتْلى واحدًا وتسعين، والجرحى خمسةٌ وأربعون جريحًا في المُستشفَيات، وقد وصلَ عدد المتعالجين الكلي أربعمئة وستة وسبعين، وما زالت هناك جثّة لم يُتعرّف عليها بعد التأكد من أن باقي

المفقودين أصبحوا في مَأمَن! وقد قُلّد خمسة جنود بريطانيين أوسمةً لما قاموا به في عمليات الإنقاذ فضلاً عن وسامَيْ صليب الملك جورج: مُنح أحدهما للشاويش (تي. نيومان) من سلاح خدمة الجيش الملكي (RASC)، والآخر لشاويش الشرطة (إي أي سميث). (أورجون زيفي ليومي) التي يَقُودُها مناحيم بيغن أعلنتْ مسؤوليَّتَها في منْشُور: «الهُجُومُ قام به جنودنا بكل شجاعة وتضحية بالنفس. اللومُ يقع على الإنجليز لتجاهلهم تحذيرَنا بالهاتف».

تفْجيرُ فنْدق الملك داودَ حَدَثٌ مُهمٌّ في سَنَة مُهمَّة! وقدْ تَحَوَّلَتْ فلسْطينُ منْ مُشْكلةٍ سياسية إلى مشكلة إرهابية تتطلب عملاً حاسمًا.

وكثير منَ السُّكّان اليَهُود غَيَّرُوا تَوَجُّهَهُمْ منَ التَّمَلُّق إلى الإهانَة؛ وفي أثْناء بَحْث الجَيْش في المستوطنات اليهودية عن الإرهابيين والأسلحة كانوا يُحيّون بشعارات وكلمات مثل النازيين: «جيستابو»، و«نازي سادي»، و«إنجليزي ابن حرام»[1]!

قُتلَ ثمانية وثمانون بريطانيًّا عامَ 1946م، ولكنَّ تفْجيرَ فنْدق الملك داودَ حَرّكَ مَكْتبَ الحرْب ليَتخذ مسارًا حاسمًا في العمل. وفي تلك السنة لم يُعدَم إرهابي واحد، وأصواتٌ مهمة بدأت تُسمَع ومنها صوتًا تشرتشل وصحيفة (سندي إيكسبريس/Sunday express).

«احْكُمْ أوْ غَادرْ» ما صَدَرَ بالخَطِّ العريض لـ(سندي إيكسبريس)، وذكرتْ أنَّ وَزيرَ المستعمرات (آرثر كريش- جونز) لم يكن ذا قدرة تؤهله ليعيَّن في هذا المنصب! والأمن ما يزال غير فعّال. وأدت الاشتباكات المسلحة إلى مئتين واثني عشر قتيلاً، منهم البريطانيون الثمانية والثمانون الذين قُتلوا في فندق الملك

(1) المترجم: للأسف، الصورة السائدة هي أن الخلاف الرئيس كان بين الإنجليز والفلسطينيين. يُوضِّح (لو) أن أعمال الإرهاب مثل تفجير فندق الملك داود، أعمالُ الإرهابيين اليهود كما يسميهم. وهذا القصور في فهم مشاعر الجنود الإنجليز الحقيقية في تلك الفترة، كان له دور أساسي -من وجهة نظري- في عدم قدرَة الإعلام العربي على استثْمارِ هذه الحقائق لصالح القضية المركزية، فلسطين. وبين الشعب الإنجليزي نفسهَ خاصةً؛ فالذي قَتل شبابَهم هو الإرهابُ اليهودي كما يقول المؤلف، لا العربيُّ الفلسطيني الذي اغتُصِبت أرضه.

داود، وستون عربيًّا، وخمسة وأربعون جنديًّا إنجليزيًّا، وسبعة وثلاثون يهوديًّا غيرَ مسلّح، وتسعة وعشرون شرطيًّا إنجليزيًّا، وستة وعشرون مسلّحًا يهوديًّا، وأربعة عشر مدنيًّا بريطانيًّا، وواحدٌ آخر.

ومِن القَتْلى مَنْ قُتل في فُنْدُق المَلك دَاوُد، والإشارَاتُ المُتوافرَةُ تُخْبرُنا أنَّ القادمَ في السَّنَة المقبلة أسوأ!..

بَعْدَ ما يفوق تسعةَ أشهر في الحبْس المُؤقّت، شُفيَ الجَريحُ (دوف جرونر) الذي قدْ أُلقيَ القبض عليه في الغارة على مركز شرطةِ (رامات جان) وقد كان تَعِبًا، وفي الثاني من كانون الثاني 1947م حُكم بالإعدام، وكانت أداة الإعلام تَعمَل في الأوقات كلها فصنعتْ منه أسطورةَ الزمان! وقد أُمطرت السفارة البريطانية في واشنطن بمكالماتٍ هاتفية وبرقيات تَحثّ على الرأفة.

خَدَمَ (جرونر) خلالَ الحَرْب في الجَيْش البريطانيّ، وذَكَرَ (السّناتور روبرت تافت) أنَّهُ: كان عاملِ كهرباء، وكان موجودًا لأنه يريد أن يتقدم لوظيفة. وقد عَبّر الفريق (إيفيلين باركر) عن هذا كله ببساطة: «ألقي القبضُ على (جرونر) ويداه ملطّختان بالدم، مُسلّحًا، يُطلق النار على القوات الإنجليزية».

ما بين العَامَيْن: 1939م و1946م، أَرْجَأَتْ بريطانيا عُقُوبات الإرْهابيّينَ اليَهُود كلَّها، ولكنها الآنَ أصبحتْ تُطبّق سياسةً حازمة بعد الحُكم.

وانْتقامًا، بَدَأَت الإرجون تبْحَثُ عَنْ رَهَائنَ وأَهْدَاف سَهْلَة، وقَدْ وَجَدُوا هَدَفَيْن مَدَنيَّيْن، ولمْ يكن هناك هدفٌ أسهلُ من (هيربرت كولينز) نائبِ مراقب شركة المنسوجات الصناعية الخفيفة، وهو جنديٌّ سابق، وُلد عام 1896م وشارك في الحرب العالمية الأولى بين العامين: 1914م و1918م، وفي الحرب العالمية الثانية أُخليَ من (دونكيرك)، وقاتلَ في حمْلة شمال أفريقيا وكان في أراضي شاطئ (أنزيو)، وكانت رتبته في القوات (رائد)، ولقبه في بطاقة العمل (الرائد أتش. أي. كولينز)، وكان في فلسطين لتطوير التجارة في البلاد.

وفي السادس والعشرين منْ كانون الثّاني، وهُوَ -أيْ (كولينز)- يُوشكُ أن ينتهي منْ شرب الشاي في فندق (دوريتيس) في القدس؛ إذا امرأةٌ تَطرق الباب وتقول أن معها رسالةً له، ولكنه عندما فَتح الباب فوجئ بإرهابي يهودي يَحمل أسلحةً أتوماتيكية! رَشّ عليه مُخدِّر (الكلوروفورم) وضَربه على رأسه ووَضعه في كيسٍ وأَخذه بعيدًا. وهو المدنيُّ الأول الذي أُخذ رهينةً.

أمّا الثّاني فكانَ القاضيَ (ويندام ليكر)، وقد أُخِذَ في اليوْم الثّاني.

الثاني والعشرون منْ كانُون الثّاني تاريخُ إعْدام (جرونر)، وقد فوجئ الجميعُ عدا الإرجونِ بتأجيل الحكم بالْتماس! الْتماسٌ لم يَطلبْه جرونر! وفي الثلاثين من الشهر الأول أُطلق سراح الرائد (كولينز) وهو مريض، وبسبب رشّه بكميةٍ كبيرة من المخدّر أصبح يعاني من مرضٍ صدريّ، وأمضاها يَدخل ويَخرج من المستشفى إلى وفاته عام 1960م بعُمرِ أربعة وستين عامًا. وبعد إطلاق سراحه طَلب منه المستشفى المدني الحكومي في القدس أن يدفع فاتورة قيمتها سبعة عشر (باوند)، ولم يَحصل على أي تعويض، وزوجُه السيدةُ (إيرين كولينز) لم تستلم راتبَ تقاعد!*8

وَببُروز موضُوع الرَّهائن، أصبح ضرُوريًا إرْجاعُ بَعْض الأشْخاص غَيْر المحصَّنين الذينَ قد يُختَطفون رَهَائنَ إلى بريطانيا، وقد نُقل ثلاثة آلاف شخص -ومنهم أزواجُ ضباطٍ ونساءُ خدمة التطوع النسائية- إلى بريطانيا، واختار بعض أزواج رجال شرطة فلسطين البقاء، وطُلب من مُشغّلي الهواتف أن يبقَوْا في مقسم هاتف القيادة، لكن (إيرين لويس) اختارت الرجوعَ بسبب ما حدث في فندق الملك داود.

وبأَحْداث العَام 1946م وبالتَّوجُّهات القتاليَّة للعصابات اليَهُوديَّة الإرْهَابيَّة، وبتَعَاوُن اليهود والصهاينة في العالم كله؛ تَنبه الملك ابنُ سعود لذلك وكانَ قلقًا جدًّا من دعم الأمريكان الإرهابَ اليهودي والهجرة، وبَيّن وجهة نظره في رسالةٍ للرئيس (ترومان) في السادس والعشرين من تشرين الثاني 1946م.

لقدْ أَخْفى لُطْفُ الملك قُوّةَ مَشاعره، وضَاعَتْ كلمَاتُهُ مَعَ رئيس له مَوْقفٌ سابق. أمّا مشاعرُ وحقوق الناس هناك فنُحّيَتْ جانبًا! وقد وضّحتْ رسالةُ الملك الحقائقَ الصادقة المتفق عليها:

«لقدْ تَبَنَّتْ بريطانيا إعْلانَ بلفور، وبقُوَّتها طَبّقَتْ سياسَةَ قَبُول اليَهُود في فلسطين، وبما يناقض المبادئ الإنسانية والديمقراطية كلَّها!». لقدْ وَقَفَتْ بريطانيا وحيدةً ضدَّ النّازيّ، وأَخْبرَتْ العَرَبَ كلَّهم أَنَّها لنْ تَخونَ مبادئَ الديمقراطية والإنسانية. لقد كشف الحيرةَ والظروف الحالية الصعبة: «الحكومةُ البريطانية مَنْ أعطت، وما زالت الملجأَ لقادتهم (اليهود)، وعاملتْهم بكلّ لطف واهتمام، ورغم هذا كله؛ ما زالت القوات البريطانية في فلسطين تتعرض لنار الصهاينة ليلاً ونهارًا، وقادةُ اليهود غيرُ قادرين على منع هجماتهم الإرهابية! والحكومةُ البريطانية (فاعل الخيْر لليهود)! ورغم كلّ الوسائل التي بوسعها؛ لم تستطعْ منْع الإرهاب اليهودي، فكيف سيشعر العربُ بالأمان أو يثقون باليهود الآن أو في المستقبل!»*9.

المراجع:

1 - ما لم يذكر غير ذلك، معظم المعلومات اقتبست من (مثلث فلسطين)، نيكولاس بيثيل، أندري ديتش ليميتد. 1979

2 - سي أو 733، 461 مقتبس من (مثلث فلسطين)

3 - جريدة فلسطين 23 حزيران /1944

4 -جريدة فلسطين نيسان 23/1944

5 - جريدة فلسطين أيار 3/1944

6- أيام الانتداب

7 - التطويق والبحث، الرائد أر. دير ويلسون، جيل وبولدن 1949

8 - مراسلات من السيدة يرين كولينس، 2001

9 - العربية تتحد.

5. لم تكن تلك الأهداف سهلة

الجُنودُ الذينَ وصلوا إلى فلسطين منذ العام 1946م وما يليه حديثو عهدٍ بالخدمة العسكرية، وحتمًا هذه أولُ مرة يَخرجون فيها من المملكة المتحدة.

ولمْ يَكنْ رجالُ سلاح عتاد الجيْش الملكيّ ومُهنْدسو الكهْربائيّات والآليات الملكيون (REME) معتادين على النُّظم الصارمة لكتائب جنْد المشاة والكتائب المحمولة جوًّا، وكانت خدمتُهم وراءَ البحار أطْوَلَ عمومًا، وكانوا يعيشون في قواعدَ دائمة بإقامة دائمة، ويعملون في مستودعات وورشاتِ عملٍ بُنيتْ من الطوب جنْبًا إلى جنْب مع المدنيين.

وكان متوقَّعًا أن يعيش جنودُ المشاة وسلاحِ المظليين في خيَم، وكان متوقعًا أيضًا أن يغيّروا مواقعهم مرارًا.

كانَتْ للجيْش البريطانيّ في فلسْطينَ غايتان: حفْظ السلام، وحفظُ خدمات الدعم للوحدات كلها وليس لمَن في فلسطين حصرًا. وكانت مناطق أخرى عديدةٌ مشحونةً بالتوتر في السنوات التي تبعت الحرب مباشرةً.

وثمة خطرُ الاشْتباك بروسيا وأعْضاءٍ في التَّكتُّل الشيوعيّ. والمسْتوْدعاتُ التي كانت تزوّد روسيا بالذخيرة من العراق في الحرب تستطيع تزويد القوات التي تقاوم غزوَ روسيا الشرقَ الأوسط.

لِكُلّ مُجَنَّد ستةُ أسابيع تدريباتٍ أَساسية ليَعرفَ قليلاً منْ كُلّ شَيْء ويَقْدرَ على فعْله، كما تفيد أيضًا في فرز المجنّدين، فمَن يناسب للالتحاق بكتائب المشاة يُرسل إليها، ويجب أن يكونوا جسميًّا مناسبين، وعليهم أن يُظهروا كفاءةً في التدرب على الأسلحة ويَتقبّلوا الانضباط العسكري، وهؤلاء الذين يَلتحقون بسلاح عتاد الجيش الملكي والمهندسون الكهربائيون والميكانيكيون الملكيون اختيروا لكفاءتهم على القيام بالأدوار التي ربّما يُعيَّنونَ لها.. وقد تراعى بَعْضُ الاعْتبارات لوَظائفهم المَدَنيّة؛ فأنا، مثلاً، كنتُ طالبَ فنّ إلى سنّ السّابعةَ عشرة،

وبعد ذلك حين جُنّدتُ حَصلتُ على وظيفة في دكان ملابس الرجال، وقد أراحني تجاهلُهم تدريبي في مجال الفن، فلولاه لربما عُيّنتُ رسّامًا أُمَوّه البنايات والعربات. كان تدريبي على السلاح في مدرسة الكتّاب ورجال مخازن سلاح عتاد الجيش الملكي في مدينة (بورتسموث)، وفي الحقيقة ما كنتُ غالبًا أستطيع إصابة الهدف بالبندقية رغم محاولاتي العديدة ومعاقبتي، لأنني لم أستطع أن أضع قلبي وعقلي في موضع استخدام الحَرْبَة المُزيّفة، وربما يؤثر هذا على قرار الذين يختارون الحراب الزائفة. قليلٌ منّا كانوا يختارون للخدمة في سلاح عتاد الجيش الملكي لأنهم لم يكونوا جسميًّا ولا طبيًّا مناسبين لسلاح المشاة، فـ(جيس براين) رفيقي في الكوخ في مستودع عتاد الجيش الملكي (614) لا يرى بعيدًا بعينه اليمنى، و(والي سالت) كان له عينٌ واحدة. وكان التدريب على السلاح يَستمرّ أربعةَ أسابيع ثم يصبح كلّ واحد منا إما كاتبًا واما رجل مخزن أو واجبات عامّة.

وكانَت أغلبيّة قوّات سلاح عتاد الجيش الملكي تُرسَل إلى المخازن الكبيرة، ورجالُ سلاح مهندسي الكهربائيات والآليات(REME) يُرسلون إلى الورش الأساسية، لكن بعضهم عُينوا في ميادين الذخيرة، والورشاتُ الميدانية ألحقت بكتائب حفظ السلام. وقد عاشوا في معسكراتٍ معظمُها خيام، كما يَفعل جنود المشاة.

وفي نهاية الأمر، سارت الأمورُ كما يجب. سلاحُ مُهَنْدسي الكهْربائيات والآليات وسلاحُ عتاد الجيش الملكي، وسلاحُ خدمات الجيش الملكي أيضًا؛ كان لديهم حصصٌ تدريبية عسكرية أقلّ من الكتائب المقاتلة، وفي حالِ لم يكونوا في عمل عسكري يَستمرّونَ في التدريب.

نِظامُنا كانَ أكْثرَ راحةً فَلَمْ يَكنْ كالكتائبِ المُقاتلَة.

وقدْ ضَرَبَ (جيس) -الذي كانَ عريفًا في العتاد ولهُ ارْتباطٌ بتوْزيع البطّانيّات على مُلْحَق حُرّاس البُخار البارد أيْضًا- مثالاً جيدًا للفرق في عمله غير المنشور عن حياة الجيش: كتب عن عودته إلى الوطن حينما كان ينتظر في معسكر النقل بـ(فايد) في مصر:

«الحارسُ الأوّلُ خَتَمَ على طاولتي، ثمّ وَقفَ مُتَهَيّئا، ثمّ سألتُه ليكتُب اسْمَهُ ورُتْبَتَهُ ورَقَمَهُ على الحافظة، ثم يُوقّع على استلام البطانية. قال بصوت عال: «نعم يا أيها العريف»، وعندما أُعطي أغطيتَه أخذها وخطا إلى الخلف خطوات أنيقةً ثم دار لليسار بشكلٍ أنيق أيضًا ثم سار..! لقد فَعل كل شيء إلّا تحيتي. جلستُ هناك قائلاً لنفسي: «مهلاً مهلاً مهلاً! هذا أنا، (جيس أوبراين)! لا تَعملَ هذه الأشياء لي!»، وفي آخرها أُصبت بألم رأس.. وأَسوأُ ما حدثَ عندما أعادوا البطانيات اللعينة في اليوم الثاني».

إنَّ تَدْريبَ المُشاة المُتَواصلَ لا يُحَسّنُ الانْضباطَ والمَهارات العَسْكريَّةَ فَقَطْ، بلْ يُحافظُ أيْضًا على الحماس والثقة بالنفس، وقد أَثبت (فان جون هاردويك) ذلك بالحادث الآتي:

في فَتْرَة ما بَعْدَ إعْلان بريطانيا نيَّتَها مُغادَرَةَ فلسْطين، سُحبت قُوّاتُ الشُّرطة العَربيّة الإضافيّة التي تعمل في مستودع (614)، ولم يَكونوا جزءًا من الفيلق العربي، وقد اتُّخذ القرارُ إجراءً أمنيًّا في ضوء اشتباكات اليهود والعرب التي يصعب جدًّا تجنبها، فاستُدعي جنودُ المشاة المسؤولون عن الأمن في النهار إلى مناطقهم، وعُدَّ ضروريًّا تأليفُ قوةٍ دفاع مستعجلة لتَحلّ محلّهم. كُلف الملازم (بونسيفوت) وهو ضابط مشاة مرتبط بالمستودع، واختير الرقيب (جون هاردويك) قائدًا للكتيبة. تلقى (جون) التدريب الأولي ذاتَه الذي تلقاه أعضاءُ سلاح عتاد الجيش الملكي جميعُهم؛ وكان تدريبًا أساسيًّا مدّتُه ستة أسابيع، فضلاً عن أربعة أسابيع للتدريب على السلاح، وكان مَن في مثل حال (جون) يتلقى تدريبات على الأعمال المكتبية في سلاح عتاد الجيش الملكي، لكنه لم يرحّبْ بالفكرة واعترض. تجاهلَ (بونسفوت) تردّدَ (جون) بقوله: «سوف نتقابل!»، وكان الضباط يَميلون لاستخدام الضمير «نحن» وهم يقصدون «أنتَ».

وأمّا سَبَبُ اخْتياره لـ(جون) فسجلُّه في العمل قبل الخدمة، فقد كان في مدْرَسَة القَواعد والنَّحْو، وحينما كانت كتيبته في بداياتها كانتْ واجباتُه أن يساعد في

التدريب وإعداد قسم متنقّل.. لقد نَظر (جون) إلى الموضوع بتخوّف:

«كانَ القسْمُ مُجَهَّزًا بسَيّارة مُدَرَّعَة، وقدْ أُعيدَتْ إلى المُسْتوْدَع لاحْتوائها مدْفعًا ثُنائيَّ الفُوّهة غير صالح للاستخدام. وكانت السيارةُ الثانية شاحنة (15 سي دبليو تي). وخُصص ما بين خمسة عشر رجلاً وعشرين، لكل قسم (لا يتذكر «جون» الرقم الدقيق)، وخُصصتْ لكلٌ منهم بندقيةٌ بذخيرتها.

كما كانَ يمكنني الحصولُ على (استيرلينج) -وهو مدْفَعُ رَشّاش- إذا احْتجْتُ إلى أحدها. لقد كان هنالك «تدريباتٌ» ظهْر الأربعاء: بعضها على الأسلحة ذات الصلة بمجال العمل، وبعضها لسيْر المواكب في الميدان.

كُنْتُ أَتمنّى ألّا يَهْجمَ (العدوّ)، لأنّني شَعَرْتُ بأنْ لا جُنْديَّ حَقيقيًّا بيْنَنا. وفي الواقع، لقدْ أظهرْنا فرقتنا في برنامج «ساخنة يا أمي»، وهو مسلسل تلفزيوني عرضتْه الـ(ب . ب. سي..) مثل القوة الجوية الخاصة (SAS) المعروفة في الحرب العالمية الثانية!

ازْدادَ خَوْفي بتَعْيينيَ قائدًا للحَرَس. وفيما بعدُ في إحْدى اللّيالي، قَرَأْتُ تَعْميمًا مُتَشَدّدًا أُرسل إلى القيادة ذُكرت فيه تفاصيل عن تدريباتِ (الهاجاناه بالماخ) وقدراتها وقسوتها! في الحقيقة، لقد كان من الممكن أن يكون تدريبنا أفضلَ لو دُرّبنا من قِبَلهم». ولم يُعْفَ (جون) -لأنه أصبح قائد كتيبة- من واجبات الحراسة ليلةً بعدَ ليلة، ولا من واجباته في المستودع.

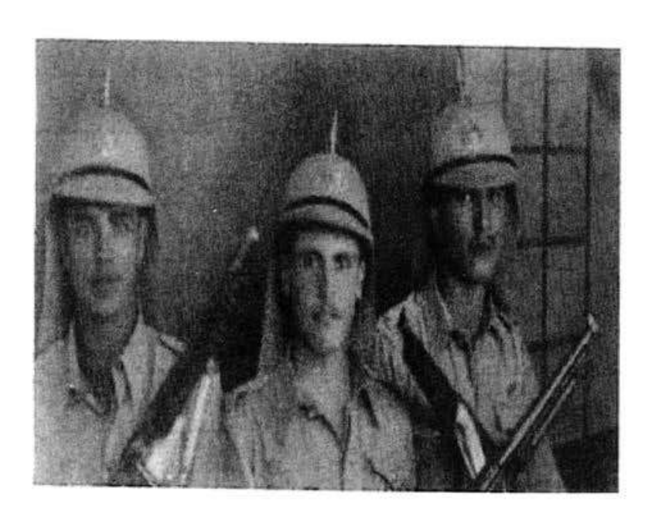
ورغْم تَدنّي مُسْتوى تدْريب وخبْرة المُجَنَّدينَ البالغينَ ثَمانيةَ عَشَرَ عامًا، الذين عَملُوا في المستودعات وورشات العمل؛ لم يَكونوا أهدافًا سهلةً للإرهابيين، وقد احتوتْ كلُّ منشأة عديدًا من العناصر العسكرية القيمة والجذابة التي ستكون مفيدةً للعصابات الإرهابية التي تَأمل أن تَخلق جيشًا حقيقيًّا، وكان أكبرَ مستودع في فلسطين مستودعُ العتاد المتقدم (614) الذي عُدّ حتى العام 1946م مستودعَ العتاد الأساسي (2). وقد تمّ تلاشي تلك المؤسسة العسكرية لمّا انتقل مسرحُ الحرب من الشرق الأوسط عام 1943م.

أظهرَ تدقيقُ القوى العاملَة الذي أُجريَ في السابع عشر من أيلول (سبتمبر) 1943م أنّ إجْماليَّ عَدَد العسكريين خمسمئة وتسعة عشر، منهم ثلاثمئة وخمسة وعشرون أتَوا من المملكة المتحدة. وكانت القوى العسكرية البريطانية تُوزَّع على النحو الآتي: تسعة عشر ضابطًا، وواحد وتسعون ضابطَ صف (رُتَب فما فوق)، ومئتان وخمسة عشر عريفًا ورقيبًا، ومئة وتسعون فردًا وحِرفيًّا. هل كانوا رؤساءَ أكثرَ منهم شجعانًا؟ ليس بالضرورة. وكان هناك أيضًا مئة وواحد وثمانون جنديًّا غير بريطاني مع شاويش واحد واثني عشر عريفًا لتكميل العدد خمسمئة وتسعة عشر، ومئتان وثلاثة وعشرون مدنيًّا أيضًا. ربما يكون هذا العدد الأقلّ، وربما يكون أعلى قليلاً في 1947م، وأقلّ من القوات غير البريطانية. يبلغ طولُ السياج المحيط الذي سُيِّرَتْ دورياتٌ ليليةٌ حوله حوالي ثلاثة كيلو مترات. وكان ثمة سبع بوابات إلى داخل المستودع؛ أربعٌ منها لخدمة السكك الحديدية من جانبَيْن على خطِّ القاهرة الرئيس إلى خط حيفا الذي كان يَمتد على طول حدود المستودع الغربية.

ويَبْلغُ طُولُ المَسارات الثّلاثَة دَاخلَ المَحَطّة حوالي ثلاثة كيلو مترات (98604 أقْدام) وكانَ دَوْرُ العامل العربي أن يَجرّ العربة حول المستودع. وقد تخلّصت العمالةُ المدنية العربية من العربات الموجودة حول المستودع. وتزيد مساحة أكواخه المبنية من الطوب على مئتي ألف قدم مربَّع، ومنها خمسة آلاف وخمسمئة وستة وثلاثون قدمًا من ترسانة الأسلحة، بل كان هناك منطقةٌ أكبرُ تتكون من مادة الإسمنت الصلب للتخزين الخارجي.

(تشارلز إدواردز) الضّابطُ المَسْؤولُ السّابقُ عن مخْزن شاطئ الخيّاط الفرْعيّ، عادَ إلى حيْفا في هذه السنوات؛ إلى مخزن ذخيرة الجيش (614) فيما كان يسمى فلسطين التي يسمونها الآن (إسرائيل)! والمستودعُ ما يزال قائمًا، وقد

جعله الجيش الإسرائيلي منشأةً مهمة له، لكنه ظاهريًا لم يَبق بالنظافة نفسها التي كان عليها وهو مستودعٌ إنجليزي؛ فقد ذهبت الحجارة المدهونة بالأبيض، وعلامةُ النقش قلّ بروزها، واستُبدلَ بشرطيّ البوابة الأنيق جنديٌّ إسرائيلي بلا قبعة، وبلباسٍ غير مرتّب يَتسكّع على بوابة السياج الخارجي حاملاً مخلّفات طعامٍ ومشروبات الطلب الخارجي!





—من اليسار ثلاثةُ أعْضاء أذكياء، ولكن شبابًا من الفيلق العربي الذين كانوا يَحرسونَ المستودعَ الفرعي في شاطئ الخياط كانوا حازمين أكثر منا (المؤلّف).

—ومن اليمين: (كين باركر) وكلبُه الجندي الأول (جودي). الصورة من: (ايريك كوك)، و(كين باركر).

لقدْ وَصَلَ (كين باركر) في كانون الثّاني منَ العام 1946م من تلّ الكبير معَ تسعين شخصًا آخرَ والمستودعُ ما يزال مستودعَ الذخيرة الأساسي (2).

وكانَ (كين) مُحارِبًا قَديمًا من مقاتلي (النورمندي)، وقدْ شُرحتْ له، هو وخَمْسٌ آخرون، تفاصيلُ عن تَجمّع السيارات: أربعُ عربات مدرّعة غيرُ صالحة للخدمة، لكن الضابط المسؤول قرر أنها صالحة بما يكفي لحراسة المستودع:

اثنتان من نوع (سكاوت)، والأُخرَيان من (فورد) من جنوب أفريقيا. وقد وصف (كين) (الفورد) في مذكراته: «بهائمُ ثقيلة وغالية، ولها بوابة مجهزة، وتَسارعُها من صفر إلى ستين في ثلاثة أسابيع، وكان عليها بندقيةٌ بفوّهتَيّ مدفع مُمَوَّه كطوبة مخروقة، وهناك قاعدةُ تثبيت لرشاشِ (لويس) الذي لم يكن لدينا منه ولم نُدرَّب عليه ألبتة، وكان لديهم تَصفيحٌ دروع بحجم إنش واحد، وكشّافٌ مثبت على السقف». وفي كل يوم عملٍ تَحرس إحدى السيارات المدرعة وسيارةُ (فورد) موكبَ ما يقارب مئتين وخَمسين جنديًا يأتون إلى المستودع من معسكر (153) من الجانب الآخر لطريق الشاطئ للعمل الساعةَ الثامنة صباحًا.

فَضّلَ (كيم) قيادةَ سَيّارة الاسْتطْلاع (الهمر)، يقول: «سيّاراتُ الاسْتطْلاع (الهمر) كانت أخفّ. والتصفيح المدرَّع بحجم إنْشٍ واحد مربَّع كاف في ذلك الظرف، لأن الإرهابيين لم يكن لديهم أسلحةٌ ثقيلة، وكان البرج مركّبًا مع قاعدة لرشاش (البرن) ذي الذخيرة، وكنا جميعًا مدرَّبين عليه، وكان للسيارات كشافٌ مركّبٌ على السطح».

كانت السّيّارتان تَحْرسان القوّات بين المُعسْكر والمُسْتوْدع مَرّتين في اليوم، ولاسْتراحة الغداء ساعتان، لكنْ إنْ لم يكن على السائقينَ عملٌ فقد تمتد سبع ساعات. وكان وصولُ شاحنة معهد القوة الجوية والجيش والقوة البحرية في منتصف الصباح استراحةً مُرحَّبًا بها، وقد جاء العمال العرب الذين اختلطوا بالجنود وشربوا الشاي واستمتعوا بالـ(بسكويت) ولكنهم رفضوا أكلَ النقانق.

السّائقان اللذينَ كانا مُجازيْن عليهما أنْ يَقوما بدَوْريّة حَوْلَ مُحيط المُسْتوْدع بسيّارات (الهامر) المصفّحة؛ أحدُهما يحمل بندقيةَ (برين)، ورجلٌ آخر من مرتبات حرس المستودعَ يَجلس على البرج مشغّلاً الكشافَ وبندقية (البرين).

وعلى بُعْد ثلاثة أمْيال شَمالاً يَقَعُ المُسْتوْدعُ الفرْعيّ على شاطئ الخَيّاط الذي كانَ يَخضع لجولة الضابط الليلية التفقدية. ثم يُكمل (كين) كلامه: «طريقه كانت تتضمن حرّاس معسكر (153) والمستودع الرئيسي والفرعي على شاطئ الخَياط. وسوف يعود إلى منزل الحراس في المستودع الرئيس ليَجول جولةً

بالسيارة حول محيط المستودع الرئيسي والفرعي. وفي العام 1946م كان الفيلق العربي يَقوم بحراسة المستودع الفرعي ليلاً ونهارًا. كانوا جنودًا جيدين وحرّاسًا يقظين، وجميعُهم متطوعون، وقد تدربوا على عدم التردد بإطلاق النار إذا تَطلب الأمر، بخلاف المجندين الإنجليزين الممنوعين من ذلك رسميًا في الأحوال كلها، فقد كان مشكوكًا في أن يضعوا أنفسهم في موقف يُلزمهم إطلاق النار. لقد كان سلوكًا معتادًا أن يَسير الضابط المناوب بالسيارة المصفحة ثلاثةَ أميال طيلة الطريق الساحلي مع سماح الحراس العرب له بدخول مجمع شاطئ الخياط ليُقابِل مأمور الحرس وهو شاويشٌ عربي. وكان الشاويش يَركب العربة ويُرافقهم حتى مواقع الخفير، وعلى الحراس أن يسمحوا لهم بالمرور إذا كَرّروا كلمة السرّ بالعربية. لقد صَمموا نظامًا جيدًا يَعمل جيّدًا. ولمّا حَل مرتَّبُ سلاح عتاد الجيش الملكي محلّ رجال الفيلق العربي لم يكونوا جيدين مثلهم».

وذَكَرَ (كيم) في مُذكّراته كيفَ كانَ رجالُ الفيْلق العَربيّ جَيّدينَ عنْدَما كانَ يَقودُ الضّابطَ المُناوبَ في جَوْلاته:

«كنتُ أقودُ السّيّارةَ إلى المسْتوْدع فَتوَقَّفْتُ داخلَ البَوّابة مُنْتظرًا قائدَ الحَرَس. سَألَني الضابط الواقف على المقعد بجانبي -ومعظم جسده خارج السيارة- بتكبّر: «لماذا تَوقفنا هنا؟» ضاربًا شرحي له عرضَ الحائط، وأَمَرني أن أستمر بالسير. حاولتُ أن أشرح له الإجراءات لكنه لم يَستمع! فَسرتُ ببطء واضعًا عينيَّ على الخفير أمامي، وبسبب صوت المحرك لم أسمع أيَّ تحديات أو ما شابه، لكنني عندما رأيت الخفير يَسحب بندقيته للأعلى في موضع إطلاق النار تجاهلتُ كل شيء ثم أوقفتُ العربة المصفحة والضابطُ يَسقط بجانبي على الكرسي. في البداية ظننتُه أصيب، لكنني بعدئذ أدركتُ أنه رأى الخفير أيضًا يوشك أن يطلق النار، فرأى أن التعقل أفضلُ من الشجاعة. أمّا أنا فلم أكن في خطر لأني كنت محاطًا بصفيحة مُصَفَّحَة، ولكن الضابط ورجل الرشاش في البرْج كانا في مكان غير حصين.

على كلٍّ، ظَهَرَ رقيبُ الحرس وتَسَلَّقَ على غطاء مُحرِّك العربة المُصفّحة. أكملْنا دَوْريَّتَنا بالطريقة الاعتيادية ثم عدنا إلى المستودع مع ضابط مقهور».

وفي العام 1947م كانَ الرِّجالُ الذينَ يَقومونَ بالواجبات في المسْتوْدع نهارًا يَقومونَ بها ليلاً أيضًا، وكلَّ ليلة يقوم بحراسة المستودع سبعة وثلاثون حارسًا فضلاً عن قائد الحرس، ويوميًّا كانت جولات الحراسة بين الساعتين (18:30) و(5:30)، وكان الاستيقاظ على الساعة السادسة والفطورُ بين السادسة وخمس عشرة دقيقة والسابعة، وطابورُ الصباح في السابعة وخمس عشرة دقيقة، أمّا جنود الحراسة فيلتحقون بالطابور الساعة السابعة وخمسًا وأربعين دقيقة في وقت السَّيْر العسكري من ساحة المواكب إلى معسكر (153) ثم إلى المستودع.

مُعسْكرُ (153) أكْثرُ المُعسْكرات مُتْعَةً في فلسطين، وقدْ بُنيَ عامَ 1942م حينَما كانَ السلام سائدًا فيها كثيرًا، ومِثْل المستودع بُني لاستخدام للجيش على الدوام. وكانت المساكن المبنية من الطوب (الأكواخ) في بستانِ زيتون قديم أسفلَ جبال الكرمل، والمعسكرُ قائم فوق فدّانات عديدة، ومِن ربيع 1947م صار فيه (سينما)، وهناك محطة لاستقبال الإصابات ومكتبةٌ ودكاكين. وكانَ لشخصٍ عربي من المنطقة بستانٌ صغيرٌ من الخيار الصغير، يُمْضي يومَه في سقي العنب بجلْب الماء بجرارٍ فخارية على حماره إلى أعلى البستان ثم يروي المزروعات. وكلّ زيتونة حوْلها كومٌ من الحجارة، وكانت هذه الحجارة تَجذب الضبابَ الكثيف في الليل؛ يَتكثّف هناك ثم يَنزل الماء إلى الجذور، وكانت هذه الأكوام أيضًا بيوتًا للسحالي والأفاعي والعقارب وغيرها من الحشرات. لم تكن بِنية المعسكر قادرةً على مواجهة أحقاد الإرهابيين وغدرهم في فلسطين ما بعد الحرب، فقد كان يحيط سياجَه الخارجيّ ثلاثُ لفّات من الأسلاك الشائكة التي لا يُعَوَّل عليها، فكان التسلل يسيرًا خروجًا ودخولاً! وكلَّ ليلة يَذهب قائد الحرس برفقة اثني عشرَ حارسًا وضابطِ صفّ بديلٍ إلى معسكر الحرس. كان الحراس يُوضَعون على نقاط إستراتيجية: رجلٌ في مكان الخفير على البوابة، وآخرُ على رشاش البرين داخلَ البوابة بضعَ يَاردَات، ورجلان على المدرّعة منتصف المعسْكر، ورجلٌ على

نقطة محيط المعسكر قربَ خطوط الضابط. ولكنْ في أوقات الإنذار العالي -كما حدثَ في نيسان 1947م بعد إعدام (مدوف جرونر) - زيدَ عددُ الحرس عشرةً مع قائدٍ للحرس وضابطِ صفٍّ بديل.

كانَ مستودعُ شاطئ الخياط الفرعيُّ وحدةَ مخازنَ مدمجة في شارع السّاحل الرئيس بينَ المستودع وحيفا، وفيه تسعةُ حراس وقائدُ حرس وضابطُ صف بديل.

وكانَ أحدُ الرِّجال يَقفُ على البوّابة الرّئيسة دائمةِ الإغلاق شديدةِ الارتفاع، والآخرون يقومون بدورية حول المستودع والركامُ كثيرٌ والمخازنُ مترابطة على أساسات صلبة. لا أسلحةَ في المستودع الفرعي عدا التي يأتي بها الحراس أو الشرطة العسكرية، الذين يؤدون واجب الحراسة في النهار. كانت غرفةُ الحراسة قريبة من الأسلاك الخارجية، وفيها تُسلَّم الرواتبُ للرتب العسكرية. يومَ الخميس كانوا يَصفّون في طابور صرْف الرواتب، وحاملوا السلاح يضعونه على رفٍّ في الغرفة المجاورة، حتى إن كان طابور الصرف العسكري قليلَ الرجال؛ فقد كان يتم بمراسمَ طويلة جدًّا: تُنادى الأسماءُ بصوتٍ عالٍ اسمًا اسمًا، والذين سيَستلمون يمشون مِشيةً عسكرية إلى طاولة ضابط الصّرف؛ يُلقُون التحيةَ وعريفُ الصرف يصرّح بالمبلغ الذي سيُدفع والحسومات. يَعُدُّ الضابطُ المبلغ بصوتٍ عالٍ ثم يعطيه للعسكري الذي يخطو إلى الخلف. يلقي التحيةَ مرةً أخرى ويستدير نحوَ اليسار بشكلٍ أنيق ثم يَمضي.

وبالمناسبة (مناسبة استلام الرّواتب)، لمّا ذَهَبَ الذينَ تَركوا بنادقَهم لإرجاعها وَجَدُوها مفقودة! والسلسلة التي رُبطت بها في الرفوف قُطعت؛ وثمة فتحة في ظهر الحائط وأخرى في الأسلاك... كلّ هذا حدث على بعد ثلاث يَاردَاتٍ أو أربعة بعيدًا عن طاولة ضابط الصرف! استدعي محققُ الجيش الخاصّ، ولكنْ لمْ يُقبض على أحد، وقد اشتُبه بأن موظفًا في المستودع وَسّع طوب غرفة الحرس من الخلف.

مدَةَ القتال في 1948-1945م عُدَّتْ تلّ أبيب بقْعةً ملتهبة للإرهاب، ومعْظمُ المدينة خارج الحدود، لكن ورشات معرض الشرق لم تهاجَم قطاً لقد خَدم القائد (بات ولر) هناك في الحرب، ولما عاد إلى بريطانيا سئل عن رغبته في العودة إلى هناك فترة قصيرة فوافق لأنه استمتع بالتعيين الأول، لكنه عاد إلى فلسطين مرة أخرى؛ فلسطين التفجيرات والقتل؛ لقد ظَنّ أنّ سبب عدم تعرّض المعامل إلى الهجوم هو المعايير الأمنية الفعالة هناك.

تَقَعُ صرفند جنوب تل أبيب، لكنّها لا تَظْهَرُ إلّا في عدد قليل من الخرائط! لمْ تَكنْ مدينة مدنية، ولكنّها مدينة. هي ليست أكثر من مجمع خشبيّ بناه الجيش قبل الحرب وخلالها.. وما كان يسمى مستودعَ ذخيرة الجيش الملكي ما يزال يَعمل بعد الحرب لكنْ تحت مسمّى (معامل 309). وكلّ وحدة في الحامية كانت محمية ما خلا أجزاءً غير حصينة في المنطقة العسكرية. مجموعة من مستودع عتاد الجيش (614) كانت في ملحقٍ لإدارة المخازن وقطع الغيار وتخزينها للمعامل.. وفي المحمية (سينما) لها ذكرى محزنة لـ(هارولد برومي درابر): لقد قرر (جاك موس) و(ألان إيج إيجرتون) و(برومي) أن يشاهدوا فيها فلم (آلجولسن).. وفي أثناء المشاهدة فَجّر (إيجي) لُغمًا فجُرح جرحًا بليغًا..! عملٌ شريرٌ حقير من شخص مُخزٍ! لم يَخدم أيّ هدف للقضية اليهودية.

لم تَكُنْ على (برومي) -رغمَ عَمَله في المسْتوْدع الفرعيّ في صرفند- واجباتُ حراسة من أي نوع، ومَن كانوا يقومون بواجب الحراسة أعضاءٌ من قوة حدود إمارة شرق الأردن، وهي قسم من الفيلق العربي يقوم بواجب الحراسة.. وفي أواخر 1947م نُقل (برومير) مرةً أخرى إلى مستودع ذخيرة الجيش وعاد إلى وظائف الحراسة كلَّ ليلة.

كانَ أَمْنُ مُسْتوْدعات سلاح عتاد الجيْش الملكيّ ومعاملِ سلاح الميكانيكيين والكهربائيين الملكي (REME) في العام 1947م ممتازًا، بفضل النظامِ الفعال ثمّ لكونِ الجنود مدرَّبين جيدًا وذوي مهارات عالية.

(ليون أوريس)، وهو مُؤلِّفٌ أمريكيٌّ ضدّ الإنجليز، ألّفَ كتبًا عن الجيش البريطانيّ في فلسطين وفي إيرلندا الشمالية، وفي كتابه (الَملحمة) وَصف وضْع فلسطين بأنه مئة ألف جندي إنجليزي انفصالي وقعوا في خليج بأيدي مقاتلين من أجل الحرية ومحترفين. ومِن عنوان الكتاب ونمط كتابته يأمل أن يُخرِج ملحمةً ترافق الكتابَ المقدس ألف سنة! وربما يَكون قراءة جيدة لمؤيدي الصهاينة، ولكنه بعيد جدًّا عن الحقيقة.

لمْ يَكنْ جزءٌ كبيرٌ من الجيْش الإنجليزيّ هُناكَ لُطاردة الإرْهابيّينَ أو الفصْل بيْنَ الأعمال الحربية، بل للخدمة أمناءَ مخازنَ ومصلّحين ومُوزّعين وجامعي أسلحة وخردوات ومعدات للجيش في جبهة البحر المتوسط.

جهدُهم الأكْبرُ ذهبَ لإرْجاع الموادّ الفائضة إلى المَلكة المتّحدة.

حتّى آخِر العام 1945م، كان مُستوى الإجْراءات الأمنيّة مُخْتلفًا عمّا كانَت عليْه المنشآت العسكرية في المملكة المتحدة، ولكنْ عقبَ هذا العام أصبحت الإجراءات الأمنية أكثرَ تشددًا لدرجة أن رئيس بلدية القدس الشرقية (تيدي كوليك) قال ساخرًا من (جون برايْنس) كبيرِ رجال الشرطة في حينه، الذي دافع عن اليهود ضد العرب لغاية العام 1939م: «مبارك، لقد نجحتُم أخيرًا في تجميع أنفسكم».*2

وعلى الرّغم منْ عدم التّصْريح للجنود بأنْ يوجدوا في أماكن عديدة: كانوا يتجمعون بأسلحتهم في مقاهي وبارات الأماكن المسموح بها، وكان مما يعيق الجنودَ أنْ يَذهبوا إلى البلدة حاملين بنادقَهم الُلقَّمة بخمس طلقات نارية فقط، ولذلك تَحركتْ عرباتهم بشكل مزدوج وبمُرافقٍ مسلّح يَجلس بجانب السائق، وهذا ما أَطلق عليه الجنود اسمَ «ركوب شوتغن»، والبنادقُ التي يَحملها المرافقون من نوع (ستن)؛ وهي بندقيةٌ آلية خفيفة مزودة بمخزنٍ سعته ثمان وعشرون طلقةً يُمكن إطلاقها جميعًا في أقلَّ من دقيقة.

اكْتَسَبَت البنْدقيّةُ اسْمَها من اسْمَيْ مُخْتَرِعَيْها (شيبرد) و(تيبربن)، وقيل لنا أنّها قليلة الثمن، لا تتجاوز سبعة عشر شلنًا وستة قروش، وقد يكون هذا سببَ تعطلها المستمر.

في وسط المُعسْكر رقم (153) مُدرّعةٌ مُحاطة بأسْلاك شائكة مَطْمورة في الأرْض ويعلوها التراب، استُخدمت ملجأً في سنوات الحرب السابقة، وقد حرستُها في إحدى الليالي برفقة جندي يدعى (سكاوس ماك كاردل) رُشِّح للعمل معنا في دورية منتصف الليل، وكان متمردًا فسُجن مرات عديدة.. ولأنه شخص لا يجادَل قَرر أن يَحملَ هو رشاشَ (الستن) ويقومَ بأعمال الدورية حول المبنى، وأما أنا فأَحمل البندقيةَ وأحرس المدرّعة.

اعتادَ رقيبُ السَّريَّة (كوكرام) بعدَ مُغادَرته قاعةَ طعام الجُنود أنْ يَتجول حوْلَ المعسكر ليتفقد الخفارات، وقد فَطِن رفيقي في الحراسة (مكارديل) لأساليب تلاعبه فنَبّهني قائلاً: «إذا طَلب منك تَفقّد بندقيتك فدعْه»؛ وقد فَهمتُ من ذلك أن أسمح له بأخذها وتفقدها رغم مخالفته التعليمات. وبعد اختفاء (مكارديل) عن ناظري، وكما كان متوقّعًا، جاءني الرقيب وكان ودودًا... تبادلنا التحية ثم طلب البندقية فسلمتُها له بتردّد.. وفي هذه اللحظة تَغيّر مزاجُه.

وقال لي مُنْتَشيًا مُصَوّبًا البنْدقيّةَ نَحْوي: «الآنَ ماذا سَتَفْعَلُ لوْ كُنتُ إرْهابيًّا؟!» وقبْلَ أنْ أتمكّن من الإجابة ظهر فجأةً (مكارديل) ووَخزَه برشاش (الستين) في ظهره وهو يُزمجر وقال له: «هل تقصد ماذا ستفعل أنت؟!».. وفي هذه اللحظة أَدرك الرقيبُ صوت (مكارديل) فطلب منه أن يَضع الرشاشَ جانبًا، وقُضي الأمر بذهابه إلى مهجعه وجلس (مكارديل) على الأرض يُدخّن ويَحتسي البيرة..

كانتْ بوّابةُ المسْتوْدع الرئيسةُ في شاطئ الخيّاط مُغْلَقَةً دائمًا، لا تُفْتَحُ إلّا لحالات استثنائية: كسيارةِ الصيانة التي تُحْضر المرطبات العاشرةَ ليلاً، وضابطِ التفتيش، وبعضَ الليالي لفتاة تدعى (ماري).

فتاةٌ يهوديّةٌ تَسْكُنُ في حَيٍّ عربيّ، وكانَ العربُ واليهودُ معًا يَنظرونَ لها نظرةً دونيّةً لأنها بَغِيّ؛ ولذا سَمَّوْها (ماري من شاطئ الخياط)، حيث كانت تَرقص فوق الطاولات وتُقدّم للزبائن ترفيهًا غيرَ عادي في مقهًى منتصفَ طريق المستودع. وعلى الرغم من أن المقهى (شبه محترق)؛ يُقدّم للزبائن الطعام والشراب، وكانت (ماري) تُعرف بأسماء أخرى، وبعضها غير لائق، لكنها تجيب حين يقول لها أحدهم: «على كيفك ماري» مثلاً؛ وهو تعبيرٌ استخدمه الجنود بدلاً من «غيرُ مبالية».

عندما أُصيبَ جنديٌّ بمرض جنسي مُعْدٍ وادّعى أنّه من (ماري)؛ أُرْسِلَ إلى ضابط الصف المسؤول (أليكس مونيغان) رسالةٌ تَطلب إحضارَها للفحص الطبي، فثَبت أنها غير مصابة وأن مرضَ الجنديِّ المعديَ ليس منها.

وفي أحد الأيّام وقتَ الغداء، عُثر على (ماري) مَيْتَةً تحتَ عَبّارة يَمرّ بها سيلُ ماء من جبل الكرمل، ويمر فوقَها الطريق الرئيس إلى المستودع، واستدعي (أليكس) إلى الموقع فعاين الجثة فتَبين أن رأسها حُطّم بكتلة إسمنتية وأُلقيتْ في العبّارة!.. كان المنظر دمويًّا بشعًا إلى حدٍّ جَعل العربَ الذين عَثروا على الجثة يتقيّأون! وقد أَوقف (أليكس) دورية شرطة فلسطينية وأبلغهم بالحادثة. لقد كانت (ماري) أسطورةً كالآلهة.

كان الرّقيبُ (جون هاردويك) قائدُ الحرس في مسْتوْدع شاطئ الخيّاط لمّا تسلّمَ رسالةً بجهازِ استقباله (الخنافس) تخبره أنه ستقع أعمال إرهاب في المنطقة، ولا سيما بعد تلقيه رسالةَ (بيتل)، وتبعَ ذلك مكالمةٌ بالهاتف من القائد (ميلور) ضابط الواجب في تلك الليلة، نَصَحَ (جون) فيها بأن يتصدى فورًا ويطلق النار.. يقول جون: «بعض الأحيان، بعد منتصف الليل.. حسنًا، بعد حظر التجول، كنتُ عند البوابة الرئيسة مع الحراسة الثابتة –بعد أن تفقدْنا رَجلَي الدورية– حينما اقتربتْ سيارة ثم انحرفتْ تجاهَ البوابات وخفتت الأضواء. لقد تصدّيتُ لذلك، ولكن السيارة اقتربتْ ولم تستجب لي.. جهّزت بندقيةَ (ستين) التي استلمتُها لكنها لم تُطلق النار، لذا أخذتُ على الفور بندقيةَ الحراسة

وأطلقتُ النار: أطلقتُ صَلْيَةً واحدة، ولحسن الحظ أو لسوئه، أصابت المظلة الخاصة بالشاحنة فقط.

كانَ هناكَ صُراخٌ عالٍ: «ماذا تفعل بحقِّ الجحيم؟!» عرفَ (جون) أنّ هذا صوتُ القائد (جنكينز) المساعد، وكان برفقة الرائد (نيومان) الذي كان هو القائد.

قيل لي أنْ أَعُدَّ نفْسي رهْنَ الاعتقال، ولكنْ عليَّ مواصلةُ واجبي الوظيفيّ هذه اللّحظة.. ثم غادرا إلى المعسكر (153)».

كانَ (نيومان) و(جينكينز) خارجَ المعسكر وخارجَ الخدمة بعد حظر التّجوّل. وكان من المقرر أن يُسرَّح (جون) في الأشهر الأربعة التالية، ولذا لا يريد أن تحدث أي مشكلة، وأَبلغ بالحادث فورًا القائد (ميلور) الذي لم يكن سعيدًا على الإطلاق بسلوك الضباط الزملاء. صُنِّفَ (نيومان وجينكينز) -مع الرقيب الأول (كوكرام)- على أنهما أكثرُ الأشخاص المكروهين من أصحاب الرتب العليا في المؤسسة من قِبل ضباط الصف والرتب الأخرى حتى الضباط المبتدئين. ولخَّص (برين ريفر)، الذي أصبح فيما بعدُ ضابطَ صف، بجملة واحدة الضابطين (جنكينز ونيومان) في قوله: «إن جنكيز المُعارَ من منطقة (جرين هاولدز)؛ بسلوكٍ سيّئ بسيط مثل (نيومان)، سيصبح مكروهًا وبلا شعبية مثله».

كانَ لـ(فريدي كوكيرمان) كلْبان كبيران، وكثيرًا ما كان أحدهما يرافقه في دوريّته الليليّة بعد فوضى الرقيب والضباط.. وفي إحدى المرات تَسلّق شجرة زيتون ليتجسس على حارس حديقة السيارات، لأنه هناك فُقدت قطع الغيار وجُفِّفت خزانات الوقود، وقد كُشف لأن كلبه كان يقف على ساقيْه؛ وذراعاه على الجذع، ونظرُه إلى الأعلى. وعلى الرغم من وضع الحارس عند مدخل حديقة السيارات التي كانت عميقة داخل المخيم (153)؛ استيقظ المخيمُ صباحَ يوم وقد عُثر على العجلات المفقودة لإحدى الشاحنات؛ عَثرتْ عليها بعد وقت قصير شرطةُ المستودع. وقد انهارت شاحنة على الطريق الرئيس وذَهب ثلاثةٌ أو أربعة من رجال الشرطة التجريبيين للتحقيق.. كانت الشاحنة لعربي، وتحتوي على أسلاكٍ ومِقبض مكسور، وكانت الطريقةُ الوحيدةُ لتغيير التّرس السّحبُ على

طول السلك، وبينما كان بعض عناصر الشرطة يَنظرون إلى سيارة الأجرة؛ نَظر آخرُ إلى اللوح الخلفي؛ وهناك العجلاتُ المسروقة من المخيم.

ضبّاطُ الطّواف وضبّاط التّفتيش ليسوا وحدَهم في اللّيل. والجولاتُ حول المعسكر ومباني المستودعات تُصحب بكلاب ضالة وهي منشرة في آسيا انتشارَ (الدنغو) في أستراليا. ونادرًا ما تَظهر في النهار، وأشكالُها الغامضة -وهي منتشرة حول المباني في الليل- مثلُ الثعالب الحضرية اليومَ في بريطانيا؛ وكلما بعدتْ عن سلالتها الأصلية حجمًا وشكلاً بالتزاوج المتتابع تشابهتْ أكثرَ بالشكل والحجم! كثيرٌ من كلاب الجيش الصغيرة هُرّبتْ من قبلهم، وكلابُ الجيش الكبيرة تعيش معهم! وبعضها يهرب معهم كما فعل أحدُها -وهو (الساتيين كوكرام)- لمّا لبّى نداء الطبيعة، وقد تَرك سيدَه وشوهد فيما بعدُ يركض مع مجموعة من الكلاب الضالة.

(جيف روبر) الذي أُلحقَ بفرقة المشاة في (قاستينا) مع وحدة الغسل والمغسلة المتحركة، يستطيع أن يتذكر كثيرًا من أوقات الحراسة التي كان يُطلب منهم فيها الاستعجال بسبب تلك الكلاب الضالة التي تُفجّر أسلاك مشاعل خط الرحلة دائمًا، وفي الأوقات كلها على الحراس أن يُنهوا وسط شتائم ولعنات كثيرة.

في الحادي والعشرين من آذار عام 1947م حَوّلَت اللّيحي -وهي عصابة صهيونية- مصفاة نفط حيفا إلى جحيم ملتهب. وبالقرب من المصفاة كانت مجموعةُ تخزينِ عائداتِ مستودع ذخيرة الجيش الملكي في معسكر (كيسون)، وقد زِيدَ حرسٌ من معسكر (153) بقيادة مرؤوس وشاويش لما قد يُحتاج إليه من واجبات الحراسة. وكان (جيس أوبراين) عضوًا في تلك المجموعة، أُعطي مركزًا قربَ خزانات النفط، ووَصف الموقف فقال: «كنتُ على بعد مئة يَاردَةٍ من السياج الخارجي الذي يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدمًا تقريبًا، وهو مكوّنٌ من أسلاك شائكة، وكان خلفَه على بعد مئة ياردة خزانُ نفط رمادي فضيّ، وهو الوحيد الذي لم يُفَجّر حتى الآن، أما خزانات مستودع النفط الأخرى فإما أنها حُرقت بشراسة، وإما ينبعث منها دخانٌ أسودُ كثيف! تساءلت: «لماذا نحن هناك؟» لقد

نجوتُ بصعوبة. لو تَفجّر المخزن الأخير، فإن (جيس) لم يكن في مكان حصين».
وبعد ساعتين ارتاح، ولمّا أَدّيا وظيفة الساعتين رجعا إلى معسكر (153). لكن (جيس) لم يَعرف هدفَ التمرين أبدًا.

ربّما يكون الجلوسُ على رشّاش (البرين) بقبّعة ساعتين في المعسكر بضعَ ياردات، أكثرَ الواجبات مللاً. فبالقبعة لا نظرَ إلا إلى الخارج نحو البوابة من فتحة صغيرة في الحائط السميك. كنتُ في مأمن لكنها كانت مملة. وفي المقابل، من الماتع أن تكون في دورية في المعسكر حيث في كلّ ليلة سماءٌ ساحرة ونجوم ساطعةٌ فترى الأشياء واضحةً جدًّا رغم غياب القمر! وظلال المباني.. السماء كانت في الليل زرقاء، وفي منتصف الليل تُرى بطاقات أعياد الميلاد، وفي حال ظهور القمر ليس من الصعب استحضارُ مشهد من رومنسيات (هوليود).

وفي سنّ الثّامنة عشرة لا تقدرُ على إظهار رأيك والتّعبير عن ميولك الرّومانسيّة. وكان واجبُ الخفر في المعسكر مملًّا لكنْ بدرجة أقل. وفي معسكر (153) كان سكنُ ضباط صف الكتيبة يبعد أميالاً قليلة فقط، مقابلاً غرفةَ الحرس. وكان ضابط الصف (وايتميل) رجلاً عسكريًّا جدًّا، طويلاً، نحيفًا. وقد مَيّز طريقَ باب منزله ببَرادٍ من أغطية زجاجات البيرة مُسلسَلة. وَصل إلى مستودع ذخيرة الجيش (153) في صيف 1947م، وأصبح له حضور في كل مكان.

كان عسكريًّا مُقاتلاً ممتازًا، لا يتسامح مع أيّ عمل قذر لكنّه يُلهمُ بالثّقة، وقد شَرع فورًا يُقيّم المجندين الذين يعملون تحت إمرته..

وفي إحدى اللّيالي، حينما كان (دينيس نوت) يرتدي قبّعة ويجلس على رشّاش (البرين)، وكان رجلٌ بصوتٍ أنثويّ يُلقّب (نانسي) في كشك الحراسة.. وللتخلص من الملل تلاعب (دينيس) بالرشاش وأخرج المخزن واستبدله وأطلق رصاصات عديدة في غير اتجاه فأصابت إحداها كُشْكَ الحراسة في وقت خروج (نانسي) للسير خلال الموانع.. وبلا سبب ظاهر ضَغط (دينيس) على الزناد فانطلقتْ صَلْيَةٌ واحدة نحو جدار كشك الخفير وخارج الجدار إلى الجهة الأخرى.. ظَنّ (نانسي) أن إرهابيًّا حاول قتله فأُغشي عليه، وتدحرج بقية

الحرس خارج غرفتهم. وفي وقت لاحق شوهد على أنه حادثٌ مُسَلٍّ، ولكن ظهور ضابط الصف خارجًا من سكنه مرتديًا ثوبَ النوم التنكريّ كان سببَ التسلية الأكبر. وكان بعض الرجال نائمين بالثياب الداخلية وبعضهم بالقميص، وآخرونَ عارونَ ليس لديهم غالبًا ثيابُ نوم حريريةٌ زهرية.

في أيام الانتداب الأخيرة كان (بيل مونسي) رقيبًا في مستودع الذخيرة الرئيس (531) ومسؤولَ شعبة نقليات السيارات وخدمة الحريق، وقد تحدث عن التعامل مع اللصوص الذين قُبِضُوا في وادي صرار:

«كان محيطُ المستوْدع في وادي صرار يَحرسه الفيْلقُ العربيّ ليْلاً بسيّارات مدرَّعة، وقد تَكرر إطلاقُ صليةِ طلقات شَوّشتْ على المعسكر وأزعجتْه.. لم يحصل أنْ دَخل مُتطفلون إلى المستودع قطًّا وكان واضحًا أن قوات الفيلق العربي، حتى لو رأت أناسًا مندفعين نحو المعسكر، لن تطلق النار تجاه إخوانها العرب.

وفي بعض المناسبات أُلقي القبض على هؤلاء المتطفلين وحُجزوا في غرفة الحرس ليلاً. وفي باكورة صباح اليوم التالي، وضعَهم الرقيب الأول (دوف) على حائط غرفة الحرس الخلفيّ، وكانوا موقنين أنه سيطلق النار عليهم إلى أن ظهرتْ خراطيم الحريق التي كان واضحًا أنها لرشّهم. وبعدَ «أن استحَمّوا مبكرًا» ساروا إلى البوابة الرئيسة، ومن ثم أُطلق سراحهم. كنا جميعًا، ولدرجة كبيرة، متعاطفين مع العرب، للموقف الصعب الذي نعلم أنهم سيجدون أنفسَهم فيه في وقت قريب.

رغم أنّ منشآت مستوْدع عتاد الجيْش الملكيّ وسلاح الميكانيكيّين والكهربائيّين أماكنُ يَصعب جدًّا هجوم عصابات الإرهابيين عليها؛ كانت أماكنَ مغرية للصوص الهواة، ولا سيما مع قرب انتهاء الانتداب. كانت قواعدُ الاشتباك تتضمن ضرورةَ إطلاق النار على الغرباء فورَ لَمحهم، لكنها لم تكن سهلةَ التطبيق لأن قوات الخدمات الخلفية لم تكن مدرَّبة كما ينبغي لإطلاق النار على أحد لقتله، وأحيانًا لا يَسعهم ذلك لأنهم لا يَضمنون ردةَ فعل المسؤولينَ الأَعْلَيْنَ رتبةً. وفي حادثتيْن منفصلتين أبدى ضابطُ الأمر في مستودع الذخيرة الرئيس، العقيدُ

(جور)، عدمَ قناعته بالاستمرار على النهج ذاته.

كان ضابطُ الصّفّ (آندرو) ضابطَ الواجب في إحْدى اللّيالي بداية العام 1948م، وكان يقوم بواجب الدورية حول المستودع بالسيارة المدرعة.. أظهر الكشّافُ شخصين مختبئين في ساحة السيارات فقبض عليهما وأخذهما إلى غرفة الحرس للتحقيق. كَتب (أندرو): «سبب وجودهما في موقف السيارت شيءٌ يصعب تصديقه لجراءته! هما عاملان عربيان، كانا في الليالي القليلة الماضية يختبئان في المستودع بعد انتهاء العمل! كانا يُجهّزان دبابةً لإخراجها. وفي الليلة التي تلتْ إلقاءَ القبض عليهما كانا ينويان إخراجها والذهاب بها إلى موعد مرتب مع اللجنة التنفيذية العربية العليا، وهناك، كانا ينويان ملء الدبابة بالمتفجرات ثم يقودانها إلى حيفا ومنها إلى هدار الكرمل (أجمل منطقة في جبال الكرمل) لتفجيرها. يستطيع أي شخص تَوقُّع الخسائر الكبيرة، البشرية والمادية، التي ستنجم عن هذا العمل لو نجحتْ خطتهما!».

طَلَبَ (آندرو) شرطةَ فلسْطين وسلّمهما، وكتب تقريرًا للعقيد (جور) بما جرى. ولَمْ يفاجأ بجواب العقيد: «لماذا لم تَقتلْهما؟».

كانَ قتلُ الغرباءِ فورَ ظهورهم منطقيًّا؛ لأنّ مَن يقومون بهذه الجرائم يمكنهم أنْ يختفوا بين أكوام المستودع ويبادروا بالهجوم عليك. ولكن التعليمات كانت تُتجاهل! ففي ليلة أخرى كان (ليو تشامبرز) أحدَ حرسِ المستودع حينما قُبض ثلاثة يهود فيه، وقد أُخذوا إلى غرفة الحرس واتّصل آمِرُ الحرس بضابط الواجب الذي أَخبر العقيدَ (جور) فجاء إلى الغرفة واستمع إلى إفادتهم غير الصحيحة وهي أنهم أخطأوا بالوقت وانحصروا في الداخل. وقد فوجئ الجميعُ بقوله: «أَطلِقوا سراحهم»!

يبدو أنّ الجنسيّات كلَّها، والأسلحة والكتائب، حَرستْ في المستودع والمشاغل في وقتٍ ما، لكنّ المفاجأةَ مجيءُ البحارين واحتمالهم العبء. كتب (برين كروس) إلى صحيفة (قصاصات فلسطين) متسائلاً عما إذا كان ثمة شخصٌ يستطيع تذكرهم أو كيف جاؤوا هناك؟ هل هم مِن سفينة معطلة أو طاقم سفينة زيادةً

وبقُوا في حيفا؟

وكتب (برين): «لقد خَلَقوا ضجّة في طابور الصّرف مع إلقاء التّحيّة العسكريّة وتقديم القبّعة للدّفع». واجتمع (برين) ورفقاؤه ببعض البحّارة في بَارٍ بحيفا، وليَذهبوا برحلةٍ إلى الشاطئ كان على البحارة أن يُوافقوا، مصطحبين بنادقهم. لقد سَكروا جميعًا، ولأنهم أَقرّوا بعدم معرفتهم كيف يستعملون بنادقهم رافقتْهم جماعةُ (برين) إلى واجهة البحر؛ وبينما كانوا ينتظرون قاربَهم عَلّمهم الجنودُ ذلك، وتجاهَ البحر طبعًا.

منطقةُ الرّسوّ أصبحتْ حيّةً ونشطة، وبسرعة غاب (برين) ورفاقُه عن المشهد. كَتَبَ برين: «عليك أن تُخفي رأسك حينما يقومون بالحراسة».

أشار (جيس أوبراين) إلى أنّ البحّارة أُعْطوا ستّة بِنْسات إضافةً على راتبهم يوميًا، وهي مخصصاتُ «النوم في الظروف الصعبة». وقال: «ما اعتبرْناه سكنًا غير مريح كان بالنسبة إليهم ستة بنسات إضافية في اليوم». وإذا ما نَمَتْ لحيةُ أحدهم فسيأخذ ستة بنسات، أما نحن فسوف نُوَبَّخ مِن وكيل الكتيبة.

المراجع:

1.مذكرات غير مكتوبة للجندي كي باركر

2.مثلث فلسطين



6. الوصول إلى فلسطين

بغضِّ النّظر عمّا رأيْناه على شاشات (السينما) أو قرأناه في الكتب، لم يكن أيُّ رجُلٍ خدمة عسكرية في الثامنة عشرة من عمره جاهزًا لتلقي الصدمة التي تنتظره أولَ ما وطئتْ أقدامنا تراب مصر. لم يكن (السيناريو) الرومانسيَّ الذي قرأنا عنه في مجلة الجغرافيا الوطنية (National Geographical Magazine)؛ لقد كانتْ تجربةً لا تصدق. قبْل وصول السفينة بوقت طويل، كان كثيرٌ من السكان الأصليين بانتظارها في بورسعيد؛ كانوا ينتظرون ألفيْن أو ثلاثة آلاف زبون عديمي الخبرة، فضلاً عن جهلهم بالواقع، لاستغلالهم؛ كانوا ينتظرون ليقدِّموا ساعاتٍ بلا قيمة، وحقائبَ كرتونية، وفاكهةً لا تصلح للبشر، وكتبًا سيئة، وبطاقاتٍ بريد رديئة... يوجدون في الموانئ ومواقف القطارات وفي كل يَاردَةٍ من محيط معسكر النقل الشائك.

كانت الرّحلات بالقطار بطيئة دائمًا، ويُرادُ لها أن تكون في منتصف اللّيل دائمًا. وبوصولي مع (ري ماشين) و(جورج بيلينج) وأفراد مستودع عتاد الجيش الملكي إلى معسكر المَزّة للنقل في مصر الجديدة؛ نكون قد أمضينا أربعًا وعشرين ساعة بلا نوم! ومنذ ارتدينا اللباس العسكري الرسمي وغادرْنا (ساومثبتون) مع قلة النوم، أصبح النومُ بدون ذلك اللباس يستحوذ على تفكيرنا. وقد قُسِّمْنا إلى مجموعات من ثمانية أفراد ثم سرْنا إلى المخزن لنأتيَ بخيمةٍ و(16) قدمًا من الألواح وبطانية مع كلٍّ منها. سرْنا للخلف وأُعلمْنا بالموضعِ الذي نستطيع أن ننصب فيه خيمة، وهذا الذي نجحْنا فيه قبل تلقي التعليمات.

وتمّ إعدادُ التّخوت بحامليْن ولوْحيْن؛ والحوامل تَرفع الألواحَ بمقدار (6) أقدام فوق الأرض. وفي مصر تنخفض الحرارة بسرعة في الليل، والأجواء ليست دافئة، فكنا حين ننام نخلع أحذيتنا فقط ونتمدد مُتعَبين.

وبأقلّ من ساعتيْن بعد ذلك، كانتْ ساعةُ الصَّحَيان! ومن المفروض ألا ينطبق هذا علينا، لكنه انطبق! فجاء ضابطٌ يرتدي بنطالاً من نوع (ترتان) وقبعةً مخرّمة وشرائطَ متدليةً أسفلَ رقبته، فقلّبَنا وأسقطنا من تخوتنا!.. اتضح أنه إسكتلندي غريب الأطوار، وأنه هو الضابط المسؤول. كان ذلك اليومُ اليومَ الأول لتعييننا في الجيش في الشرق الأوسط. لم يكن هناك بيتٌ للغسيل، بل حنفية ينزل الماء منها تنقيطًا في آخِر حوضٍ مائل سطحي غير عميق والرجالُ تتصارع من أجل الغسل والحلق وتنظيف الأسنان من مجرى المياه الرفيع ذاته. لم يتوقّع أحدٌ أن يجد دورة مياه، لكنهم توقعوا أن يجدوا أبوابًا للحمامات! كان البعوضُ إزعاجًا، وكان التخلص منه صعبًا. ولتزداد إحباطًا، فكلّ شخص جديد كان يرى فِلْمَيْن: الأولُ (يوم في حياة البعوض) يفيدنا بأن يزداد ضعفنا في التعامل مع المشكلة. وهذه الذبابة النشيطة يبدو أنها تمضي يومَها من المطبخ إلى المرحاض. والفلم الثاني المنتج في أميركا للجيش الأمريكي عن تأثيرات المرض التناسلي. وقد ضحك الرجال عندما رأَوا صورةً تخيُّلية للقضيب على الشاشة كلها، ولكنْ تَحوَّل الكلّ إلى صمْتٍ كاتم حينما أُزيل الجلدُ الخارجي كاشفًا عن قيْح.

وقد أَدركْنا أنّ هذا هو الحال الذي سنبقى فيه ما دُمْنا في المعسْكر بل وفي أيّ معسكر آخر قد نُنقل إليه. لم يكن مفيدًا أن تُفكر بماذا يخبئ لك المستقبل! لقد كان علينا أن «نُسلّم أنفسَنا لقدرنا»، كما قال (وينستون تشرتشل)، عمليًّا بعد (دونكيرك/ Dunkik).

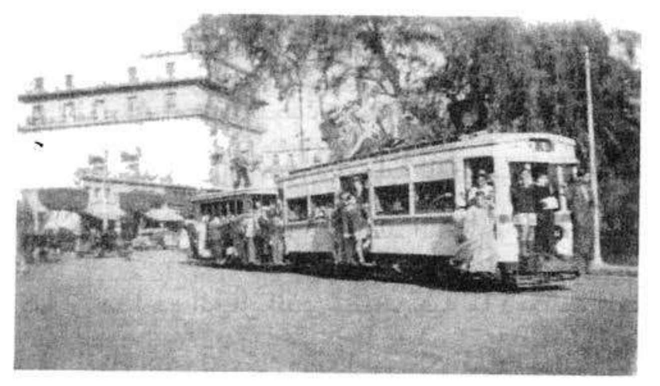
كانَ من الممكن أنْ تأخذَ القطارَ من مصْرَ الجديدة إلى القاهرة. وعلى كلٍّ، كنّا نَسمعُ رسائل التحذير من نظام الإنذار في المعسكر مرات عديدة يوميًّا؛ كنا نُخبَر: «لا تركبْ (جيري)، فربما تؤخذ إلى منطقة نائية وتُضرب وتسرق».

(جيري) عربةٌ جميلةٌ يجرّها حصان، من النّوع الذي يُرى في (بلاكبول)، وقد حُذِّرْنا مِن خطر عروض الجنس وبائعات الهوى ومن مسْح أحذيتنا من قِبل الصِّبْية!

لحظةَ خُروجكَ من المعسكر ستُحاصر؛ فأطفالُ الشّوارع الصّغيرة يندفعون لتقديم خدمةِ «هل تريد تنظيف حذائك (جوني)؟» والتحذير ينصحنا أن نقول «لا».

وإذا قَبل أيُّ شخْص العرضَ فإنّ آخرينَ من مُنظّفي الأحذية سيَعرضونَ الإغراء ذاته والطلبَ عينَه. وفي الواقع، لم تكن خدمةَ تنظيف أحذية بل ضربٌ من التسول.

وإذا قَبلْتَ من أحدهم ورفضْتَ آخرَ فقد يرشّ عليْكَ سائلَ دهان الأحذية! وثمّةَ أوْلادٌ آخرون أكبرُ من أعمارهم كثيرًا، ربما يَعرضون عليك أخواتهم أو بنتًا يونانيةً جميلة!! في مصرَ يبدو أنه لا عُمُرَ بريء!



صورة قطار القاهرة الصغير (ترام) الذي يسير من مصر الجديدة إلى القاهرة بمسافرين متشبثين بجوانب الحافلة وعَواليها

وبهذا القطار الذي يسير إلى مركز القاهرة بقعقعة صوته، كان رجالٌ كثيرٌ وأطفال يركبون مجانًا بالتشبث بجوانب (الترام). ومن المشاهد المألوفة أن ترى رجالاً يَبولون خلف محطة (الترام)! وظاهريًّا يبدو هذا عاديًّا في القانون. ويبدو أن الجميع يتحدثون الإنجليزية إلا الشرطة! ولما أردتُ أن أبول لم أجد شخصًا يفهمني!.. حاولتُ أن أفهّمه بالإشارة لكنه ظن أنني أسأل عن بائعة هوًى! وكان هناك طفل يراقب ويسمع. جاء يظن أنه يريد أن يخبرني! لكن الشرطي ضربه

بعصاته. وأخيرًا فَهم الشرطي ما أريده فعلا فأشار إلى خلف (الترام)! وحتمًا عَرض علينا مرات عديدة أن نذهب إلى عروض الجنس التي حُذّرنا منها. «هل تريد أن ترى عرضَ (جوني)؟ مع وصف الحدث وصفًا لا يترك للخيال إلّا أن يقول: كيف تفعل ذلك؟!».

كلُّ جنديٍّ دخل إلى القاهرة سجّلَ الخروج في غرفة الحراسة وسُجِّلَ دخولُه مرّةً أخرى عند عودته.

كلَّ يوم كان هناك موكبٌ صباحي مع تفتيش جماعي مكرور للتأكد من خلوّ الأمراضِ المعدية. اصطَفّ الرجالُ ثلاثةَ صفوف، ومرّ الضابط الطبيب بين الجند يتفحّص الأعضاء التناسلية. لم يكن صعبًا عزل الجنود العاديين عن أصحاب الرتب العالية، لأن هؤلاء الجنود كانوا مميزين بالأوشام التي كان بعضها بصورةٍ ذات خيال واسع.

حملَ معظمُنا أكوابًا من الصّفيح لاصطحاب الشّاي معنا أينما حللنا؛ سواء في المطابخ أم في عربات معاهد القوى الجوية والبحرية أم في مقاصف جيش الإن ڤاذ في محطات السكك الحديدية. وكَحال معظم الجنود الآخرين، كان فنجان الشاي الخاص بي معلّقًا في حزام حقيبة ظهري؛ موجودًا حين كنتُ على ظهر السفينة (س س مولتان) في بورسعيد، ولكنه اختفى لما ركبتُ القطار! أما أولئك الذين ليس لديهم أكوابٌ فشَربوا الشاي من الكوب الذي قدّمه المطبخ أو معهد البحرية والجيش والقوات الجوية.

في المزّة،كانت الأكوابُ غيرَ عادية بعضَ الشيء، مصنوعةً من زجاجات البيرة بواسطة سلاح الكهربائيين والميكانيكيين الملكي. وقد شرحَ لي الحرفيّ (جورج نيكو لاس) كيف صُنعت بصبّ نصف لترٍ زيت في الزجاجة ثم غمرت الزجاجة في الماء البارد. تُقسم الزجاجاتُ بشكل أنيق إلى نصفين ثم تُعزل الأجزاء العلوية.

وفي فترة الرياح الخماسينية، عندما هبّت رياحٌ ساخنة من الصحراء، حمل تْ معها رمالاً ناعمة جدًّا وَجَدَتْ طريقها إلى كل شيء. يحتوي الكوبُ البديل عل ى طبقة سميكة من الطين في الأسفل. كانت الوجبات في المطبخ غيرَ صالحة للأ كل تقريبًا.

كانت النّسورُ ذاتُ النّظرة الشّرّيرة والرّأس الأصلع تجلس على أعمدة التلغراف والأسلا ك الكهربائية.

لم تكن كبيرةً مثل النسور الأخرى، وهي معروفة باسم صقور الهراء.

لقد قاموا دومًا بمسح الأرْض الرّمليّة بحثًا عن بقايا الطّعام التي غالبًا ما يُت خلّص منها.

لقد كانت النسور ممتلئة الخدود مثل عصافير (الدويري) في متنزه لندن؛ والبعض لمْ يكنْ ينتظر الطعام إلى أن يرمى. حملَ (والتر هوروكس) صحْنًا من الطعام إلى خيمته لما أَبرز نسرٌ مخلبَه وأخذ الطعام من الصحن. علّق (هوروكس) على ذلك قائلاً: «لقد كان لهم بطونٌ أفضل منّا».

في وقت الانتقال إلى هناك لمْ يكنْ لديْنا تصوّر عن الشّرق الأوسط، وكنّا مستعدّين لعملِ أي شيء. كانت القطارات المتجهة إلى فلسطين تقف في القنطارة والعريش للراحة، وفيها كنا نأكل ونشرب من علب الطعام الخاصة بنا. كانت علبُ الطعام الخاصة بالجيش مستطيلةً من المعدن وبمقابضَ قابلة للطيّ، وعلبة صغيرة في واحدة أكبر منها. وكان الطعام يوضع في العلبة الكبيرة، أما الصغيرة فتُستخدم لسكب الشاي. وكانت جديدة بغطاء ضد الزيوت والمواد الدهنية. وهؤلاء المعتادون على استخدام الكأس الكبير الخاص بهم لشرب الشاي يَصعب عليهم شربه من علبة الطعام المستطيلة، والذين يشربون الشاي بعلب مغطاة يشربون بصعوبة، وهو ما أدى إلى حبّ الجنديّ الشّايَ حبًّا أكبر.

وبعد العريش، كنّا في فلسطين، والذينَ توجّهوا إلى مستودع عتاد الجيش (615) ومجموعة نقل القيادة، نزلوا في رفح. ومن تلك النقطة بدأ كلّ شيء يتغير: المشاهد الطبيعية، والمناخ، والنّاس. ما يزال هناك بائعون في محطات القطار كلها، ولكن طبيعتهم مختلفة، وكذا لباسهم. كان البائعون المصريون يرتدون الطربوش أو القلنسوةَ على الرأس.

في فلسطين، العربُ التّقليديّونَ يرتدون الكوفيّة البيضاء، وهي منديلٌ كبير، قد يكون زهريًّا أحيانًا مع إشارات بيضاء، أو أبيضَ، وتُثبّت بالرأس لفات صوفية ثقيلة. كانوا يبيعون البَيْضَ الذي لا يمكن تجاهله، والخبزَ والفاكهة الطازجة أيضًا: البرتقال، والليمون، والعنب، فضلاً عن الشوكولاتة وكماليات لم تكن في المملكة المتحدة في ذلك الوقت!

معظمُنا تذوّقَ البطّيخَ أوّل مرّة في حياته! القطاراتُ هنا أبطأ وهي في طريقها للشمال، ويتكرر توقّفها، في الوقت الذي يكون الحرّاس فيه يبحثون عن إرهابيين. بساتينُ البرتقال كانت غطاءً رائعًا للإرهابيين، لكنّ فروعَ البرتقال المحمّل البعيدة ياردات عديدةً عن القطار المتوقف كانت مغرية للجنود الإنجليز العطشى. كانوا ينزلون من القطار ويأتون بملء الذراعين بالبرتقال، وبعد ست سنين من عدم وجود البرتقال في بريطانيا نستطيع الآن رؤيته على شجرة! مثل أولاد المدارس المذنبين الذين يتخبطون؛ كنا نساعد أنفسنا بجلب البرتقال.

كان (ستان هايورد) سائقًا في مستودع عتاد الجيش الملكي، وفي مرحلة معينة أُلحق بالفرقة المحمولة جوًّا في (جايه) جنوب فلسطين. كتب عن الكلاب الأسترالية المدرعة: كانت عربات مدرعة تسير في الطرقات سيرًا اعتياديًّا، ولكنّ من الممكن أن تسير على السكة، وقد حُوّلتْ عجلاتها إلى عجلات ذاتِ حوافّ كتلك المستخدمة في عربات السكك الحديدية. كانوا يسيرون على السكة قبل القطار في أكثر المناطق خطورةً.

تسير السّكّة على طول خطّ الشّاطئ، وقد نلمح البحر بين الفينة والأخرى. وفي بعض الأماكن يبدو الشاطئ ممتعًا بوجود شجرة نخيلٍ أو شجرتين، فيظهر كأنه فلم استوائيّ. وهذه المشاهدُ وأمثالها تثير فينا، نحن الجنود الشباب، شهوةَ الكلام.

كنّا في قطاع غزّة التي هي منطقة عربيّة أصلاً. والخطُّ السّاحليُّ ذاتُه الذي بناه المستوطنون اليهود والفلسطينيون المحليون، لم يكن من الممكن أن يتجاوز خمسةَ أميال من البحر.

تغيُّرُ المناخ من جنوب فلسطين إلى شمالها، فضلاً عن تنوّع الأرض، يؤكّد وجود بيئة برية متنوعة وماتعة. وقد كانت هذه صفةً ساحرةً تذكرنا بأننا لسنا في بريطانيا. والحيوانات البرية في فلسطين، وحياة الحشرات، كانت تحرك فينا عواطفَ متعددة. يتذكر (هارلود درابر) سعادته برؤية سلاحفَ صغيرة تخرج من الرمال في صرفند. ولكنْ من جهة أخرى تجربة مرعبة عندما وجدوا أفاعيَ صغيرةً سامة تستدفئ بأشعة الشمس على الملابس القديمة (البالة) وآلات المخازن في المستودع؛ أفاعٍ تشبه أفاعيَ بريطانيا لكنها أصغرُ حجمًا وقاتلة وسامة أكثر؛ لم تكن حبيسةَ المستودع، ومعروفٌ أنها كانت تجد طريقها إلى الزوايا الرطبة لبناء مساكنها. وفي الصباح، بينما كان الجند مصطفين لطابور السابعة وخمس عشرة دقيقةً وتنادى أسماؤهم، ظهرتْ أمام الطابور أفعى طولها اثنتا عشرة بوصةً. وعلى الرغم من حجمها الصغير نظرتْ عيونُ الرجال إليها بغضب رغم أن أحذيتهم العسكرية مصممة لمثل هذا الطارئ.

جاء طبيبُ الجيش الملكيّ (وايتميل) ليرى ما الذي يتسبب في هذا التوتر ويلهي الجنود، وبعصاته رماها بعيدًا عن الطابور إلى العشب القذر الجاف.

كان النّملُ أكبرَ من النّمل الإنجليزيّ، يجد طريقه إلى كلّ شيء؛ كالغزاة غير الشّرعيّين الصّامتين القادرين على أن يجدوا طريقهم إلى الخزائن والحقائب، ولا سيما إذا تُرك الطعام هناك.

لكنّ وفق خبرة (ديف الكوك) كانوا يبحثون عن أشياء غير الطعام؛ عن سَكن. كان تعيينُه الأولُ بفلسطين -حينما وصل عام 1946م- في مجموعة النقل (612). كان المعسكر على الشاطئ عبر طريق المستودع قريبًا من (عتليت). لقد أعاد تذكر تجربته مع النمل: «في الظهيرة، وقتَ الراحة، أُيقظتُ والشباب يضحكون. ولخوفي، كانت هناك أربعة خطوط من النمل قادمة إلى الخيمة: خطان يَحملان بيضًا ويضعانه فوق حقيبتي، وخطان متجهان نحو الشاطئ. نظفتُ في ساعتين أغراضي، وتخلّصنا جميعًا منهم في ساعتين».

في اللّيل نقيقٌ لا ينقطع لضفادعَ تنام في النهار، ولكنْ في مناسبة ما نهارًا، ضلّ ضفدعٌ طريقه إلى المكتب وهو يسحب رجلَه المجروحةَ، ويتغذى النمل على جرحه ويضايقونه. كان البعوض في كل مكان، ويجد في الجروح ما لا يقاوَم. وقد شَرح (داني جودفراي) تجربته حينما كان يعمل في مصنع تعبئة الألغام في وادي صرار ويُغطي الألغام الميدانية:

«في الوقت الذي كنّا نعملُ فيه، لا بدّ أنّني جَرحتُ نفسي وتلقّيتُ ضربات عديدة لم أَنتبه إليها.. وفي كل ليلة رائحة فظيعة! وقد أصبحتُ أقوى لمّا هربتُ منها.. وأخيرًا وجدتُ مصدرها!.. ظَاهِرًا يَدَيَّ كانا متورّمين ويَنزفان.. وأُرسلتُ مريضًا واكتشفتُ أنها بعوضةٌ جذبتْها الجروح، وقد وَضعتْ بيضَها وصار يَرَقَاتٍ»!

السّحالي كانتْ تزحف على أشجار الزّيتون، وعمومًا كان حجمُها من ست بوصات إلى ثمانية، ولكنْ في صباح يوم أَحَد، بينما كنتُ أسير إلى أن أركب الحافلةَ الذاهبةَ إلى الطّيرة، وَجَدْتُني أمامَ سحلية كبيرة كالقطة! وكانت تميَّز باسم الحرباء. حتى ذلك الوقت كنتُ أَعُدُّها سحالي، لكنني اكتشفت فيما بعد أن أشجار الزيتون مأوًى لحَرَابِيّ صغيرة!

كانَ (فريد بيدج) رئيسًا للإطفاء في مستودع عتاد الجيش، في جيش خاصٍّ به، فقد كان منزله أفضلَ من سائر المعسكر، وطبيعةُ عمله خارجةٌ عن كثير من القواعد والتعليمات، ولم يُفاجأ أحد باحتفاظه بحرباء كحيوان أليف مع مجموعة من العصي، وكانت المفاجأة أن الحرباء سعدت بالعيش معه!

أمُّ أربعة وأربعين، التي يصل طولها إلى ست بوصات، كانتْ غزيرةَ الإنتاج، وهي قادرة على إحداث تفاعل سامٍّ إذا تَركتْ ساقيها الرقيقتين في لحم الإنسان! ويجب أخْذ الحذر الشديد حين إزالتها وهي تصعد ساقَ أحدهم. يقول (كين باركر) أنّ سحْقها بحذاء الجيش لن يقتلها، لأن المسامير تحمي جسمها المسطّح، والأكثر فعاليةً أن تُضرب بحذاء رياضي عادي. والكلاب الحمقاء غالبًا ما نجدها أبشعَ المخلوقات البريّة غير العادية. وكان سهلاً الإمساكُ بالسحالي وقتلُها. وقد تَعلّمت الكلابُ أن تُعامل الثعابين بعناية وتَنبحَ نباحًا إنذاريًّا.

وحينما انتقل (كين) من (الجيا) في الجنوب إلى (رامات داود) في الشمال واجَه مخلوقًا آخرَ غيرَ عاديّ!

«مضى علينا يومان فقط في رامات داود عندما رأينا شيئًا من الحياة البريّة المحليّة. كان لجندي من سلاح الميكانيكيين والكهربائيين الملكي (REME) كلبٌ، وفي ظهيرة أحد الأيام بدأ يَنبح خارج الكوخ وكأنه في ورطة كبيرة! فذهبْنا إلى الخارج ووجدْناه أخرجَ (سلطعون) كبيرًا من تحت الكوخ لكن الأخير انتقمَ من الكلب بقرْصه في أنفه! لم نرَ من قبلُ سلطعونًا برّيًّا، وهو كبيرٌ مثل طبق الطعام، وقد رأيناه على بعد ثلاثين ميلاً تقريبًا من البحر»!

كان المرءُ على علْم دائمًا بالطّبيعة الفلسطينيّة، فكانتْ مناطقُ واسعةٌ من البلاد هادئةً تُرعى فيها الأغنام والماعز فقط. وأدت حياة الفلسطينيين البسيطة إلى ازدهار الطبيعة. وكان الأتراك يَعتبرون السكان الأصليين أمناءَ على الأراضي المقدسة. فقد رأيناها وكأنها بنفس طبيعة أيام سيدنا عيسى عليه السلام، فما تزال فلسطين تحتفظ بجمالها العذري. وعلى سبيل المثال جبلُ الكرمل الذي

احتَفظ بكثير من طابعه القديم؛ فجانبُه الغربي صخري عميق وفيه كثير من الكهوف والمنحدرات. ومن الممكن للمرء أن يتصور بسهولة كيفيةَ عيش الماعز البريّ في هذا الجانب الجميل من منطقة الكرمل. وكل جزء من البلاد له عجائبه الطبيعية المميزة التي تشد القادمين الجدد من بريطانيا. شَعر (جون وايت) أن مما يستحق الملاحظة في مذكراته، الصيادين المصطفين على الشاطئ، الذين كانوا يَرمون شباكهم إلى البحر وهم يَمشون على خط المياه. عيونهم الحادة ترى السمك الذي لا نستطيع نحن رؤيته!

وأخيرًا، فإنّ اكتشافَ الأنواع المتعدّدة من أصناف الحياة البريّة في فلسْطينَ أصْبحَ معروفًا ومألوفًا، ولذا صاروا لا يَعدّونه شيئًا يَستحق أن يُذكر في الرسائل والمذكرات. كانت مواقف سيارات الجيش والمستودعات في بريطانيا جَنّةً للحياة البرية لأنها محمية في النهار والليل، ولذا لا يوجد قربَها مزارعون يستطيعون إطلاق النار على الأرانب أو صيادون يُفخخون لصيدهم. ولهذا، حينما رأى أرنبًا في ساحة مستودع عتاد الجيش (2) شَعر أن ذلك يَستحق أن يُذكر في مذكراته!

وفي ربيع العام 1947م اكتَسحَ الجرادُ الساحل. ويتذكر (جيس أوبراين) سربًا كبيرًا من طيور البَجَع الجائعة التي كانت تأتي إلى الشاطئ لتقتات على الجراد.

وفي مناسبةٍ أخرى، أَتذكّرُ المشهدَ الحزينَ لسلحفاة كبيرة ميتة كانت تتبلّل بماءِ البحر على الشّاطئ.

وقد كنّا نُحَذَّرُ من الأفاعي، ويذكّروننا بجنديّ مات بلدغة أفعى! وعندما ننتهي من العمل يوميًّا نَستحمّ ونرتدي أحذيةً رياضية بلا جَوَاربَ غالبًا. كان الطريق الذي يوصل مباشرة إلى صالةِ عرض الأفلام المفتوحةِ في الهواء الطلق، يمر بالعشب الجافّ. وبدون حماية الأحذية العسكرية (البساطير) والأحذية عالية الساق، ولأننا كنا أيضًا نخاف الأفاعي السامة على الأرض، لُذْنا بالركض.

كانت أرض فلسطين خصبة لحياة الحشرات غير المألوفة، وهو ما حثّ القائد (ستايلر) الذي كان يعمل في مصنع الذخيرة والمستودع بوادي صرار لدراسة علم الحشرات، وفق ما أوردَ في صحيفة (التايمز 567) التي كانت تُطبع وتُوزع في مستودع العتاد بوادي صرار لمدة ستين سنةً تقريبًا. احتَفظَ (أليك واجي واجستاف) بنسَخ وثّقت النشاطات غير المنهجية للقوات. وفي إحدى النسخ تقرأ: «لقد سمعْنا أن الحرفي (جونسون) يعرض حَمَامَاته للبيع لوجود طفْح جلدي عليها في آخر سجل طيران. وهذا -كما يقول (واجي) لصحيفة فلسطين- موضوع عن الحرفي، وهو من المهتمين بالحَمام، وقد اشترى نصفَ دزّينة حمام من عربي. «(بيري) نوع من الحمام المناسب للسباق وهو سريع،...لذلك أُخذوا ثلاثين ميلاً ثم أُطلق سراحهم. وقد قال (جونسون): «لِنَعُدْ إلى وادي صرار وإلا فسوف يقتلوننا». ولكن، حينما عادوا لم يكُ هناك أيّ علامة منهم. وبعد أربعة أيام، ونحن في الطابور، جاءت الحمائم من التلة، فضحك ضابط الصفّ!

وكلّما ذهبْنا إلى الشّمال، ازدادتْ خضرة المشاهد الطّبيعيّة! لقد كنّا مسافرينَ على طول الخط الساحلي، وكانت حيفا هدفَ رحلتنا الأخير، وهو المكان الذي كان متّجِهًا إليه معظم رجال الخدمة. ينتشر حول حيفا والمنحدر الغربي من جبال الكرمل منشآتٌ عسكريةٌ كثيرة كالمستودعات والمعسكرات. تطوّر الميناء بسرعة، وفي أقلّ من عشرين عامًا نشأتْ مدينة!

وبمضيّ سنواتهم التأسيسية في بريطانيا المحاصَرة، لمْ يَكن لدى الجنود الشّباب من الخبرات إلا خبرتهم الإنجليزية. وبينما كانت مدننا مدمرةً والبنية التحتية البريطانية متدهورة، كانت حيفا تتطورا وفيها فنٌّ حديث مدهش في وسط المدينة مع دكاكينَ فاخرة ومقاه وبارات تناسب الأذواق كلَّها! لقد توافرت المشروبات المُسكِرة والشكولاتة بمختلف الكميات، والبيرةُ في الحانات كلها، والإكسسوارات من أحدث الأنواع، وجوارب النايلون؛ تلك التي لم تكن متوافرةً في بريطانيا إلا للنساء اللواتي كان لهن أصدقاءُ أمريكيون!

حَصَلَ (كين باركر) على إجازة للعودة إلى الوطن. وفي شباط العام (1947م) وَجد بريطانيا بجوٍّ شتائي لم تَشهده منذ القرن التاسع عشر! ولم يكن ممكنًا إيصالُ الأطعمة للدكاكين، والنفطُ كان نادرًا! ذَهب (كين) إلى صالة عرض الأفلام، وعلى الرغم من أنه يلبس معطفًا ولفحة؛ كانَ يَرتجف في صالة عرض الأفلام غير المدفّأة! وبينما كان في إجازته مجموعتان من المسرَّحين أُخبروا بألا يَرجعوا إلى فلسطين. ولو كانت المجموعة الكبرى الأخرى ممن طُلب منهم عدمُ الرجوع لكان (كيم) واحدًا منهم. عَدَّ نفسَه محظوظًا وأنه سيكون بعيدًا عن نقص المواد والتقنين والجو المتجمد. لقد كان البرد قارصًا عندما وصل إلى بريطانيا، وبقي كذلك إلى حين مغادرته.

وخلالَ تساقُط المطر، كانَ القطارُ يَدخلُ إلى محطّة سكّة حديد حيفا، ومن ثَمَّ نُقلنا إلى معسكر (153) ذي الرائحة البريطانية المنعشة التي تفوح في الصيف حينما يَهدأ المطر والغبار.

كانت هناكَ شجرةُ خرّوب مختبئةٌ بينَ أشجار الزّيتون التي يقع فيها معسكر (153)، وتتميّز بزهورها المتدلية الحمراء البنفسجية، وكانت مزهرةً حينما وصلْنا. وفي نيسان أو أيار، تحولتْ هذه الزهراتُ إلى فاكهة تُشبه قرون الفول الواسعةَ لكنها تميل إلى اللون الأسود. قَطع (جايس) الذي رأى هذا التحولَ السنةَ الماضية قرنًا من الشجرة ثم عَضّه ليرى هل يصلح للأكل. وفي أيام الكتاب المقدّس كان يُعدّ طعامَ الفقراء. وكان العمال العرب يأكلونه مع لبن كأنه حلوى.

كانَ لأكواخنا المبنية من الطوب سقوفٌ حديدية، وطقطقاتُ السقوط الأول للمَطَر مُرَحَّبٌ بها بعد دورة جفاف حارّ في مصر. وَصلتُ كوخَ (56) مُرَحَّبًا بي، ولأول مرّة أَشعر بأنه يُمكنني أن أَتقبّل حياة الجيش. كَثُرَتْ هناك الأحاديث والأسئلة عن بلدتي في الوطن ومكان عملي السابق. وأهمُّ موضوع تحدثْنا به هو الشتاءُ الإنجليزي في شباط العام 1947م.

لقد كانتْ صحيفةُ (الديلي ميرور) تُرسل نسخةً خاصّةً للجيوشِ المنتشرة خلْفَ البحار أسبوعيًّا، وهي تتألف من ستة أعداد ولكن بتغطية مبسَّطة، وكانت في ذلك الوقت من أكثر الصحف بيعًا، ويثار حولها نقاش كثير!

وكنتُ مُشترِكًا في كوخ (56) مع تسعةَ عشرَ شخصًا آخَر، وكلْبَيْن: (لودي) وهو كلْب صيْد صغير، و(ميجر) الكلب المشاكس من صنف الدرواس الضخم. وواضحٌ أنْ لا وجودَ للتعليمات والأنظمة الخاصة بغرف الثكنات التي كانت جزءًا من مواقعَ ثلاثة خدمتُ فيها. وكانت آخر وظيفة لي ببريطانيا في (أولد ديلبي) في (ليسترشير)، وإيجابيتُها الوحيدة أنني كنتُ أعود إلى البيت آخرَ كلّ أسبوع. وهناك كنا ننام في أكواخ نيسان، وفي الشتاء تنزل قطراتٌ من على السطح ثم تُشكّل برَكًا بين حوائط البيوت على الأرض. تعبْتُ من الأعمال المكتبية والطقس والاندفاع الجنوني إلى البيت آخرَ كلِ أسبوع من ست وثلاثين ساعة؛ فقررتُ أن أتطوع للخدمة فيما وراء البحار ولم أُخبر والدي ولا صديقتي.

وفي وقت مبكّر من العام 1947م أُتيحَتْ فرصٌ للذّهاب إلى حيْفا خارجَ أوقات العمل، لكن المعسكر لا يخلو من التسهيلات والمرافق، وحينما ينتهي الطعام يتحول المطعم إلى سينما ومسرح أحيانًا. جَعلتْ محاكمةُ (دوف جرينر) واحتجازُه المؤسساتِ العسكرية كلَّها في حالة الإنذار العالي، وصادف هذا كلّه افتتاحَ صالة عرض الأفلام في الهواء الطلق في الليالي المعتدلة التالية. كم كانت استراحةً مُرَحَّبًا بها حينما تسنح الفرصة لك أن تجلس إلى الطاولة وتأكل وتشرب وتشاهد فلمًا في أيام كانت مشاهدة الأفلام فيها ضربًا من ضروب الهروب من الواقع! مَن منا كان يهتم حين يهبّ النسيم العذب ويحرك الشاشة! هذا النسيم المنعش الذي كان يقارَن بأيام حارة! وكان مُضيُّ ساعتيْن ينسي المرءَ واجبات حراسة الليلة الفائتة وصرامة اليوم.

كانَ ثمّةَ فرصةٌ لمشاهدة أفلام مختلفة أربعَ مرّات في الأسبوع. وكلُّ فلْم يُعْرَضُ في ليلتيْن على التوالي عدا يوم الأحد. ومَن عليهم واجبات لا يَقدرون على مشاهدة

ذلك الفلم خاصَّةً. وكانت صالة عرض الأفلام في معسكر (153) تُعرف من قِبَل مؤسسة سينما الجيش (AKC) بـ(المدينة البيضاء)- الطّيرة. وهذه المؤسسة كانت قسمًا من مستودع عتاد الجيش الملكي. ومعسكرٌ (153) كان أحدَ اثني عشر معسكرًا فيها سينما في دائرة شمال فلسطين. ولم تكن المدينة البيضاء حكرًا على قوات مستودع ذخيرة الجيش الملكي. وبترتيبات معيّنة تأتي قواتٌ ووحدات أخرى بشاحنات لحضور الأفلام.

وفي إحْدى اللّيالي، كان (برين كروس) في واجب على البوّابة الرّئيسيّة حينَ وَصَلَتْ شاحنةٌ تقلُّ قوات إلى المعسكر، وكان عليه أن يتّبعَ الإجراءات الاعتيادية فيفتشَهم كلَّهم واحدًا واحدًا عندما ينزلون من الشاحنة ويَسيروا إلى صالة عرض الأفلام على الأقدام.

وقد طَوَّرَ طريقةً مبسَّطةً للقوّات المحمولة جوًّا. كانَ يَعرفُ السّائقَ فسَمَحَ لشاحنة المظليّينَ بالدخول؛ ورغم ذلك، وكانت الشاحنة تدخل، سَمع أصواتًا أجنبية، وبالنسبة إليه كانت تشبه العبرية. فماذا فعل؟ سَمح لحشد من الإرهابيين بالدخول إلى المعسكر!

وخَوْفًا من أن يُعَدَّ عَمِلَ الأسْوأَ، أَخْبرَ كبيرَ الحَرَس فاحتشدَ على الفوْر كلُّ الذينَ لمْ يَكنْ عليهم وظائفُ وأَخذوا بندقية (برين) وأَغلق مُشغّلُ صالة عرض الأفلام (فريدي) الصالةَ. ولحسن الحظ لم يبدأ الفلم بعدُ. وكان على الزبائن كلهم ترك الصالة، وعلى القوات الزائرة أن تقف قرب الشاحنة ووثائقُهم تُدقَّق. كان الأجانب مظليين دنماركيين. ولم يُحاكَم (برين) على الأرجح. وكلّ ما حدث كان قد رُتّب له ليكون تمرينًا مفيدًا!

وكانَتْ في المعسكر عُروضٌ مُتنوّعةٌ تُقَدّمُها شركة التسلية والخدمات المتحدة(CSE) في مناسبات، وكانت تؤدّى في غرفة الطعام -التي تُستخدَم للعروض الحية منذ بنائها- في مسرح ارتجالي. وكان الضباط -تقليديًا-

يجلسون في المقاعد الأمامية، والرتبُ الأخرى تجلس على مقعد المطعم الخلفي الطويل. وفي إحدى المناسبات، كان جنودٌ أستراليون من أيام الحرب يجلسون في المقاعد الأولى، وقد رفَضوا أن يتحركوا حينما جاء الضباط. ولا مناصَ أمام الضباط إلا أن يغادروا، ولم يشاهدوا الفلم!

لمْ تكنْ الأفلام والأمسيات أحداثًا تُذكر إلا قليلاً، ومن ذلك ما كتبه (جون وايت) عن إحداها فقال: «عَرضتْ شركة التسلية والخدمات المتحدة فلمًا اسمُه (Topliners of Variety) من بطولة: (جودي تشيرلي)، و(كيم كيندل) و(بوني دويل). وكانت (جودي شيرلي) الجميلة تُحطِّم القلوب!».

وكان هذا العرض أفضلَ عرض في المعسكر. وكتب (ولتر هوروكس): «(كيم كيندل) غنّتْ أغنية (قَبِّلَني مرّة، قَبّلني مرّتيْن، وقَبّلني مرةً أخرى)، ويحاول رفيقي (إيدي كارترايتكان) من خلال شبّاك قاعة الطعام من الخارج أن يشاهد الفلم، وكان الضباط في الصف الأول، لكنها خرجت من بين الجمهور وأخرجتْ يدها لـ(أيدي) وغنّتْ له، ولو لم أُمسكه لوصل إلى المسرح.. ضحكت الرتبُ الأخرى كثيرًا، وابتسم الصف الأول ابتسامات خفيفة».

وهؤلاء الذينَ يَجلسونَ في الصّفوف الأخيرة لاحظوا تطوُّرًا يَستحقُّ الانتباه. سارتْ (كيم كيندل) بعيدًا عن المسرح وسطَ غرفة الطعام سيرًا يعذب القلوب!

لكنْ حينما أرادت العودة وَجدَت المَمَرَّ مُغْلَقًا بالمقاعد التي كانَ رجالٌ كثيرٌ يَجلسونَ عليها. لقد أُرعبتْ قليلاً، وعادت المقاعد إلى أماكنها الصحيحة وصُفِّق لها تصفيقًا يَصمّ الآذان. لقد كانت (كيم كيندل) إحدى أختيْن غير معروفتين في ذلك الوقت. وكانت أختها (كي) ترنو إلى النجومية في فن إنتاج الأفلام السينمائية.

لمْ تكن العروض كلها ناجحة دومًا، ولمْ يسامحه الجمهور بطريقة لطيفة: «دعْنا نصفّق له» فقط. وأحيانًا، وبلا خطأ، لا يكون العرض مناسبًا للجمهور، ومرّةً واحدة فقط، أُحرج الجمهور من ردة فعل فئة قليلة، وتَركتْ شابةٌ عازفةٌ

المسرحَ ذات ليلة بسبب تصفيقٍ وصفير رافض للمشهد من أناسٍ خاليةٍ رؤوسهم.

صار واضحًا وضوحًا شديدًا أنّ الحياةَ في فلسْطينَ لا تُشبهُ الحياةَ في مصْر مطلقًا؛ كانتا دولتين مختلفتين في كل شيء تقريبًا. وثَبَتَ أنه يمكن احتمال الوقت الذي كان يُعدّ غيرَ قابل للاحتمال ولمدّة غير محددة، وأنه لا داعي لقلق بريطانيا على المجندين الشباب. ألَمْ نُرسَل في زمن الحرب إلى أماكنَ أكثرَ سوءًا بكثير من هذا الذي وَجدْنا أنفسنا فيه؟! الآن صرنا نُرسِل الطرودَ لأحبائنا وقلما تُرسِل أمٌّ قلقة لابنها طردًا.

يَقَعُ مسْتودَعُ عتاد الجيش في رفح أقصى جنوب فلسْطين، فكانَ أَشدَّ حرارةً، وهو مُقامٌ على الساحل في حافّة صحراء سيناء، وكان الرجال يسكنون الخيم. وللمعسكر إيجابيةٌ إن كان فيه قاعةُ(Provan)، وقد بني لهذا الهدف، ومركزُ تسلية احترافي لعروض شركة التسلية والخدمات المتحدة؛ بني لمسرحها الدائم بِبَرَادٍ غالية تُفتح وتُغلق مع كلّ عمل، وكانت تُستخدم للسينما والاجتماعات كافّةً. ولمّا وَصل (فريد بيج) العريفُ المسؤول إلى محطة إطفاء (615) عامَ 1945م بدأ يشغّل شركة التسلية الخاصة بالمعسكر، التي تُعرف بـ(رافتيرز/ rafateers). نَظّف الخيمَ وأبرز مواهب كلّ الناس. وقريبًا من مجموعة عربات القيادة (612) أتى ليشاهد عرْض شركة التسلية والخدمات المتحدة، كما أنه استجاب لطلب العاملين، حتى العمالُ العرب المدنيون أرادوا أن يشاركوا، وبالنسبة لعلي سليمان و(بيل عزيز) و(شورتي بلدوين) الذي الْتحق بالفريق؛ كانت هذه فرصتَهم للشهرة. استَبدلتْ ورشةُ سلاح الميكانيكيين والكهربائيين بالدراجات الهوائية العادية دراجات هوائيةً بعَجل واحد. وللأسف، ما استطاع عليٌّ أن يَتكيّف مع هذه الدراجات، فظَلّ يسقط، ولما بدأت الفرقة تُمثّل بدا كأن الكلَّ يُعتبَرون جزءًا من العمل.

كان العَرْضُ الأوّلُ لـ(فريد) عامَ 1945م، وجاءَ بعدَه عامَ 1946م العرضُ المسمى (الستائر تنادي)، وكانَ آخرُ العروض في العام 1947م واسمه (متنوعة

عيد الميلاد). أخذت الفرقة المرافقة لشركة (رافتيرز) معظم موسيقاها من مجموعة عربات القيادة (612) وحضرَت العرضَ وحدات أخرى، وقد وَصلتْ شهرته إلى وحداتٍ لم تتمكن من الوصول إلى مستودع عتاد الجيش (615). ولهذه الوحدات عَملَ سلاح الميكانيكيين والكهربائيين الملكي مشاغلَ مسرح متنقل، ولذا أُخذ العرض لهم.



صورة فريق الإطفاء في مستودع عتاد الجيش (615) الذي كان خليطًا من مقاتلين ومدنيين عرب. يجلس الوكيل (فريد بيج) في الوسط على غطاءِ محرِّك شاحنة الإطفاء مع الكادر العسكري ومدنيين

كانَ العربُ أريحيّين جدًّا في عملهم مع القوات، حتى هؤلاء الذينَ يَعملونَ بوظائف قليلة الشأن حول المعسكر أو في المطبخ. وكانوا إذا لم يحصلوا على وظيفة دائمة في الجيش يسعدون بأي عمل مؤقت بمردود بسيط! وصل (هارولد درابور) و(جاك موس) إلى صرفند مُلْحَقَيْن من مستودع عتاد الجيش (614)،

وقد وَجَدا الحياة أكثر راحةً من حياة المستودع الرئيس! ناما على أسرّة مستشفيات، ولأول مرة في شراشفَ ووسائد. ومما ذكَره (هارولد): «...حتى أنه كانت لنا حماماتٌ فردية بأبواب، وكانت تُفرَّغ كلَّ صباح قبل أن يستيقظ الجند».

بمَبْلَغ بسيط، كانَ الفلسْطينيّونَ المَحليّونَ يَقومونَ بواجباتنا؛ يُرتّبونَ الأسرّةَ ويَأتونَنا بالفاكهة الطازجة كلّ يوم. وكانت معظم المعاملات النقدية من مضاعفات (عشرة مل)، ولكن العرب يتاجرون بعملات أقلَّ حينما يتعامل بعضُهم مع بعض.

في العلاقة الإنجليزيّة العربيّة، كانَ (فريد بيج) الدّليلَ الأفْضل، وبوصفه رئيسَ الإطْفاء له الحرية الكافية بتوسيع عَمَله مُقاولاً. كان يثق بأولئك المسؤول عنهم ليستمرّوا بالعمل بقليل إشراف منه. وكوظائفَ عديدة في مستودع ذخيرة الجيش الملكي يُعتمد على العامل المحلي المدني، ولمْ تُستثن محطةُ إطفاء (فريد) من ذلك فكان فريق عمله ثلاثة عرب: أحدهم في الوظيفة، والثاني احتياط، والثالث مجاز. وكانوا يستمتعون بالعمل مُنسَجمينَ مع الكادر العسكري أصدقاءَ للجند، ويشاركون (فريد) مَزْحَاتِه المعروفة. يقول (فريد): «لقد انقطعتُ عن باقي المعسكر، وعشت معهم، وأكلت معهم، بل شاركتهم رَمَضَانَ. لقد كانوا شبابًا جيدين. وفي إحدى المناسبات، تفوَّقنا على خدمات الإطفاء الخاصة بالجيش في وظيفةٍ بمكانٍ يسمى (ديمرا)».

كانَ والدُ أحد رجال الإطفاء العرب المسؤولَ في مستودع رفح، فَتَعَجّلَ الولدُ في تأكيد نفسه قائدًا، وبنيّةٍ طيبة أَخذ وظيفته العسكرية بعيدًا جدًّا! لقد كانت قيادته الفريقَ في جلسات الاستراحة شيئًا مقبولاً بل عملَ مِقدام. وعلى الرغم من تردد بعض العرب لم ينكروا أثرها المفيد على معنوياتهم، وبالتأكيد كانوا مناسبين لها. ظنَّ (فريد) أن كل رجاله بدأوا يستمتعون بها وأن كل شيء يسير على ما يرام إلى أنْ طلبَ الرائدُ (ثوربيرن) منه تقريرًا.

ولمْ يَستطعْ إخفاءَ ابتسامته عندما عَلِمَ سببَ طلبِ التّقرير وعلّة غضبِ الرّائد!

لقدْ كانَ الرّائدُ (ثوربيرن) يَسيرُ نحوَ المسْتودع حينَ ظَهَرَ رجالٌ بلا طَوَاقٍ يسيرون سيرًا غيرَ مرتب، ولمّا اقتربوا عَرف أنهم العرب الذين يَعملون في الإطفاء! وتَحولت دهشته إلى صدمة حينما ضربَ العربيُّ له التحية! ونَظر إليه الآخرون وغادروا.

رَقّى ابنُ المسؤول في مُستودع رفح نفسَه إلى رتبة عريف برسْم شريطتيْن على ذراعه! وكان نشيطًا، وبالتأكيد لم يُدفع له، فصرخَ الضابطُ بغضب: «لا يُمكنُ أنْ يكونَ هذا!». وكلما تذكر (فريد) هذه الذكرى تبسم وهو يتساءل عما إذا كان الضابط لا يفعل الشيء ذاته.

منطقةُ الطّيرة تقع مباشرةً خلْفَ مُعسكر (153) على مُنحدر من منحدرات جبل الكرمل الغربية، وكانت مصدرًا رئيسًا للعمال في المعسكر والمستودع.

لقدْ كانَ شبابُ الطّيرة يُطلقونَ على أيِّ رجلٍ راقٍ عبارةَ (أولاد نابلس). وكنتُ أظنّ أن نابلس هي مدينة الكتاب المقدس (سادوم) القريبة من البحر الميت، ووجدتُ فيما بعد أن المصطلح لا يعدو مزاح شباب. وقبْل الأزمنة العبرية بثلاثة آلاف سنة كانت نابلس مدينةَ الـ(Sechem)، وحوّلها الرومان إلى (نيبوليس)، لكن هذا اللفظ صَعُب على العرب فصار (نابلس). ومنذ العثمانيين، كان يُعرف عن نابلس والطيرة أنهما مجتمعان عُروبيّان وطنيان. ولذلك قاطعا شركةَ تزويد الكهرباء الوطنية لأن مشروعَها منتصفَ العشرينيات أُحيل إلى مشروع (روتينبيرج) اليهودي. وبدلاً عنها أضاءوا بيوتهم بـ(لَمْباتِ النّفْتا) ويَطبخون على (البريموس).

عُرِفَ عن نابلسَ العصيانُ وعدمُ الطّاعة والتّظاهرُ والشّجاعةُ الكبيرة! لقدْ كانتْ نابلسُ مصدرًا للرفض منذ أن ظَهر الوجه الحقيقي للانتداب البريطاني واكتُشف سرّ الحركة الصهيونية والإمبريالية الغربية.

لقدْ عُرفت الطّيرةُ بعداوتها للغرباء. ودائمًا كنّا نسمعُ صوتَ الرّصاص منها ونحنُ في معسكر (153)، وكنا نعرف مقدَّمًا أنّ هناك فرحًا. وكما في القرى الأخرى، كان السلاحُ يُحمَل حَملاً غيرَ شرعي. وكانت الطيرة خارج الحدود، ولكننا نعلمُ أنه إذا أرسلنا أحدًا هناك فمن الصعب اكتشاف أي سلاح.

القرى العربيّةُ السّهليّةُ مبنيّةٌ من طين، ولكنّ بيوتَ الطّيرة من حجارة على منحدرات الجبل. كانت البيوت بسيطة، وهناك بئر تجتمع عنده نساء الطيرة، والرجالُ يجتمعون في مقهًى يدخنونَ الأرجيلة ويشربون القهوة التركية السوداء الثقيلة.

كانَ هناكَ طريقان إلى الطّيرة: الأوّلُ في طريق الطّيرة الذي يمرُّ قربَ المعسّكر، والثّاني باتجاه الشرق من الطريق الساحلي.

كانَ كثيرٌ من العمال في المعسكر ومستودع عتاد الجيش من الطّيرة. ومِن عمال المعسكر جمالُ بنُ محمّدٍ الريّانُ، كان صديقي الحميم، اصطحبْنا في الحافلات، وهو من المخلصين الفخورين بقريته. دعاني إلى منزله، ولكن تعليمات الجيش أن يذهب أربعة أشخاص يحملون بنادق. وبوضوح، لا يمكنني أن أذهب إلى غداء مع ثلاثة أشخاص غير مدعوين ونحمل بنادق!

مُتيقّنًا بأنّ شرطةَ البوّابة قدْ أُوعِز إليها بضرورة توقيف أيّ شخص يأتي إلى المعسكر، قررتُ أن أَخرج من البوابة وأركب حافلة ركاب الطيرة آخِرَ الخط. والخط الفلسطيني يختلف عن خط الريف الإنجليزي؛ فعلى جانبيه هنا حقولٌ صالحة للزراعة ولا سياجَ حولها. وهذه الطريق لا تنفذ إلى طريق فلسطين الرئيسي الشمالي الجنوبي فقط، بل تمر أيضًا قربَ معسكر القوات المحمولة جوًّا ومن ثَمّ إلى مستودعنا.

تبدو الحافلاتُ المكتظّةُ عائدةً إلى الطّيرة محمّلةً بعدد كبير الإناث اللواتي يُغطّينَ رؤوسهنّ ويلبسْنَ لباسًا أسود. واضحٌ أنهن عائدات من سوق حيفا. قَصفتْ بريطانيا الطيرة عام 1937م، والبيوتُ التي هُدمتْ ما تزال مهدّمة، وقد علمتُ أن الشعور بالعداء تجاهنا ما يزال بين السكان.

ولئلّا أظهرَ بوضوح، وضعتُ طاقيّتي تحتَ كتفي عندما اقتربت الحافلةُ منَ نُقطة الوصول، ورغم اسمراري بَدوتُ إنجليزيًّا وسط حشود من العرب! شَممتُ شيئًا من العداء.. ظهر جمالٌ وتحدّثَ بكلمات منتقاة فتفرّقَ الجمع. ثم سرنا واجتزْنا المقبرة على مخرج طويل مفتوح إلى بيت جمال.

بدا والدُ جمال مميّزًا بجلّابيّته الطّويلة البيضاء وغطاء رأسه وفوقَهُ العقالُ التّقليديّ: الجلّابيّةُ التي تماثلُ المعطف الإنجليزي، والحزامُ حول خصره لا يبدو أنه يشد شيئًا! وكان الرَّجلَ الرابعَ من الرجالِ الأربعةِ الأكثرينَ أهميةً في القرية. وعلى الرغم من أنني ذكرت لوالد جمال اسمي (أريك)؛ ظلَّ يقول لي (جورج)! وقد تلطّفَ بي إخوانُه تلطّفًا وأكرموني إكرامًا كبيرًا!

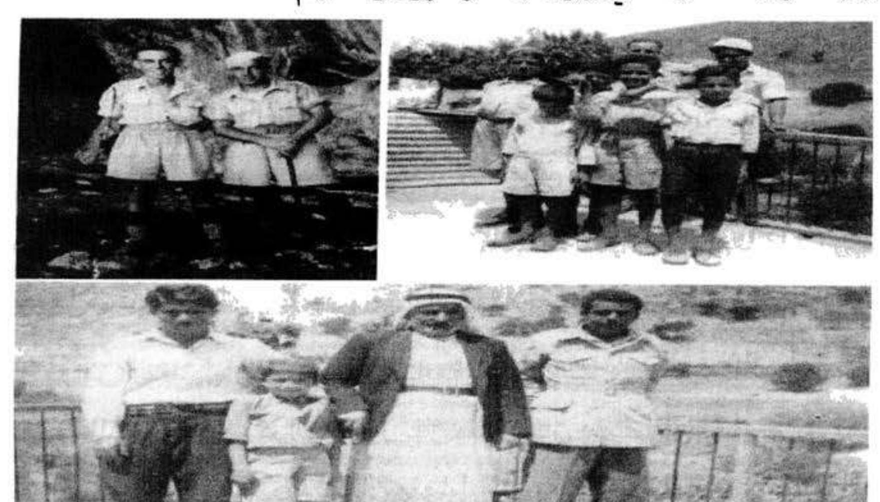
قُدّمَ الطّعامُ على طاولة منخفضة، وكانَ لي شرفُ الجلوس مع والد جمال وأخويه الكبيرين. إخوته الأربعة الآخرون الأصغرون منه جلسوا بعدنا. قُدّمت دجاجةٌ مشوية معها طائر صغير، وعلى الأرجح دجاجةٌ أصغر مع طائر أصغر في وسط الطبق، فضلاً عن أطباق أخرى كالبيض المقلي بزيت الزيتون، وكان البيضُ يؤكل بالخبز من المقلاة.

وبعدَ الغداء، ذهبتُ مع جمال وإخوانه إلى التّلال لاكتشاف الكهوف ورؤية طائر (النّيص) لكننا وجدْنا بعض الريش.. أراني أحدُ الإخوة مسدسَه وأخبرني أن رجال القرية كلهم مسلحون. كانوا يتوقعون مواجهة في وقت ما، لكن هذا لم يكن كافيًا لمواجهة كهذه! لقد كان يومًا رائعًا في تضاريس جميلة تشبه تضاريس (ديربي). استقللْتُ الحافلة ورجعتُ إلى المعسكر، وكنتُ أتوقع مواجهة تحدٌّ ما على البوابة ولكنه لمْ يكن!

كانت رحْلتي الثّانيةُ للطّيرة برفقة صديقي (هاريس)، لكننا ذهبْنا من أسْلاك مُحيط المعسكر، ثم من خلال طريق الطيرة. واجهَنا شابّان برمي الحجارة، لكننا هدّأناهما بالْتقاط صور لهما. تناولْنا الطعام في بيت جمال، ولكنْ بطريقة رسمية أقلَّ من السابقة. بعض الأواني المقدَّمة تشبه الأواني العسكرية. وذهبنا إلى التلال أيضًا، وهذه المرة مع إخوة جمال لتأيف فريق من المكتشفين. وقد أكملْنا يومنا الجميل هذا بشرب القهوة التركية الثقيلة بفناجين

صغيرة تُستخدم في بيت القهوة الصغير. لم يكن مستوى النظافة عاليًا لكننا لا نُحرجُ الذين يستضيفوننا أو نُفسدُ تجربةً جديرةً لشابَّيْنِ غير ناضجيْن في أول رحلة لنا في الخارج.

والأخُ الذي أراني مسدَّسًا بكلّ جراءة كانَ مثقّفًا، وكانَ يردّدُ أقوالاً من إلياذة (هوميروس). لقد كان ذا شخصية قوية، واثقًا بنفسه، يحب اللباس العسكري (الكاكي)! وبعد أيام من زيارتي للطيرة جاء رجل إلى المعسكر وطلبني شخصيًّا، وكان ينتظر في المكان الذي يُبرز فيه الزائرون وثائقهم..



المؤلف وصديقه (هاريس) خلالَ احتفاء جمال بهما، ووالده في قريتهم الطيرة في أعلى اليسار: (لين) والمؤلّف في كهف خلف القرية. وفي أعلى اليمين: (لين) وجمال خلف إخوة جمال الصغار. وفي الأسفل (من اليسار إلى اليمين): جمال مع أخيه الصغير، ووالده وأخيه الأكبر في شرفة منزلهم

وقد كان غيرَ عاديّ أنَّ الزائر أخٌ لجمال! جاءَ ليُرِيَني أنّ من السّهلِ وصولَ المستودع بلا وثائق. وفي رسالة من (برين ريفرز) -الذي حاول دخول الطيرة ومعسكرِ (153) في بواكر 1948م وَتُبُودِلَ إطلاق النار- كتبَ: «في السؤال عن السرقة، أنا متأكد من أن عرب الطيرة ينظرون إليها ضربًا من الرياضة

الأولمبية!». أتذكّر في أمسية عندما دعي أربعةً أو ثلاثة منا إلى بيت المختار لشرب القهوة.. كان في الحشد المتشابه شابٌّ يتكلم الإنجليزية جيدًا (اشتبهتُ أنه ابن المختار)، وبينما كنا نشرب القهوة سأل: «أيكما حاول أن يطلق النار عليّ وعلى رفقائي الليلة الماضية؟ لمْ تُطلقوا النارَ جيدًا لأننا جميعًا تمكنا من الهرب»! لا عداءَ، رياضةٌ جيدة فقط!. لم يكن والد جمال مختارًا بل أحدَ وجهاء القرية. ولكنّ العربيَّ الشابَّ الذي وَصفه (برين) يُمكن بسهولة أن يكون أخا جمال الكبيرَ.

وفي الأسابيع اللّاحقة، زادتْ صداقتي مع جمال و(لِنْ). ولكنْ لسوء الحظّ، أُجريتْ لي في شهر أيلول جراحةٌ في ركبتي أقعدتْني في مركز علاج الإصابات (CRS). وبقيتُ هناك عشرةَ أشهر، ومن ثَمّ نُقلتُ إلى المستشفى العسكري في حيفا، فقطعتُ الاتصالات مع أصدقائي. وكانتْ آخرُ مرّةٍ رأيتُ فيها (لن) وجمالاً عندما كنتُ في المركز وجاءوني بهدايا: شوكلاتة وشراب برتقال.

مَرَافقُ التغسيل والاستحمام التابعة للجيش في فلسطين كانت تُعدّ تطوّرًا معتبرًا للذين في معسكرات المرور في مصر. كان ممكنًا أن تستحم كلَّ يوم في معسكر (153)، ورغم برودته كان منعشًا. كان يعدّ فاخرًا لمنازل بريطانيا المليون التي لا يوجد فيها مثلُ هذا الحمّام! وليست كلّ وحدة مصممةً ليكون بها ماءُ حنفية ولا حماماتٌ أيضًا، لذلك كان معسكر عتاد الجيش (153) مميزًا بالنسبة لهم بالمغسلة المتحركة ووحدات الحمامات(MLBU). (كفر بيلو) جنوبَ اللدّ فيها سكنٌ للمغسلة المتحركة ووحدات الحمامات (MLBU). كانت موقعًا مركزيًّا جيدًا واستراتيجيًّا للاستحمام الحار، للجيش كله وللكتائب كلها في الميدان؛ ومنها القوات الإنجليزية الموجودة في فلسطين كلها حتى حدود سوريا. كان المعسكر الذي يعملون به في منطقة مشمسة فيها رياح، وهي تُطوّق الرملة والقاعدة الجوية، ووادي صرار، مع مستودع ومصنع للذخيرة ومنطقة معزولة عزلاً مناسبًا لصنع المتفجرات وتخزينها. كانت منطقةً واسعة ومفتوحة بلا حدود ومفضّلةً لصفوة الرملة لصيد النسور في ذروة الانتداب الإنجليزي.

تتكوّنُ النّقليّاتُ من اثنتي عشرة عربة، منها جَرَّارَاتٌ (تراكتورات) لجرّ وحدات المغسلة وثلاثُ عربات لوحدات الحمّام. والكتائبُ كلها في الميدان حتى قواتُ المستعمرات كانت تطلبها. وكان (بيرسي بيركيت) مُركِّبَ أنابيبَ وسَبّاكًا، وهو يتذكر واجبًا معيّنًا قام به أكثرَ من تذكره الواجبات الأخرى:

«في العام 1946م أخذنا وحدة الحمّام المتحرّك إلى الخارج، قريبًا من البحر الميّت طرفَ الصّحراء، ليقدّموا مرافق استحمام لوحدة فيها جنودٌ من غرب أفريقيا أدهشونا بارتدائهم عدّتَهم كلها والبسطار في الطابور. أَخبرت رقيبَهم أننا أتينا لتحميمهم لا لتحميم ملابسهم، فقال: «لا تهتم، فقد حَمَّمهم بكل ما يرتدون». هل نستطيع أن نقنعه بعد ذلك؟ ليس مرجَّحًا! ولذلك غسّلْناهم وهم وُقوف، وضحكْنا طيلة الطريق إلى المعسكر! ولسوء الحظ، بينما كنا نقطع الصحراء تعطلتْ شاحنتنا، فكان علينا أن نقضي الليلة في معسكر القوة المحمولة جوًّا، الثّامنة». وقد أَعلن (راديو/ مِذْيَاعٌ) فلسطين «أنّ اثني عشر من قواتنا فُقدوا، وعلى الأرجح قُتلوا حينما كان التوتر في المنطقة في ذروته، ولكن ضابطنا كان سعيدًا جدًّا لمّا رآنا عائدين بعد أسبوع».

لقد قَدَّرَ (هارولد دريبر) أنْ يكون للمرحاض الذي يقضي فيه الإنسانُ حاجته الطبيعية بابٌ. ولكنْ لمْ يَبْدُ هذا أساسيًّا للذين صَمّموا مراحيضَ الجيش الإنجليزي. كان طبيعيًّا في المستودع الرئيسي -حيث كان مدنيون عربٌ ويهود يداومون- أن تجد صفًّا من الحمامات، وجميعها بأبواب، وحمّامات مثلها للإناث. كانت منفصلةً حسبَ الرتبة والجنسية وضباط الصف وسائر الرتب. وثمة حمّاماتٌ أخرى لبقية القوات الاستعمارية. كلّ حمّام مزوَّد بدلو، وكان هناك مواقعُ عديدة في المستودع، ومحتوياتُ الدلو تُكَبُّ بعيدًا.

ولا حاجةَ للقول أنَّ الرّجلَ الذي يقوم بالمهمّة عربيّ. وعلى كلٍّ، في معسكرِ (153) ومعسكراتٍ دائمة أخرى أفضلُ المراحيض الشعبية؛ كانت مبنيةً من

الطوب وتُقدِّم خدمة أفضل من الدلو. وبناؤهم الذي من الواضح أنه عمل متخصّص، من بلاطٍ صلبٌ إطاره حوالي 12 قدمًا، وسمكه 17 إنشًا في أقل تقدير. وكان هذا البلاط القوي يُصفّ فوق فتحات عمقُها لا يقل عن 8 أقدام، وحولَ البلاط ثماني فتحات، وبشكلها وحجمها تشبه مقاعدَ المراحيض الإنجليزية المعروفة. وكان متعاقدٌ فلسطيني يُفرِّغ هذه الفتحات دوريًّا بحبل ودلو، وتؤخذ محتوياتها بعيدًا في عربة، وهي شاحنة مفتوحة، ثم تُفرّغ الفضلات في حقول البطيخ التي لم تكن -لحسن الحظ- تبعد سوى بضعة أميال. وفي العادة، ثمة فلوسٌ زيادةٌ للذين يجدون مسدّسًا أو خنجرَ مَغَاوير (كوماندوز)، وربما يُسرق ويُغرَق بالحمّام حينما يشاع أنْ سيكون تفتيشٌ.

وليكون شيءٌ من التّحفّظ، رُكِّبتْ شاشاتٌ صلبةٌ فاصلةٌ بين الحمّامات، تمنح فرصةَ الجلوس بعزلة أو القراءة بلا إزعاج. ولم يكن الأمر يتطلب أن تستلقي قليلاً لتتحدث مع الشخص الذي يجاورك. ولكنْ ثمة أوقاتٌ تكون فيها المراحيضُ كلها مشغولةً فينتظر البعض مصطفّين ويُصَفّرون غيرَ صابرين. وفي هذه الظروف، الأفضلُ أن تقرأ في مكان آخر. فكرة المراحيض الشعبية ربما جاءت من (هنري) الثامن، وقد سمّاها بيوت الراحة، وكان لها أربعة وعشرون مقعدًا.

معظمُ هذه الحمّامات وُضعتْ في محيط المعسكر أو في منطقة حول السّكن. ولسوء حظ الذين يريدون غسل أيديهم، كانت المغاسل في وسط هذا المعسكر الكبير؛ فالمسافةُ غيرُ مشجّعة للمشي فيها. وفي المستشفى العسكري بمنطقة (بير جاكوف) كان سبّاكٌ وعاملٌ اسمه حسن يأتي إلى مكان عمله على حمار صغير، وكان حجمُه صغيرًا فلا يتحمّل وزنَه! وكلَّ صباح أسأله السؤالَ ذاتَه: «كيف حالك؟» فيجيبني الجواب عينَه: «حسن مريض»، وكان يضع يده على ظهره وابتسامةٌ سعيدة على وجهه ذي اللحية الخفيفة، وكان يشير بإشارة مقصودة بجبينه. وبدا لي أنه بلغ الستين من عمره، وربما تكون أزواجُه الأربعُ هنَّ مَن أشعرنَني بهذا!

كان حسنٌ يُفرّغ الدّلاء كلَّ صباح. والحمّاماتُ في الأجنحة الخشبية، والمبنى كلُّه قائم على ركائز. رجلي ملفوفةٌ باللفّاف الطبي وكنتُ حبيسَ السرير. ولأنني لم أرغب باستخدام نونية السرير كنتُ -فورَ بزوغ الضوء- أسير إلى إحدى الحجرات ورجلي الملفوفةُ متكئةٌ على خيزرانة مستعارة، كنتُ أستطيع استخدام الحمام. وفي إحدى المناسبات جلستُ على الدلو جِلسةً غيرَ مريحة فانكبَّ. لقد وقفتُ على قدميّ مُحْرَجًا ثم رأيتُ حَسَنًا ينظر من الباب..

«آسف جوني» قال حسنٌ وهو يُبدّل الدلو. يبتسم حسن تلك الابتسامةَ الشريرةَ ثمّ يقول: «إنجليزيّ تمام» ويشير بيده إشارتَه البذيئةَ. لا تتوقعْ أن تسمع عن شخص ذهب إلى «الحمام» أو إلى «التواليت».

كانت هناك أسماءٌ عديدة لهذه المراحيض الشعبيّة، فبعض الأفراد -كـ(تيد بيرن)- في مستودع الذّخيرة الأساسي يسمونها «بيوت البرلمان» حينما انتهت الحرب في أوروبا، وسار بمركبته (الجيب) حول بيوت البرلمان إلى أن نفد ما فيها من بنزين.

في معسكر (153)، كانت شاحنةُ النّفايات تسمّى (عربة العسل)، ولكنّ مجموعة عربات (612) تسمّى (شيء ممتاز).

وفي مستودع العتاد الأساسيّ، يسمّي البعضُ الحمّامات (ورود الصّحراء) على رغم بعدها أميالاً عن الصحراء! الوردُ الصحراوي الحقيقي هو (بولي) الذي يوجد في معسكرات المناطق الصحراوية: (غزة، والجيا، ورفح). وسُمّي هذه التسميةَ بسبب طريقة نموه في المعسكرات كلها، وهو كبير الحجم، وسيقانه مغروسةٌ في الرمل غرسًا. وحين يُعشب التراب ويبدأ في جذب البعوض يَشرَع الوردُ بالزحف إلى أماكن أنقى. يتذكر السيد (هارولد) الذي كان في ميدان ذخيرة القوات المحمولة جوًّا فرقةَ التسلية (C.S.E) التي سألتْ: ما هذه الأشياء الغريبة؟! ولمّا بدأتْ تتفتح أرادوا أن يصوروا إحداها. ورود الصحراء هذه حلّتْ بدل الدلاء الموجودة خارج الكوخ ومعهد أسطول الجيش والقوات الجوية وسينما

المعسكر في شمال فلسطين، والفرقُ الوحيد أن هذه تُركت بعيدا عن خطوط الخيم.

لامستِ الحربُ فلسْطينَ قليلاً، وسقطتْ بعض القنابل، والغاراتُ الجوّيّةُ التي تأتي من أوروبا تأتي لتدمِّر. ورغم عدم تقيدها بتعليمات الملك الصارمة، ورغم قوانين الجيش المقدسة؛ تحدّثَ شهود عيان عن قدر ثلاث طائرات (ولينجتون). لقد أخبر (هارولد) أن القذيفة الأولى سقطتْ في المستودع. لم يَنج أحد من الطاقم، ووُجِدَ الذي يجلس على الرشاش الخلفي ميتًا محروقًا فوق صناديق التعبئة. وشوهدتْ الـ(ولينجتون) الثانيةُ وهي تسقط على مقدمتها في البحر في أثناء مجيئها.

سَقطتْ طائرةٌ (ويلنجتون) أخرى وهي عائدةٌ إلى القاعدة، في مستودع العتاد الأساسيّ (2). وطُلب من الحراس أن يبحثوا عن ناجين.. لكنْ لم يُعثر على حيّ! ورأى حارسُ المستودع طائرةً أخرى تُدمّر في البحر، وأخرى كشفَها الكشاف حين قُصَّ مُحرّكها وسقطتْ على جبال الكرمل خلف معسكر (153).

المباني العسكريّةُ الدّائمةُ التي كانتْ في زمن الحرب، بقيتْ في مكانها، وقوّاتُ زمن السلام ظلتْ تعمل في المكان ذاته وفي الأكواخ والورشات عينِها، وقوّاتُ العمل المدنية بقيتْ بالحجم نفسه. لكنْ ثمة فرقٌ كبير في أسلوب الحياة بين الجيلين المقاتلين:

قوّاتُ زمن الحرب تمتعتْ بحُريّة أكثر، ولا عداءَ تجاهها من اليهود أو السكان العرب. وإذا كان ثمّة مجتمعٌ لديه سببٌ لكره الإنجليز فإنهم العرب؛ بسبب قمْع ثورتهم ووعْد اليهود الأوروبيين بوطنهم.

(تشارلي كيد) يتذكّرُ بعضَ أيّامه السّعيدة في فلسْطين، التي أمضاها يقود الدّرّاجة الهوائية بحرية لا يوازيها شيء! هو و(إليك) و(تريفر كيربي) أصدقاءُ من شرطة فلسطين، وما زالوا يلتقون في العشاء السنوي لنادي دراجات (ويلرز بكشي)، ولكن عضوية مجموعة الذين كانوا في الشرق الأوسط قبل ستين سنةً قد انتهت.

فرعُ ناديهم كان يُسمّى (على كيفك ويلرز) ويتألف من عشرين عضوًا من مستودع العتاد الرئيسي (531) في وادي صرار. وكان للنادي فروع عديدة في فلسطين، يُنظمون السباقات وتسلّق التلال، ويعقدون اختباراتِ الوقت للخمسة والعشرين ميلاً أو الثلاثين، وتسلّقَ تلال الأخوات السبع خارج القدس.

كانوا في الغالب يجتمعون، بعضهم ببعض، ويشترون الدّرّاجات من نوع (كلود باتلر) الذي كانَ جزءًا من شحنة أَرسلتْها فيدراليةُ تجارة الدراجات الهوائية. كانت العلاقة بين الجنود واليهود أيامَ الحرب في مستوًى يصعب بلوغه مرةً أخرى. (تشارلي كيد) وراكبو دراجات (على كيفك) -دراجات راحة البال- يستطيعون ركوبَها إلى أي مكان يختارونه. لقد كان (تشارلي كيد) يستمتع بجولة أسبوعية في فلسطين على الدراجة حين فجّرَ ستة عشر عضوًا من عصابة (شتيرين) مركزَ احتجاز اللطرون. وبينما كان راكبًا دراجتَه عائدًا إلى وادي صرار ظنَّ أن نشاطات الجيش والشرطة من النشاطات المسائية أو مراسم.

مركزُ الحجز في اللطرون بُنيَ خلالَ ثورة العرب قبلَ ثلاث سنين. وكان المشتبهُ بهم العربُ يُحجزون هناك بلا محاكمة، وفي العام 1944م حُجز عدد كبير من اليهود هنا، فصرخ العالمُ كله! دليلٌ على تأثير آلة الدعاية اليهودية. وهي الآلة ذاتها التي بدأتْ عام 1945م وما زالت تعمل عملاً محمومًا لتُبرّر معاملة إسرائيل للفلسطينيين.

لقد كان واضحًا من مراسلات صحيفة فلسطين التي سَلَّمَها سلاحُ عتاد الجيش الملكيّ وسلاح الميكانيكيين والكهربائيين الملكي، أنّ التآخي الذي كان في زمن الحرب لم يعد، والعداء للإنجليز اشتد؛ تخلقُه الصحافة الأمريكية وصحفيون يهود.

ومِن مُتع (تشارلي) الأخرى ركوبُ الخيل في (اليا جوردون) في تل أبيب. وهناك صادقَ (فرانك بيل) من مستودع العتاد الأساسي (2)، وقد تجدّدتْ صداقتهما بعد خمسين سنة في صحيفة قصاصات فلسطين، وكلاهما يمدح

صاحب الإسطبل اليهودي. وعندما ذَهب (أليا) إلى لبنان في عطلة حصل (تشارلي) على إجازة أسبوع ليحافظ على الإسطبل، وحتى (أليا) -وهو من شرطة فلسطين- مات.

وَصَلَ الظّرفُ في شباط العام 1947م بحيفا إلى حدِّ الإنذار، لكنّنا لمْ نجدْها في حالة إنذار أكثرَ من الشهور التالية. وفي المستودع، لم نتأثر بالنشاطات الإرهابية الليلية، ولكنْ ثمة حدثان مأساويان كَتب عنهما (برين كروس) في مذكراته:

(6) شباط،

قَفَزَ رجلٌ من مستودع عتاد الجيش الملكيّ من الشّاحنة ورمى رشّاشَ (البرين) على الأرض، وقد مات بطلقة في فمه. حَدَثَ هذا كلُّه أمامَ ضابط صفّ، وأمامي.

(17) شباط،

أَطلقَ (برينكي كرو) في حادث غير مقصود النّارَ على رأس العريف وهو بوظيفة في شاطئ الخياط. وقد اتُّهم بإهمال سلاحه الرشاش (البرين). حُجز خمسةً وستين يومًا مع تدريب خاصٍّ على السلاح. وعلى الرغم من اختراق الرصاصة رأسَه بقي حيًّا أسبوعًا! ونُقل إلى المستشفى العسكري في القدس. ولم يُسمع عنه أيُّ شيء بعد ذلك.

أصبحتْ صلاحيّةُ رشّاش (البرين) قضيةً تحتاج إلى إعادة نظر بعدَ هاتين الحادثتين! وحوادثُ مشابهةٌ عديدة حَدثتْ قبل مغادرة الإنجليز فلسطين ولم نسمع عنِ تحقيق جرى سوى محكمة عسكرية لسوء استخدام سلاح، وإيجازُ هذه المحاكم أذهلَ المحكمةَ المدنية وأعضاءها!

وفيدان آخران في آذار، أثّرا في العمل بمستودع العتاد الأساسي (614) وفي (برين) بالذات، وهما:

(2) آذار

«أعلنت الأحكام العسكريّة في البلدات الرّئيسة كلها. حظر التّجول من الثامنة مساءً إلى الثامنة صباحًا على المدنيّين جميعهم». وقد ألغي هذا سريعًا لأن جُلّ المدنيين أصبحوا يصلون متأخرين إلى العمل.

(22) آذار

«فُجِّرَ نادي الضّبّاط في حيفا. قُتل عديد من الضبّاط أو جُرحوا. كنّا نستمتع بحُسْن ضيافة (بار نيلسون)، وجعلَنا الانفجار نخرج بضِعف سرعتنا».

حظرُ التّجوّل السيّئ والسّريع ربّما كان جيّدًا بسبب انفجار نادي ضباط (جولدسميث) في القدس الذي قُتل فيه أحدَ عشرَ شخصًا وجُرح أربعةَ عشرَ آخرون. وانتهى شهر آذار بتفجير محطة النفط في حيفا، ومن معسكر (153) والمستودع كان من الممكن رؤية الدخان الأسود الذي جعل سماءَ البحر المتوسط كلها سوداء!

7. طريقة حياة

النّظام العسكريّ يُحافَظُ عليه بالإخلاص لتعليمات الملك، وقواعده التي كانتْ تتحكّمُ بسلوك كلّ ضابط حتى الضباطِ غير المكلّفين، وأعمال العسكر. فكان السلوك نحوَ المدنيين متحكَّمًا به. أما النشاطات الإرهابية التي تمتحن الجنودَ فقد كان يُتَعامل معها «وفقَ الموجود في الكتاب». وربما، مرةً أو مرّتين، أدى الإحباط إلى غليان الذين كان واجبَهم حفظُ السلام. لقد كان الإحساس بالواجب هو سبب انخفاض نسبة فقْد أرواح الإنجليز في حده الأدنى، والحفاظ على اليهود من الاضطهاد الذي يقوم به الإسرائيليون الآنَ ضدّ الفلسطينيين بعد خمسين سنة!

حياةُ المعسكر كان يَحكمُها مجموعتان من الأوامر المكرورة التي تُوضَع على لوحة الملاحظات، وقراءتُها إجبارية، وَأَنْ تتجاهلها أو تقولَ أنّكَ لم تنتبه عذرٌ غير مقبول. وبعض النقاط المتعلقة بالأمور الاعتيادية اليومية ثابتة لا تتغير، كالتعليمات الموجودة في الأعلى للعشرين من تشرين الأول (أكتوبر)، هي على الأرجح لا تختلف عن الأوامر الموجودة في الأعلى لأيّ يوم آخر. وكان الجدول على النحو الآتي:

ساعة الاستيقاظ: 6:00

الفطور: 6:15 - 7:00

الطّابور الصّباحيّ: 7:30

طابور العرض: 8:00

الغداء: 12 :15 - 13:00

العشاء: 17:00 - 18:00



معسكر (153) ومستودع العتاد الأساسي في مرتفعات جبال الكرمل

(شيرورد فورسترز) والقوةُ المحمولةُ جوًّا، السادسةُ: كتائبُ مشاة تحتل معسكر الخيم على اليسار. والطريق الساحلي الرئيس يمتد فيما بين المعسكر والمستودع

حرسٌ سوف يصطفّون بالطّابور الساعة السابعة وخمسًا وأربعين دقيقة في ميدان المراسم.

وقد كان هذا العملَ اليوميَّ الاعتياديَّ لمستودع عتاد الجيش (614)، وبلا شك كان كذلك حينما كان مستودعَ العتاد الرئيس (2) أو مستودعًا لأيّ عمل. والبند الوحيد الذي كان يتغير كلَّ يوم هو أسماء السبعة والستين رجلاً الذين عليهم واجبُ الحراسة في الليلة القادمة. وكان الحراس يتجمعونَ الساعة (18:30) ويتفرقون الساعة (5:30) في وقت الفطور، ويغتسلون ويلبسون للواجبات الاعتيادية الساعة (7:45). وفضلاً عن هذا، يُسمّى رجلٌ للواجبات التي تُطلب باكرًا ورجلٌ آخرُ لواجبات أمين التموين بصفته رجلَ مخزن.

في الحادي والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) 1947م، تغيّرت الأحوال حتى صار الجنودُ الذينَ يسيرونَ من المستودع إلى المعسكر يحتاجون إلى حمايةٍ ومفرزةٍ تحمل البنادقَ كلَّ يوم، والمفرزةُ التي تتحمّل مسؤولية هذا الواجب كانت في البند الرابع من الأوامر اليومية.

ليس ثمّة تفاصيلُ صغيرةٌ لتُدرَك، وإذا لمْ يَقْرَأْ أحدٌ بندًا ما ولم يعمل به عوقب.

خُصّص البندُ الخامسُ للدّراسة الخاصّة. وقد طُلب من رجلين أنْ يَكْتبا تقريرًا لمكتب التعليم الساعة السابعة وخمسًا وأربعين دقيقة صباح اليوم التالي، ولمْ يُعرف سبب هذا الطلب! ولكن المرء يفترض أن المرادَ تطويرُ كتابتهما وقراءتهما.

وحدةُ المكتبة كانتْ تفتح أبوابها كلَّ يوم للرّجال الذينَ ليس عليهم واجبات، وكانوا يستخدمونها استخدامَهم مكتبتَهم المحلية. وعلى كلّ، ثمة فرقٌ في التعامل مع الكتب المتأخرة. وكان المرادَ من البند الأخير في الأوامر الاعتيادية للعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) 1947م الجنديُّ (أتها 374) الذي طُلب منه إرجاعُ كتاب متأخر ليلةَ الاثنين العشرين من أكتوبر 1947م، ولو أنه لم يرَ التعليمات لذكّره بها مَن في المعسكر كلُّهم.

تَصل الأوامرُ الاعتياديّةُ اليومية إلى صفحتين، لكنّ أوامرَ الكتيبة لليوم نفسه تصل إلى أربع صفحات وتُظهِر صورةً أفضلَ عن النظام الممل لحياة الجيش. كان البند الأول يتعلق بتواريخ اجتماعات رفاهية مطعم الضباط.

والبندُ الثّاني للعقوبات. لمْ تحدثْ أشياءُ كثيرةٌ ذلكَ اليومَ في المعسكر المنظّم تنظيمًا ممتازًا؛ عقوبتان فقط: الأولى لجنديٍّ اسمُه (جري)، عوقب في السادس عشر من أكتوبر 1947م بالسجن في الثكنات سبعةَ أيام. وعَرَفَ بذلك كلٌّ مَن في معسكر (153) عندما أعلنوا عنه في لوحة الإعلانات.

(واس) كان يطبّق على التّمييز في الأوامر الجيّدة والنّظام، لأنّه فشل في أينَ يتوافقُ مع التّعليمات. الجزء الأوّل من نسخة الأوامر، العدد (247)، الجزء (12) المؤرخ في السادس عشر من أكتوبر، فشل في أن يكتب تقريرًا مفصَّلاً للمعسكر (MI).

عدمُ احترام المواعيد يتسبّبُ في صعوبات، ويُعدُّ مصدرَ أذًى وضرر لخدمة الصّحّة الوطنيّة. لقد كانت مصدرًا للإزعاج والمصاريف، وثمة حالةٌ فُرضتْ فيها عقوبة لعدم الالتزام بالموعد المحدد. ماذا كان سيَحدث عام 1947م إذا نسينا أن نجلب حذاءنا المصلَح من الإسكافي في الموعد المتفق عليه؟ لقد حَدث هذا للجندي (أوزبورن)، ولم يُستدعَ ويُوبَّخ فقط، بل حُجز ثلاثة أيام في سجن الثكنة لأنه نسي أنْ يأتي بحذائه المصلَح من مخزن التموين وفق ما كان مقرَّرًا.

كانت الأوامرُ الاعتياديّةُ اليوميّةُ وأوامرُ الكتيبة من الجهود التي يقوم بها المعاونُ (جينكينز) والقائدُ المسؤولُ الرائدُ (نيومان) اللذان كانا ضابطين غير محبوبين: كان الأخيرُ ميّالاً لوضع الرجال قيد الاعتقال مدةً غير محددة! وبعد ذلك، ومن حسْن حظ الضحايا، كان -غالبًا- ينسى موضوع اعتقالهم.. ربما بسبب شربه كثيرًا!

كانَ البندُ العاشر من أوامر الكتيبة (250) -تحتَ عنوان رفاهيّة طُرود الطّعام- أحدَ البنود التي يحبها الجميع. وهو:

سبعون طردًا من الطّعام خُصّصتْ للوحدة. وهذه الطّرود ستصل إلى بريطانيا في الأيّام الأولى من الشهر الثاني عشر.

تكلفة الطّرد (250 مل)، وأيّ طرد يَضلّ طريقه يُعفى من التكلفة.

وأيُّ شخص يريدُ أنْ يُرسل طردًا، يجب أنْ يَذكر للقيادة رقمَه ورتبته واسمَ وعنوانَ الشّخص المرسَل إليه، الساعة التاسعة. الأربعاء 22 أكتوبر 1947م.

سبعون رجلاً من مئات حوّلوا هذا إلى (يا نصيب).

(250 مل) تبدو كبيرةً لكنّها تعادل خمسةَ شلون (ج شِلِنْ) أو سدس راتبِ جنديٍّ أسبوعيًّا.

البند 11/ القيود: ستٌّ وعشرون مؤسّسةً في حيفا، وتسعُ مؤسسات في طبريّا، لا يُسمح للقوات بأن تتعامل معها. ونصّ هذا البند:

«حالاتٌ من المرض الشّديد، بسبب مياهٍ معدنيّةٍ ومثلّجاتٍ وفواكهَ وحلوياتٍ من مصادرَ غير مفوَّضة، والبائعون المتجولون كانوا هم المصدر. وهذا الأمر إذا لم يتوقف فستصعب السيطرة عليه. وَسَتُعْلَمُ الرتبُ كلها عن هذه المؤسسات التي لا يُسمح التعاملُ معها، المذكورة في الأسفل».

وهذه الملاحظة أُتبعتْ بعدُ بقائمةٍ بأسماءِ مطاعمَ ومقاهٍ وفنادقَ يملكها عربٌ أو يهود.

وكان أوّلَها مطعمُ (سبايني) المعروفُ منذ الحرب العالميّة الأولى. (سبايني) جنديٌّ بريطانيّ سابق، تقاعد في فلسطين وعَملَ مشاريعَ عديدةً تتصل بالطعام. كان أكبرَ مزوِّدٍ ومتعهِّدِ طعام في فلسطين. وقد جَعل جزءًا أساسيًّا من تجارته للقوات الإنجليزية وعائلاتهمُ التي بقيتْ في الوطن حتى العام 1948م.

تَذَمَّرَ (جورج بير) أحدُ مالكي الحانات للمندوب السّامي، من وضْع باره خارجَ القيود وعائلتُه على حافة المجاعة. وفي رسالةٍ من ثلاث صفحات توسّلَ من أجل العدالة: يجب أن يُسمح للجنود بالعودة إلى مؤسسته المسماة (حانة نيلسون) في شارع يافا (67).

وقد استلمَ (بير) جوابًا جلفًا، لدرجة أنّ المندوبَ السّامي لمْ يَستطع التّدخّل. لقد كان (جورج بير) مالكُ العقار قاضيًا في ألمانيا، أَخذ مدخراته كلها معه إلى فلسطين، وبحلول العام 1947م فَتح هذا البار البسيط مع مُضيفتَيْن تتحدثان مع الجنود والشرطة لنتمكّنا من شراء مشروبين، ولو لم يكن هذان المشروبان ماءً ملوّنًا لسَكِرتَا سُكْرًا حقيقيًّا في المساء.

شَرب هناك (برين كروس) مع زميلَين له في الكوخ مرارًا، وكان (جورج بير) يُقدّم لهم بيضةً ورقائقَ بطاطسَ مقليةً ليظلوا مدةً أطول. ولم يكن (برين) يَعرف الاسمَ الكاملَ لهذه العقارات إلى أن قرأ عن رسالة (بير) في كتابِ / "One Palestine Complete" (فلسطين واحدة كاملة) لـ(توم سيجيف).

«ما زلتُ أذكرُ جيّدًا نَادلاً (جَرْسُوْن) سمينًا بعضَ الشّيء، اسمُه (جورج)، ولا بدّ أنْ يكونَ (جورج بير) الذي يُسلط عينيه على الفتاتين (جويس) و(أوليف)»، وهذا ما كتبه (برين) ثم أكمل: «الفتاتان كانتا النّادلتيْن في بار (نيلسون)».

والفقرةُ الأخيرةُ في أوامر الكتيبة تتعلّقُ بملاحظات متفرّقة، وبعضُها إعلاناتٌ شخصيّةٌ عن مفقودات مثل قلم النافورة السوداء الذي وُجد في نادي العرفاء. وكذلك يتساءل المرء فيما إذا كان من الممكن أن يسترجع ذلك الشخصُ الذي فَقَدَ محفظة نقوده وفيها (4500 مل) أي (4.10 جنيهات) في يوم من الأيام! لقد فُقدت بين المعسكر وشاطئ الحمّام.

فَوْرَ خروجكَ من بوّابة المعسكر تجد أنّ طريق الشّاطئ -على الرّغم من أنّه طريق عسكري رئيس- شارعٌ عامّ، وهو يتضمن جزءًا من الطريق الساحلي الرئيس. وكان المعسكر المجاور بيتًا للوحدة المحمولة جوًّا التي كانت قواتها تَسير في هذا الطريق ذاته.

الملاحظة رقم (5) كانتْ مذكّرةً للرّتب كلها، ليُذكّروا هؤلاء الذين يراسلونهم في المملكة المتّحدة بأسعار الطرود الجديدة (وهذه الأسعار الجديدة لم يتقبلها الناس).

أسعارُ البريد الجويّ الجديدةُ كانتْ(21/2d)لرسائل قوات ما وراء البحار والرّسائل التي لا تزيد على (1/1/2) أوقية (أونصة) ولكلّ نصف أوقية زيادة...

وماذا يحصل في صالة عرض الأفلام الخارجيّة؟ كانت آخرَ وأكثرَ ملاحظة تُقرأ. وفي يوم الاثنين من الشهر العاشر 1947م عُرض فلمُ (مدرسة للأسرار)، وبطله (رالف ريتشاردسون).

وبعدَ أسابيعَ من العمل الاعتياديّ، وبمرافق المعسكر الدّاخليّة، والمناخ، والشّاطئ، والكماليات غير المتوافرة في بريطانيا وقتئذ، فضلاً عن الرفقة؛ أصبحت الحياة كلها جميلةً ماتعةً لا مقبولةً فقط.

في العام 1947م، أُرْسِلَ (جوليس نيوجين) و(جاك باسكو) من سلاح عتاد الجيش البريطاني -وهما من مؤسسة رسْم السينما العسكريّة(AKC) - إلى مدرسة الشرق الأوسط لسلاح المدفعية (MESA) بوظيفة محددة هي تأسيسُ وحدةِ فلْمٍ لتدريب مطلقي النار. وكان عليهما أولاً تحويلُ ثُكْنَةٍ (بَرَكْس) متهدمةً إلى صالةٍ صغيرة لإنتاج الأفلام باستخدام أثاث ومواد استعاراها، وقد اعتُمد فيها على الارتجال كثيرًا. لَخّص (جوليس) الاستخدام غير التدريبي للوحدة:

لمْ نكنْ نعرضُ أفلامَ تدريب فقط، بلْ بين الحين والآخر كنّا نستعيرُ فلمًا رئيسًا من مستودع مؤسسة إنتاج أفلام الجيش على جبال الكرمل ونعرض فلمًا للشباب. وقد كان لدينا تسجيلات مخدوشة نعرضها قبل الفلم؛ ولذلك ارتجلنا أن نربط المذياع الذي صنعناه محليًّا بمكبّر صوت (إمبليفاير) ونبث تسجيلاتهم من محطة مذياع حيفا، على أن نقطع صوت المقدِّم.

وللمدرسة أيضًا معسكرُ سينما كبيرٌ يشغله كادرٌ من المعسكر لعرض أفلام من مؤسسة إنتاج أفلام الجيش (AKC). وإذا حدث خلل فني أصلحه (جوليس) أو (جاك)، حتى تشغيل العارِض أو جهاز الإسقاط (البروجيكتر) في مناسبات عند الضرورة. ولأنهما خبيران طُلب منهما أن يعرضا أفلامًا خاصة. ويتذكر (جوليس) طلبًا غير عادي: في يوم من الأيام، جاء ثلاثة ضباط يطلبون عرضَ فلم أتوا به من الخارج بسفينة. ولمّا رأوه فوجئوا، وأبدتْ ردةُ فعلهم مما رأوه تحذيرًا. أراد ضابط أن يعرف ماذا فعلتْ إحدى أدواتهم بالفلم! ثم ذكر (جوليس) أنهم كانوا ينظرون إلى اللوح السالب (النيجاتيف) لا المطبوع.

وذكْرى حيّةٌ أخرى بعدَ ظهيرة يوم أَحَدٍ هادئ وهم في غفوة بمسكنهم ذي الشّخصين في آخر عرضهم السينمائي: لقد أفاقوا على انفجار كبير سبّبَته

عصابة الإرجون في سجن عكا. كانت فِرقُ الإطفاء قريبةً من السّجن فخرجوا.. ثم وجدوا الدخان الناتج عن هذا، ولكنْ بلا أي نشاط!

وعندما حان وقتُ العودة إلى الوطن، كان هناك مؤشّرٌ بسيطٌ يدلُّ على أنّك كنتَ في مناخ كهذا، لو لم يكن شكلنا يدل على أننا كنا في منطقة حارّة. كلٌّ منا، إلا قليلاً، أرادوا أن يذهبوا إلى الوطن بلون أسمر، والجمهورُ أتيحت له فرصةُ الذهاب إلى الشاطئ ليحصل على ذلك. كان علينا أن نَذهب جماعات، تتألف كل مجموعة منها -على الأقل- من أربعة مع أسلحتهم. وكان على البعض أن يَحرسوا البنادق بينما يَسبح آخرون. ما زلتُ أتذكر الإحساس بالحرية ونحن ذاهبون أول مرة. مَشيْنا نحو الشاطئ السبتَ الماضي في الشهر الثاني؛ كان يومًا دافئًا ورائعًا. رفقاء السلاح: (جورج بيلينج) و(ري ماشين) و(كيث هوز) وأنا، وقد أرشدَنا إلى الطريق (يوركي باك هاوس) الذي مرتْ عليه سنةٌ في مستودع عتاد الجيش (614)، وكان دليلَنا لحياة المعسكر أيضًا، وهو -بالمصادفة- الشخص الذي أخذَنا إلى بار (فينس) في حيفا، في رحلتي للراحة في المدينة. مشيْنا على الطريق ومررْنا على معسكر القوة المحمولة جوًّا وبين الحقول الصخرية على الجانبين. مَن الذي يملك هذه الحقول؟! وفي ليلة، كان هناك قطيعٌ من الجمال يرتاح وهو في طريقه إلى مصر. وكان (جيس أوبرين) في وظيفته على بوابة المعسكر في تلك الليلة، وكانت الجمال ترغي بإزعاج طيلة الليل رغاءً يُظهر استياءها، ولكن هذا الصوت أيضًا يعكس رضاها عن طعامها وسقيها. الطريق الرئيس يمر من جانب المستودع. هدوءٌ أيامَ السبت، والكادر المدني في بيوتهم، وهو سَبت اليهود، والقوات في راحة بالمعسكر أو على الشاطئ. وطريقنا على الشاطئ يأخذنا إلى المسرب الثاني، وفي زاوية الطريق كان هناك عربيٌّ مخيِّمٌ وبقربه جبل من البرتقال مكوَّم، وقد كان يبيع العشر برتقالات بـ(عشرة مل)! لم نصدق السعر؛ ألف برتقالة بـ(باوند)؟! وفي الأسابيع التي كان فيها هناك بدأ الكوم يختفي ثم ذهب هو وخيمته.

أنهينا في الحال، أوّلَ أسبوع عَمَل لنا في المكتب، وما تزال بريطانيا مُغلقةً بالشّتاء الأبرد في الذاكرة الحية، وكنا نسير على الشاطئ في طريق شجيرات الزهور. وعلى طرف الشاطئ تكثر شجرةُ الطَّرَفَة، وهي معروفة عند القبائل البدوية بـ(صفصاف الصحراء)، تُظهر الشاطئ بمظهرٍ لا يُتَخَيَّل!



الرمْل النظيف والبحر الصافي جعلا مستودع عتاد الجيش مكانًا مثاليًّا لمعسكر (153) والمعسكرات الأخرى في جبال الكرمل. المؤلِّف يجلس في طوافة أمام برج المراقبة، وغرفُ تغيير الثياب والحمّامات التي نُصبتْ عامَ 1947م. لاحِظ العَلَم الأسود الذي يعني أن السباحة غير مسموحة اليوم. كان المؤلف يعمل مُنقذًا لمدة أسبوع

لماذا كان نظيفًا جدًّا رغمَ أنه لمْ يكُ مَدٌّ ليزيل الأنقاض مرتين في اليوم؟! في العام 1947م بنى الجيش غرفَ غيار وبرجَ مراقبة وحمّامًا حتى الدلو الكبير الذي كان يُستخدم حَمّامًا. كان الرمل ناعمًا ولطيفًا فوق خط الماء، وكان حارًّا

جدًّا معظم السنة لدرجة أنك لا تستطيع السير فوقه على قدميك العاريتين! ولذلك يَترك كلُّ الذين يذهبون إلى الشاطئ للسباحة أحذيتَهم قريبةً ليسهل الوصول إليها. وكنا نبني خيمًا من بنادقنا وألبستنا. وكان بعضُنا يستحمون بسراويل السباحة، وآخرون بالتُّبَّان (شورت Pt)، ومنا مَن يسبح عاريًا، وقد ازداد عدد الذين يسبحون عراةً ازديادًا مذهلاً حينما زارنا فريق من ممرضات الملكة (إلكسندرا)؛ جئن إلى أماكن الرجال فركض العراةُ المغرورون منهم إلى البحر، ولكنْ في أَحَرّ الأيام كان الماء باردًا بما يكفي ليَظهروا كأنهم أولاد صغار!

في الشّهر الثّاني عشر من نيسان، ونحن نتابع أمرًا اعتياديًّا، بدأ الفريقُ العسكريُّ في مستودع عتاد الجيش الملكي يرتدي لباس التدريب الرسمي ذا اللون البني الفاتح (الكاكي). وفي الرابع عشر من نيسان اشتدتْ برودة الطقس، فرأى (جون وايت) بعد ثلاثة أيام أن نعود لارتداء ملابس المعركة. (جون) المسكين وقع في ورطة حتى لو لم يُعاقب، فقد علم أن الجيش قرّر درجات الحرارة التي يُغيَّر فيها اللباس، وقد أنهى مذكراته بكلمتين: «حماقة مرتكبة»، أي: استهانة كبيرة.

بحلول شهر أيار (مايو) بدأتْ درجاتُ الحرارة ترتفع مصحوبةً بقرصات البعوض (النّاموس).. قَدّموا لنا ناموسيّات لننام تحتَها.. رحّبْنا بها لأننا ظننا خطأً أنها ستهبنا شيئًا من الخصوصية!

عادةً، يَسمح لنا بريدُ المملكة المتّحدة بإرسال الرّسائل مجّانًا بلا رسوم إذا كانت الرّسائلُ بوزن معيَّن، كما كان أتيحت لنا فرصةٌ واحدة شهريًّا لإرسال بريد أكبرَ حجمًا وأثقلَ وزنًا مجانًا إلى الوطن، وهو ما اعتبرتْه المملكة المتحدة ضربًا من الرفاهية الممنوحة لنا.

في الثّكنة (14) عمّالٌ مهرة يُسمَّون (صانعو الأشرعة)، مهمّتُهم تحزيمُ وإرسالُ جميع أنواع البضائع في عبوات أنيقة ومرتبة إلى الجيش البريطاني

حيثما تَمركَز.. كانوا يحزمون الطرود التي نرسلها إلى أهالينا. وقد أرفقتُ في طردي علبًا من الفاكهة والشوكولاتة والهدايا الصغيرة ونصيبي المجاني من السجائر. لُفَّ ما أرسلتُه بشكل رائع، في علب مصنوعة خصيصًا، مُحكَمة اللف بقماش القنب، ووُضع على كلّ طرد ملصقٌ من الكتّان يحمل اسمَ المستلم وعنوانه.

في سنوات الحرب، كان العريف (جو نيتي) مسؤولاً عن صنّاع الأشرعة الذين عملوا بجدٍّ وإخلاص وتفان: كانوا يأتون عادةً إلى العمل من قريتهم الفراديس(- Fareidis)[1] التي تبعد زهاء خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب، بشاحنة قَرَويّ. وقد تغيّبوا مرةً أيامًا متتالية، ثم جاء أحدهم سيرًا على الأقدام ليُخبر العريفَ أن الشرطة العسكرية مَنعتْ شاحنات المدنيين من التنقل بين القرى ما لم تكن في مهامَّ رسمية من أجل توفير البنزين الثمين.

وبدلاً من إضاعة الوقت في الإجراءات الرّسميّة، ولأنّ هناك أشياءَ كثيرةً ينبغي إرسالها إلى الوطن؛ كتبَ (جو) مذكرة خاصة ووقّع عليها بالأحرف الأولى من اسمه ولقبه، وهو ما جعل منصبَ العريف يبدو أقرب إلى لقب الملازم! لقد عاد العربي إلى أصدقائه في القرية بستّ نسَخ من المذكرة، وليعدْ صنّاع الأشرعة جميعًا إلى العمل في اليوم التالي بسعادة.

كانَ (ري) و(مي ماكين) حبيبيْن قبلَ الْتحاق الأوّل بالسفينة (إس إس مولتان)؛ وذَكرتْ (مي) أن (ري) كان يبعث إليها في الرسائل جوارب (النايلون) التي يبدو أنه يمكن شراؤها في أي مكان في العالم ما خلا بريطانيا.

---

(1) المترجم: الفراديسُ من أراضي قرية طيرة حيفا المجاورة لمستودع عتاد الجيش الإنجليزي. وجدير بالذكر أنه في إحدى مقابلاتي أحدَ رجال قريتي (طيرة حيفا) أخبرني أن أهل الطيرة كانوا يسمون هذا المعسكر «كمّ الحديد» أو «سبلاي ديبو» أي مستودع التزويد، وقد لفظها كما اعتادوا أنْ يلفظوها في ذلك العهد.

والْتزامًا بقيود وزن البريد المجّانيّ إلى المملكة المتّحدة، كان (ري) يضع فَرْدَةَ الجورب في الرسالة الأولى، والأخرى في الرسالة التالية. كنا نحاول استغلال خدمة البريد المجانية للقوات كثيرًا؛ وقد جَلبتْ لحياتنا المتعة والربحَ حتى الرومانسية. وكَتب الذين لديهم أزواجٌ أو صديقات إليهنّ كلَّ يوم، وكتبوا لوالدِيهم من حين لآخر. اشتُهرتْ في سنوات ما بعد الحرب مجلتان في المملكة المتحدة: (Picturegoer) و(Picture show)؛ وكان لدي إحداهما؛ وربما تكون الأولى، وكان قسْمٌ كبير لأصدقاء القلم (pen pal) يستلم عددًا كبيرًا من طلبات صداقة الجنود. أَرسل (دينيس نوت) الذي كان يَخدم في سلاح خدمة الجيش الملكي (RASC)، المعار إلى مستودع عتاد الجيش (614)، رسالةً إلى هذه المجلة بحثًا عن أصدقاء، وقد تلقى استجابات كثيرة. بغضّ النظر عن خطِّ يد (دينيس) الجميل؛ يَكتب الكلمات بطريقة جميلة، ولديه خيال بديع: صاغ كثيرًا من الكتابات الساحرة وهو جالس في ثكنته الصغيرة المبنية من الطوب، المقابلةِ لمنحدرات جبل الكرمل الساحرة، التي تقع وسط أشجار الزيتون. ومن المستحيل تذكّر تفاصيل رسائله الموجزة الجذابة، لكنها كانت عباراتٍ عاطفية تستثير الدموع، يُصدِرها «جندي وحيد متمركز في مخفر صحراوي»؛ وهذا ما أسبغ عليها سحرًا جذابًا لا يقاوَم!

تلقّى (دينيس) رسائلَ واستجابات أكثرَ ممّا يستطيع التّعامل معه وحدَه، فوزّع على أصدقائه بعض الرسائل للرد عليها تخفيفًا لهذا العبء الكبير؛ إلا أنه ردَّ شخصيًّا على الرسائل التي تضمنتْ نقودًا ورقية، وتكون عادةً من أكبر السيدات سنًّا. ولم يعترض زملاؤه في الثكنة على تلقيه النقودَ لأنه -لكونه رجلاً لم يشرب الخمر ولم يَدخل حيفا إلا ثلاث مرات في العام 1947م- كان مفلسًا دائمًا: كان في منتصف الأسبوع يستدين بعض النقود من شخص ما ثم يعيدها فورَ قبض الراتب. أَنفق أمواله كلها على الحلويات والسجائر، ولم تكن السجائر الخمسون المجانية كافيةً لشراهة تدخينه!

تَطوّرتْ مراسلاتُ أولئك الذين تقاسموا عبْءَ الرّدّ على الرّسائل إلى علاقات مثيرة للاهتمام بَعثتْ فينا المرح. أَحضرَ المتطوعون البريد مدقَّقًا ظرفُه جزءُه الخلفيُّ قبل نداء المستلم حينما كان الظرف المحتوي للرسالة مختومًا بـ(SWALK؛)أي مختومًا بقبلة حبٍّ أو بكلمة (HOLLAND)التي تعني: أتمنى أن يدوم حبنا وألا يموت أبدًا. بل إن بعض أختام الرسائل يشير صراحةً إلى مستوًى غريب من العاطفة الرومانسية؛ كالتوقيع ببعض أسماء الأماكن، مثل (ITALY) التي تعني: أحبك وأثق بك، والأسوأ منها (NORWICH) التي تعني: سأخلع ملابسي لأجلك عندما نلتقي. وما يزيد الطين بلة أحيانًا أن كاتب الرسالة لا يحسن تهجئة كلمة (الملابس) تهجئةً سليمة!

تلقّى (كين باركر) رسالةً من والدة فتاة كانت سابقًا في سلك الخدمة الاحتياطيّة ATS))، وقد راسلها بعد أن وَجد اسمَها وعنوانها على إحدى علب الشموع التي تُوزَّع علينا. أَوضح ردُّ والدة الفتاة أن ابنتها متزوّجةٌ الآنَ ولديها طفلان، وأن العنوان المثبَت على العلبة ربما كُتب قبل ثلاث سنوات، فقد سُرّحت الفتاة قبل عامين على الأقل. ولذلك ذَكر (كين) أن هذا الرد أثار كثيرًا من الضحك والمرح بين فتيان الثكنة!

لمْ يكنْ في حياة المجنَّدينَ كثيرٌ إثارة ومرَح قبلَ وصولهم إلى فلسْطين، ولا يستطيع أحدٌ أن يدعي غير ذلك. وعندما سئلوا عن أيامهم تلك بعد خمسين عامًا أجاب معظمهم أنهم يرغبون باستعادة تلك الأيام مرةً أخرى. إن الإحساس بالإثارة لم يَفُق المخاطر حسبُ، بل عَزّز أيضًا شعور المغامرة؛ فطالما شَعر الكتبة والعاملون في المستودعات وورش العمل بالغَيْرة من السائقين والعاملين في الخدمة العامة بصفتهم مرافقين، لأنهم رأَوا البلاد أكثر منهم بكثير.

استدعي كلُّ جنديٍّ يَخدمُ خارجَ الوطن ممّنْ كانتْ مجموعتُهم المسرَّحةُ قريبةً من المملكة المتحدة إلى البلاد ثم نُقلوا إلى (يورك) ليؤهَّلوا للحياة المدنية، ومُنح كلٌّ منهم بدلةً وقميصًا ومعطفًا واقيًا من المطر وقبّعةً وحذاءً.

وسُمِحَ لهم بالبقاء بعضَ الوقت في إحدى حانات (يورك) الإنجليزيّة، ثمّ أُودعوا القطار وبجعبة كلٍّ منهم صندوقٌ من الورق المقوّى يحوي مجموعة كاملة من الملابس. وفي الواقع، كان يُطلق على هذا الصندوق اسم زِيّ (مونتي الكامل: Full Monty) لأن (Montague Burton) هو صانع ملابس القوات المسلحة، ومن هنا بدأ استعمال عبارة (Full Monty). كانت (يورك) المركزَ الرئيس لتسريح الجيش، أو يمكننا إطلاق اسم وحدة التوزيع العسكري (MDU) عليها.

في سنوات الحرب، تطوّعَ كثير من اليهود والعرب في صفوف الجيش البريطاني، وجَذَبَ سلاح عتاد الجيش الملكي الكثيرين إلى السلك؛ وكان هؤلاء العربُ واليهود قد وصلوا إلى البلاد في سنوات ما قبل الحرب، أو كانوا ملتحقين بالقوات البريطانية أساسًا.

كانتْ هناك وحدةٌ توزيع عسكريّة في (روفيهيت) بالقرب من تل أبيب؛ وكان الجنديّ (جوزيف مانيون) في الطاقم هناك. كتبَ (جُو):

«نُقلتُ من حيفا في يونيو أو يوليو 1946 إلى وحدة التّوزيع العسكريّ (MDU). لا أعرف متى فُتحت الوحدة، لكننا كنا مشغولين كثيرًا بتزويد أعضاء سابقين في اللواء اليهودي بالملابس الغربية، وتزويد العرب بالملابس العربية. كان هناك ستة عسكريين، وخمسة من سلاح عتاد الجيش الملكي، وعريف من الفوج الملكي، فضلاً عن قليل من المدنيين. كان العريف يتقن اللغة اليديشية (لغة يهود أوروبا) التي أثبتت أنها مفيدة للغاية في عدد من المناسبات. وبعد الحصول على المعلومات الكاملة عن الجنود السابقين سُلّمُوا بدلاتهم المدنية. وَزّع العريف البدلات، وتولى سائرُنا مهمة توزيع القمصان والأحذية والقبّعات. وفي البداية كانت الوحدةُ تقع خارج (ريهوفيت)، وقَدّم فوجُ جنوب (ستافوردشاير) الحراسة. وفي آخر المطاف تضاءل عدد المسرّحين فصاروا مجموعةً صغيرة ثم نُقلت الوحدة إلى بلدة (ريهوفيت)، وكان ثلاثة منا يديرونها: العريف، وضابط صف، وأنا. وكان هناك أيضًا مفرزة صغيرة من هيئة الأركان الجنوبية قامت بواجبات الحراسة عمومًا،

ولكن كان علينا أيضًا القيام بواجبات الحراسة بين الساعتين: (6) مساء و(6) صباحًا». «كنتُ مسؤولاً رئيسًا عن توزيع الأحذية. والمرء مخيّر بين حذاء أسودَ أو بنيّ من أربعة أنواع، أتذكّر ثلاثةً منها: حذاءَ (أكسفورد) المثقّب أعلاه، وحذاءَ (أكسفورد) بجلدٍ من لون آخر على مقدمته، وحذاء (أكسفورد) الرسمي».

لمْ يَذكرْ (جو) الصّنادلَ التي تعدُّ أكثرَ الأحذية شعبيّةً عند العرب، كما لمْ يَذكر الأشخاص الذين فَضّلوا نمطَ أحذية (أكسفورد) المثقبة ذات اللون الأبيض وعلى مقدمتها جلدٌ بنيّ. سُرّح عديدٌ من الجنود اليهود الذين خَدموا في مستودع عتاد الجيش (614) بصفتهم ضباطَ إدارة وتولوا وظائفَ في فلسطين. كان (جون إلدر) أحدَ الرجال الذين وُظفوا في وحدة التوزيع العسكري (MDU)، وقد كان المسؤولَ الثاني عن القيادة بعد (فرانك ميشتيل) مدير الشركة الفلسطينية للمخازن في رفح. كَتب (فرانك) رسالة إلى (جون تاران) يخبره عن عودته هو و(جون إلدر) وشركة المخازن إلى مستودع حيفا الرئيس، وقد أصبح (جون) لاحقًا محرّرًا لصحيفة (فلسطين بوست)، ولا نعرف إلى متى لأنه مات في إسرائيل في عمر الخمسين.

في الثامن من تموز (يوليو)، وللمرّة الأولى منذ انضمامنا للجيش، نمْنا على ملاءات (ملاحف)، بعد عام من النوم على البطانيات العسكرية الخشنة، بدون ملابس النوم، وكان هذا تغييرًا صحيًّا للأفضل.

كلَّ يوم يُعيَّن شخصٌ لترتيب الثّكنة ترتيبًا منظَّمًا دوريًّا، وكان من مهامّ هذا الشخص القضاءُ على حشرات الثكنة. وحين كنتُ في الثكنة (56) في المعسكر (153) لم أعلمْ بوجود أي حشرات، ورغم ذلك كنا نَرشّ الأسرّةَ وزوايا الثكنة كثيرًا بمبيدات الحشرات الـ(DDT). وأنا متأكدٌ من أن البطانيات التي ننام عليها قد غُسلت بين الحين والآخر، ولكني لا أتذكر أيَّ شيء سوى النوم بين البطانيات غير المغسولة التي كلما حركناها تطايرتْ منها كتلٌ من غبار الـ(D-DT). وقد يكون فشوّ الطاعون الدّبْلي في حيفا هو سبب توزيع الملاءات علينا لأن الحدثين كليهما حَصَلا في اليوم نفسه.

ومع تفشّي الطاعون، لم يعد كافيًا رشُّ الثّكنة والأسرّة بمبيد الـ(DDT)فشُملت أجسادُنا وملابسُنا بالرش. أُلزم المدنيون -قبل دخول المؤسسات العسكرية- بإجراءات الـ(DDT). قَبل الموظفون العربُ واليهود هذه الإجراءات على مضض، ولكن اليهوديات امتعضْنَ بشدة. وقد اختير القائمون على هذه المهمة بعناية وحذر، وكان (جيس أوبرين) العريفُ الجندي الناضج الذي يكبر معظمَنا بسنة أحدَ المطهِّرين، وكَتب فيما بعدُ إلى سجل القصاصات الفلسطيني (Palestine Scrapbook)، عندما أَظهر التلفازُ البريطاني في العام 1998م كيف أهان الجنودُ الإنجليزُ الهمجيون النساءَ اليهوديات برش أجسادهن بالـ(DDT):

«ظَنَنَّا في ذلك الوقت أنّنا نقدّم لهنّ خدمةً كبيرة، بسبب انتشار الطّاعون الدّبليّ، ولم تكنْ مادة الـ(DDT) متاحةً بسهولة»، وتابع كلامه يشرح الإجراء الذي اتبعه هو وأفراد صفه الستة:

«كانت تعليماتُنا تقضي بأنْ يركعَ كلُّ جنديّ أمامَ الأنثى ويضعَ فوّهةَ عبوة الرّذاذ تحت فستانها. وفي الوقت الذي يتجنب فيه النظر يضخ ثلاثَ رشات من مادة الـ(DDT) داخل الفستان، ثم يقف المطهّر ويطلب منها أن ترفع ذراعيها ليضخ ثلاث رشات إضافية من مسحوق (البودرة) تحت إبطيها؛ ثم -وهما يقفان مستقيميْن- يضخ المطهر ثلاث رشات أخرى على رأسها. وأخيرًا كان عليه أن يطلب منها أن تسحب الجزء العلوي من الفستان، وفي حين يتجنب النظر مرةً أخرى يرش ثلاثًا على صدرها. عرفتَ الآن لماذا عُيِّن أفضل الضباط لهذه المهمة».

تقرّرَ تقديمُ الخدمة مجّانًا للمدنيّينَ من السّكّان، ونُصبت خيمةٌ كبيرةٌ في جزيرةِ مرور في (كينغسواي) بحيفا، ولم يكن هذا العرض إلزاميًّا. نُصبت الخيمة خلف الأرصفة مباشرةً حيث ظُنَّ أنها مصدر الطاعون الذي حملتْه الجرذانُ السوداء إلى البلاد.

حينما أراد الوافدون الجددُ أن يسبحوا أوّلَ مرّة، لم يكن كثير منهم يمتلكونَ ملابسَ سباحة، وكان في المخيم متجرٌ صغير بين متاجرَ نشطةٍ ببيع تبابين السباحة. كان متجر التاجر اليهودي (وُوْلْف) يبيع الكتبَ والمجوهرات والأقلام وصحف الأخبار لأفراد القوات قبل الحرب وبعدها. اشترينا منه سراويل السباحة التي لا حظَّ لها من القماش إلا الشَّبَه. اشترى (جون وايت) قلمَ حبر من النوع الجديد الذي عُدَّ وقتئذ ابتكارًا جديدًا، وكَتب عنه في يومياته: «اشتريتُ قلمًا من (وولف) خطُّه عريض، لكنه سَيفي بالغرض».

بدأت الملصقاتُ تظهر بالمعسكرات في أنحاء فلسطين جميعها، تفيد أنه سيُجلَد أيُّ ضابط تَقبض عليه الميليشيا اليهودية (IZL)، وبالرغم من علاقة (وولف) التجارية طويلة الأمد بالمعسكر (153) الذي كان أحدَ عماله؛ اتُّهِمَ بوضع الملصقات ففُصل من المعسكر.

كان هناك ملصقٌ في المعسكر (153) وآخرُ في معسكر (شيروود فوريستر) بجوار المعسكر (153). كَتب شخصٌ مجهولُ الهوية على ملصق (فوريستر): «لا تنسوا التوراة!». كان المتجر المجاور لمتجر (وولف) متجرًا للَوازم التصوير الضوئي (الفوتوغرافي)، يبيع آلات التصوير والأفلام، كما كان يقدّم خدمةَ تحميض الصور والطباعة ونسْخ الأوراق. لمْ يُمانع مالكُ هذا المتجر من ربح بعض النقود الإضافية ببيْع مطبوعات إضافية من صور جذابة عالميًّا، مثل صور حريق مستودع النفط، وصور سفن المهاجرين. وبعد ما يزيد عن خمسين عامًا عَرض عليَّ (جاك هيبس) صوري التي الْتقطتُها في رحلة فلسطين.

كانت الكتبُ الورقية متاحةً في أحد المتاجر، وكانتْ أغلفتُها مصمّمةً بشكل جذّاب ولافت للنظر؛ لكن كتبَ شركتَيْ (بنجين) و(بيليكان) كانت نموذجًا للكتب التي تُظهر اقتصادَ بريطانيا الحربي المتهاوي، فغلافُها الخارجي مطبوع باللون الأسود ولون آخرَ، ولا يَحمل غير العنوان واسم المؤلف وشعار الناشرين.

كان لكلّ معسكرٍ عادةً حلّاقٌ مدنيّ، ولمْ يُستثنَ المعسكرُ (153) من ذلك. لقد كان حلاقًا ينفّذ طلبات زبائنِه لا رقيبِ الفوج الذي يقضي بقص جوانب الرأس ومؤخرته قصاتٍ قصيرة.

كانت المحادثاتُ التي نتداولُها في الثّكنة -غالبًا- عن الأشياء المفضّلة لدينا في الوطن. وكان تذوق السمك ورقائق البطاطا مرةً أخرى أكثرَ ما يتمناه كثير منا، والقائمة لا نهايةَ لها طبعًا عند الآخرين، حتى إنهم ذَكروا منظر المطر في شوارع مدينتهم الخلفية وهتافَهم لفرقهم المحلية التي تلعب كرة القدم يوم السبت. كان الحماس لكرة القدم في المعسكر قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها شائعًا في أنحاء فلسطين كلها.

لمْ يكن الحماس لكرة القدم محصورًا بالجيش، بل إنَّ الشّرطة الفلسطينيّة أَخْمَسُ، وفي بعض الأحيان لعبَ فريق الشرطة مع فريق الفرقة. دائمًا ما تخلق توزيعات الفصائل ولاءً متشددًا في أنصار كل فريق، لكنها لم تصل قطُّ إلى حدة كرة قدم المحترفين في بريطانيا. وفي مساء كل سبت، كان نصف السكان البريطانيين يجلسون أمام الجهاز اللاسلكي لاستماع النتائج، ثم صباحَ كل أحد تُثبَّت النتائج ذاتها في معسكرات فلسطين جميعها.

يتذكّر (مالكولم إستلي) العريفُ المسؤولُ عن هواتف معسكر (614) أنّ النّتائجَ كانتْ تأتي من المقسم اللاسلكي. كان من الممكن أيضًا لأفراد القوات «ارتياد المسابح»، وكانت القسائم (الكوبونات) متاحة في شبكة متاجر في فلسطين، وكان لمسابح (فيرنون) وكلاءُ أساسيون في تل أبيب وحيفا، ووكلاءُ فرعيون في متجر الكتاب العالمي (Universal Book) في حيفا، وفي متجر بيع اللاسلكي في مركز التسوق، وفي متجر صرفند ومتجر الصور في مركز التسوق. كما كان من المتوقَّع جدًّا حصولُ أفراد المعسكر (614) على قسائمهم من متجر (وولف) في المعسكر (153).

لمْ تُشْتَرَ الكتبُ جميعُها التي تُدُووِلَتْ في المعسكر من داخله بل من مصر بالظن اليقيني، فقد كانت طباعة هذه الكتب سيئةً ومليئة بالأخطاء الإملائية؛ كما كان امتلاك بعضها معارضًا لقوانين السلاح الملكي (KRR).

حُظِرَ الكتابان: كتابُ (عشيق السيدة تشاترلي/ Lady Chatterley's Lover) لمؤلِّفه (د. هـ. لورانس/ D.H. Lawrence)، وكتابُ (قصة حياتي وحبي/ My Life and Loves) لمؤلِّفه (فرانك هاريس/ Frank Harris)؛ لأنهما عُدَّا من الكتب الفاحشة، فمُنع بيعهما للجمهور البريطاني. ما أراد أحدٌ أن يقرأ الكتابين، لكن البعض رغبوا بسماع أو قراءة الفقرات الحارة فقط؛ وكان أحد الأشخاص يقرأ هذه الفقرات فيضحك المستمعون طيلة الوقت. يمكن ردُّ بعض الضحكات التي يطلقها كثير من المجندين الشباب إلى دهشتهم مما يستمعون إليه من الوصف الحميم؛ فليس أغلبُهم على دراية في هذه الأمور.

كانتْ زوجُ (كين براون) -وهو من جنود الحرب- ابنةَ أصحاب سلسلة من محالّ الأسماك، وهو ما جعله ذوّاقةً للأسماك خبيرًا بها، لكن أمله خاب في محاولة العثور على وجبة السمك ورقائق البطاطا المثالية في فلسطين. كانت هناك حانةٌ لبيع السمك ورقائق البطاطا منتصفَ الطريق فوق جبل الكرمل في حيفا ولكن طعمها ليس ما اعتدناه: لم يكن السمك من نوع القدّ ولا مقرمشًا، كما لم تكن رقائق البطاطا مقلية بالشحوم. وكان البديلَ المقبولَ في المقاهي والحانات ومعهد القوة الجوية والجيش والقوة البحرية، البيضُ ورقائق البطاطا لرخص ثمنها وجودة طعمها ولا سيما مع مشروب البيرة (Gold Star).

مَلَّ (لين هاريس) من الطّعام الحارّ الذي يُقدّمه الطّاهي في معاهد القوى الجوية والجيش والبحرية لدرجة أنه أنفق معظم أجره على البيض والرقائق، وادعى أن الحصولَ على مزيد من المال لإنفاقه على الطعام أكبرُ فائدة من فوائد الترقية إلى (عريف).

كنّا دائما جائعين، وأكلْنا الطعام كله الذي وُضع على أطباقنا على الرّغم من أنّه كان بعيدًا كلَّ البعد عن الطعام الشهي. اصطففْنا لنحصل على الطعام من رجال يرتدون قمصانًا ملتصقةً بظهورهم من شدة الحرّ، يقطر العرقُ منهم مشكِّلاً بحيرات صغيرةً على الأرضية الحجرية. قَدّم العاملون العربُ الطعامَ من مِرْجَلٍ بخاريٍّ بمغارفَ كبيرة وقطراتُ العرق تتساقط في الحساء الساخن! ويأتي الضابط المناوب إلى غرفة الطهي ويتوقف عند كل طاولة سائلاً: «هل تشكون من شيء؟»؛ فيجاب إما بصمتٍ غيرِ مُبَالٍ أو بقولٍ ضعيفٍ وغريب: «لا يا سيدي». وإذا تَجرّأ أحدنا وقال أن الطعام لم يكن كافيًا وأنه ما يزال جائعًا، طُلب منه أن يعود إلى غرفة الطهي الساعة السابعة مساءً، وهو ما فعلناه أحيانًا، وقيل لنا أن نأخذ بعض الخبز من الصندوق وقطعةً من الجبن الناشف؛ وبزيادة الطلب طُهي الجبن ووُضع على شريحة من الخبز مع كوب من (الكاكاو)، وعُدَّ هذا هو العشاء.

في أنحاء فلسطين جميعها، تُعِدّ القوّاتُ طعامًا إضافيًّا لها في احتفالات منتصف الليل، وكان سهلاً الحصولُ على المواد اللازمة لذلك، وكان أعضاء سلاح خدمة الجيش الملكي وسلاح تموين الجيش يقايضون بالبطانيات والصابون والقمصان والجوارب، وبالمال إذا تطلب الأمر، ليحصلوا على اللحم البقري والزبدة ولحم الخنزير المقدّد والخبز.

احترقتْ كثيرٌ من الخيم بسبب عمليّة شواء خفية. كان السّائقونَ هم المحرّك الرّئيس في أعمال خدمة الطعام الذاتية، ليس -حصرًا- لأن شاحناتهم مهيأة للطهي في الرحلات البعيدة، بل لأنهم تمكنوا من شراء البيض في جل الأماكن. كانت أغلب المنازل تربي الدجاج في القرى جميعها، وبقليل من المال يشترى كثير من البيض، وكانت المقايضةُ بالبطانية كثيرًا من البيض.

طالما تَحدّثْنا عن مستقبلنا في أوقات الفراغ، ولكنّ معظمنا لم تكن لديهم فكرةٌ عمّا ستؤول إليه أحوالهم؛ فقد كانت سنوات تشكيل حياتنا المهنية تنزلق

بعيدًا. كان زميلنا في الثكنة (بيتر جرين) يعرف بالضبط ما يريده، ولم يساورني أدنى شك في أنه سيحقق طموحه؛ أقنعتني بهذا تصرفاته، فقد كان من أكثر الرجال ترتيبًا وهدوءًا. ويمكن للمرء أن يقول إن هذا الجندي سيكمل خدمته ويعود إلى وطنه كما فعل الإنجليز قديمًا. وقد صح هذا التنبؤ فعاد (بيتر) إلى مزرعة (لينكولنشاير) لمواصلة عمله الذي توقف عنه حينما التحق بالجيش، لقد قام بواجبه ثم عاد إلى موطنه. لم يكن صعبًا العثور عليه بعد خمسين سنة، فقد أَمْكَنَ إعلانٌ مجّانيٌّ عنه في مذياع (لينكولنشاير) من مكالمته فاتصل فورًا. لقد عاد إلى المزرعة التي رُبّي فيها وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبقي هناك حتى تقاعده، وقد تولى منصب مدير المزرعة.

وطالما حلم زميلُنا (توبي ماسن) بأنْ يصبح مثلَ والده صحفيًّا يعمل لصالح صحيفة (Fleet (Street، لكن تتبُّع الرفاق القدامى في لندن العالمية أصعبُ كثيرًا منه في المحافظات. حينما كنا نفكر في العودة إلى الحياة المدنية نتساءل: كيف نملأ ساعات فراغنا؟ ماذا سنفعل مساءً في المعسكر إذا لم يكن علينا واجب الحراسة، فهناك صالة الأفلام التي نرتادها تعرض فلمًا جديدًا كلَّ ليلة، كما كان لنا نشاطات اجتماعية في مراكز تجمّع أفراد الجيش والبحرية مع الأغاني الجماعية حول المِعْزَف (البيانو).

غالبًا ما كانت الأغاني أغانيَ صاخبةً بعبارات بذيئة، وتضمّنت المجموعةُ أغانيَ إيرلندية للمتمردين وأغاني (لِيلِي مارْلِن) أيضًا. وكان من تقاليد أفراد الجيش غناءُ الأغاني التي كتبها العدوُّ لرفع معنويات قواته أو لخفض معنويات قواتنا. كان (إيدي كارترايت) أحدَ عازفي البيَان (البيانو) المشهورين، يبدأ ألحانه دائمًا بأغنية (ديزي): ديزي أعطيني جوابَك Daisy، Daisy give me your answer، ثم أغنيةُ: عينان سوداوان جميلتان Two lovely black eyes، وأغانٍ أخرى لضمان مشاركة الجمهور، سواء أَوَقَفوا حول البيَان أم جلسوا على الطاولات. نجح (إيدي) في الابتعاد عن أغاني الجيش بذيئة الألفاظ إلى أن اكتشف أن هناك نسخةً بديلة

لأغنية تسمى (بعد انتهاء الحفل/ After the Ball was over). ولإرضاء أهل (لانكشاير)، غنى (إيدي) أغنية (شابة من لانكشاير/ She's a Lassie from Lancashire). ولإرضاء الأسكتلنديين غنى (أنا أنتمي لغلاسكو/ I Belong to Glasgow)، لكنه اختار بنفسه أغنية الليلة (الحالم الجميل/ (Beautiful Dreamer) و تذكار/ (Souvenirs) و أصبح عاطفيًّا أكثر منك/Getting Sentimental Over You و(طريقي/ my Way)وغيرها كثير.

في الثّكنة، طالما تحدّثنا أحاديثَ اجتماعيّة، وطالما كان بيننا شخصٌ نشركه في مشاكلنا الشخصية. يتذكر (ستان بوب) إحدى هذه المناسبات في الثكنة (615) في رفح، حين تلقى أحدُ رفاقه رسالة من صديقته تخبره أنها تركتْه وهي الآن مع شخص آخر. تعاطفَ له الزملاءُ فورًا. ضَجّ الجميع وجمعوا صورَ فتياتهم ومرروها إلى الرجل الحزين، وقال له أحدهم: «أرسلْ هذه الصور إليها وادَّعِ أنك نسيتَها واطلب منها أن تنتقي صورتها وترسل لك الباقي».

يوجد عادةً في كلّ معسكر واحدٌ على الأقل من مُثيري الشّغب، وكان (ألين ستيفنسون) أو (ستيف) هو مشاغب المعسكر (56): دائم العراك في الحانات، دائم الشجار مع أعضاء الثكنات الأخرى، كما أنه يتشاجر مع زملائه في الثكنة. وكان (لين هاريس) الرجلَ الأكثر هدوءًا في الثكنة، لكن (ألان) جَدع أنفه فدخل المستشفى. وفي إحدى الليالي، أقامت مجموعة من الأسكتلنديين حفلة تسريح، وذهب (ستيف) ليشارك في المرح، لكن ما فعله في الحفلة يكفي ليلاحقوه إلى الثكنة، وتلا ذلك قتال فطُعن بشوكة حادة. تُكُتِّمَ على الاشتباك، وعَقّم ضابط النظام الجرح وضمَّده، ولم يتطرق (ستيف) أو الأسكتلنديون أو الشهود إلى ذكر هذه الحادثة على الإطلاق. وفي مناسبة أخرى أَطلق (ستيف) رصاصة طائشة من مسدسه اخترَقت السقف الحديدي وأحدثت فيه فتحة تسربتْ منها مياه الأمطار إلى الثكنة.

صعبٌ أنْ نتخيّلَ وجود معسكر للجيش في موقع أفضلَ من المعسكر (153): فقد كان موقعُه واضحًا تمامًا من ميناء حيفا، وهو قريب بما فيه الكفاية من

البحر وسفح جبل الكرمل. وفي أحد الأيام انطلقتُ أنا و(لين) لاستكشاف روافد التل العليا حيث قَتل إيليّا أنبياءَ بَعل. صعدْنا الكرمل في الاتجاه الشمالي الشرقي على أمَل الوصول إلى القمة في مكانٍ ما خلفَ شاطئ الخياط. بعيدًا قليلاً عن المعسكر، وعلى جانب التل، مررْنا بالموقع الذي وشّحه السواد حيث كان قبلَ أسبوع أو أسبوعين كوخٌ بجانب شجرة تين؛ لقد كان منزلَ عائلة عربية فقيرة. قام الرجل العربي ببناء منزله البدائي من عُلب معدنية مسطحة ثَبتها على إطار من خشب الخردة. وفي صباحٍ من ربيع العام 1947م دُمِّر المنزل كله بالنيران، وشاهدناه بلا حول لنا ولا قوةٍ من خلف سور المخيم.

فوجئنا لمَّا وصلْنا إلى أعلى السّفح برائحة الإسمنت المخلوط حديثًا؛ حيث تبنى منازلُ جديدة، وفوجئ البنّاءون بوجودنا كما فوجئنا نحن أيضًا بوجودهم، لكننا كنا خارج الحدود تمامًا وتراجعنا سريعًا.

كان (أليني) يوقّر الأماكن المقدّسة في فلسطين، وقد انزعج من استخدام الحديد موادَّ للسُّقُف في القدس وحَظر ذلك. أزيلت المنازل التي سُقِفتْ بالعلب المعدنية غير المتناسقة، ولكن هذه المساكن الخرسانية كانت أيضًا غير مناسبة للمكان على نطاق واسع. ثم وصلْنا إلى طريق (هربرت صموئيل) الذي يمر بقمة جبل الكرمل.

جاء الإسمنت من مصدرٍ محليٍّ: مصنعِ (نيشر لاجور) الضخم في منطقة (جالاما). وقد جُهّز للبناء على منحدراتِ جبل الكرمل السفلية شمال شرق حيفا.

كان الخيّاط اسمًا مألوفًا عند الذين خدموا في فلسطين كلهم. كانت هناك شركةُ حافلات الخياط، والمقبرة العسكرية في شاطئ الخياط، كما كان هناك قاض في القدس في أربعينيات القرن الماضي بهذا الاسم أيضًا.

سُمِّيَ الشّاطئ (شاطئ الخياط) على اسم عائلة الخيّاط التي امتلكتْ شركةَ حافلات النقل ولها نسبة كبيرة من ممتلكات حيفا. كان مسكنهم الرائع على

المنحدرات الغربية لجبل الكرمل المطل على خليج حيفا. غالبًا ما كان (برين ريفرس) وزملاؤه الضباط ضيوفًا على (ما) -بتعبير (برين)- خياط، وغنَّوْا معًا أغاني (هوجي كارميكال) على شرفة منزل الخياط. قال (برين): «(ما الخياط) كان من مشجعي (هوجي) وقضى جزءًا كبيرًا من كل عام في أمريكا».

المراجع:

1.فلسطين كاملة.

2.ذكريات غير منشورة لـ(جيس آبرين).

8. انتهى الوقت

ثَمَّةَ ظُروفٌ تَحُول بين الجنديّ وواجباته اليوميّة، وكانت المغادرات أَشْيَعَ أسباب الغياب عن الخدمة، وكانوا يُسْعَدون بها كثيرًا، فضلاً عن الإجازة الإقليمية إلى مراكز الإجازة في البحر الأبيض المتوسط، كما يمكن أن تجاز داخلَ المخيم لكنها بديل غير مرغوب. قد يَكسر الاستلقاءُ في إحدى ثكنات الاحتجاز الرَّتَابَةَ الاعتياديةَ اليوميةَ (الروتين) لكنه لا يعَد عند معظم الأشخاص عرضًا مقبولاً. وأخيرًا، ثمة حياةٌ مريحة في المستشفى إذا كنت تستطيع تحمل الإصابة أو المرض.

كانت الإجازةُ الإقليميّةُ -خاصّةً- جذّابةً للجميع. وفي زمن الحرب، كانتْ أرضُ الحليب والعسل المقدسةُ مركز الإجازة المتميز. لكن شعبيتها تقلصتْ في وقت السلم وتراجعت تمامًا بعد انفجار فندق الملك داود. ثم صار الحليب حامضًا والعسل مرًّا. فقد أصبحتْ هذه الأرض المقدسةُ أرض قتْل وفوضى. كانت مراكز المغادرة في لبنان وقبرص ومصر، وكانت قبرص مفضَّلةً أكثر، وكان أكثرَ الأمور غرابةً الوجودُ في لبنان شتاءً!

أَخَذَ (جاك هاريس) -الذي تَنَقَّلَ في خدمته زمنَ الحرب من (نورماندي) إلى (بلسن)- في شباط (فبراير) 1946م إجازتَه الأولى منذ وصوله إلى فلسطين في أيلول (سبتمبر) 1945م، وقد خُيّر بين أن يجاز أسبوعًا في قبرص أو أسبوعين في مركز تزلّج بلبنان، فاختار هو وصديقه (ديفيد شابمان) مركز التزلج.

منذُ ستين عامًا مَضَتْ لمْ أَحْصُلْ على إجازة أفضلَ من هذه الإجازة. انطلقْنا بسيارة (جِيْبْ) على طول الساحل الجميل المحاط بجبال تكاد تسقط في البحر!.. وَصلْنا في آخر المطاف إلى بيروت التي احتلها الفرنسيون مدةً طويلة.. لدرجة أنك في حياتها الليلية تشعر كأن باريسَ انتقلتْ إلى البحر! وللأسف، لم يُسمح لنا بالبقاء في بيروت إلا ليلة واحدة. وما كان يَهمنا هو الوصول إلى أرز لبنان، وهي

منطقة يرتادها العرب الأغنياء منتجعًا لقضاء العُطَل. كانت المنطقة مغطاةً بالثلوج المتموجة السميكة، وأشرقت الشمس من بكرة الصبح إلى أن حل الليل. كنا على ارتفاع عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر ونستطيع النظر من الجبال إلى البحر الأبيض المتوسط. تعلمنا تزلج الجليد بسرعة رغم عدم وجود مصاعد أو وسائل مساعدة أخرى، ولكن لأننا شبابٌ ورياضيون أصبحنا متزلجين ماهرين بسرعة. لم نُرد لهذه العطلة أن تنتهي. وفي الواقع لمْ تنته الرحلة في وقتها المحدد، فقبْلَ يوم من مغادرتنا عصفتْ عاصفةٌ ثلجية رهيبة قَطعت الطريق تمامًا بين الأرز والساحل. كان مستحيلاً استخدامُ الطريق، وتَعطّلت جرافة الثلج الآلية التي أُرسلت من بيروت.

«الاستراحةُ الواجبةُ لمدّة أسبوعين تحوّلتْ إلى شهر كامل من الطّعام الجيّد والبيرة المنعشة وأشعة الشمس الساطعة. وفوق كل شيء، كان هناك مركز راحة للممرضات في أحد الفنادق، فكنا نَرقص كل ليلة. واهًا! يا لها من حرب جميلة!»

إنّ امتداد المياه الزّرقاء الصّافية من ستّينَ إلى سبعينَ ميلاً بين فلسطين وقبرص مَيَّزَ الجزيرةَ ميزةً كبيرةً عن مراكز الإجازات البديلة على هامش البحر الأبيض المتوسط. غادرتْ سفينة الإجازة (تريبوليتانيا) الرصيفَ مشدَّدَ الحراسة في حيفا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. وفي المرات كلها قبل المغادرة إلى (فاماغوستا) تُفتِّش هيكلَ السفينة الضفادع البشرية بحثًا عن ألغام إرهاب متوقَّع، كما كان يُفحص ركاب السفينة كلهم قبل الانطلاق لئلا تُنقل إصاباتٌ أو كائناتٌ دقيقة (فيروسات) إلى قبرص، وفورَ عودة المسافرين يُفحصون فحصًا طبيًّا آخر للتأكد من أنهم لم يعودوا بأي مرض. جزيرة الإجازات تقدّم للقوات الآتية من فلسطين التي مزقتها الحربُ فرصةَ الذهاب بلا قيود والتجول بحريّة في المدن والقرى والشواطئ وفق الرغبات.

يستطيع أفرادُ القوّات الفلسطينيّة الهروبَ من زيّهم العسكريّ والأسلاك الشّائكة للاختلاط بالمدنيين. وأما الراغبون باستبدال الجبال الباردة المكسوة

بالصنوبر بحرارة فلسطين فيمكنهم أخذ إجازتهم في (ترودوس) على ارتفاع خمسة آلاف وخمسمئة قدم فوق سطح البحر في مخيم شجرة الصنوبر (Pine Tree) الذي يبعد ميلين فقط من جبل (أوليمبوس). كان سكن الجنود خيامًا، ولكن ثمة ميزات عديدة منها قاعة الرقص وصالة الأفلام والمرافق الرياضية والحانة مع أجواء ريفية ومشروبات كثيرة غير متوافرة في بريطانيا ولا فلسطين.

عادت القوّاتُ التي اختارت الإجازةَ في (تراودوس) منتعشةً انتعاشًا كبيرًا بتسهيلات الشركة، وقضى مئات المدنيين والأزواج وعائلات الرجال الذين خدموا في أنحاء الشرق الأوسط جميعها إجازاتهم هناك، وعادت القوات تتحدث عن الأشخاص الذين الْتقَوْا بهم وصحبة النساء التي استمتعوا بها. قَدّمتْ خدمات النساء التطوعية وسائلَ الراحة المنزلية التي تضمنت رعاية المجموعة الرياضية. كان الجنود العُزَّاب الشّبابُ أكثرَ انجذابًا إلى (فاماغوستا) ميناءِ قبرص الرئيس، لحياته الليلية وحاناته العديدة، ولشواطئه الرملية المشمسة نهارًا. خُيِّرَ الشُّبَّان بين مركزين: معسكر (181)، ومركز الرمال الذهبية الذي تديره مراكز الجيش والبحرية. قَدّم المركزان كلاهما كثيرًا من وسائل الراحة للذين كانوا مرتبطين بعملهم ارتباطًا كبيرًا وغيرَ قادرين على مغادرة المخيمات.

من المتوقع أنْ يَخيبَ أملُ رجال مستودع عتاد الجيش (614) والمعسكرات الأخرى من صالة الأفلام في (فاماغوستا) و(نيقوسيا)، لأنها تعرض أفلامًا أقدمَ كثيرًا من تلك التي تُقدمها مراكز خدمات الجيش. تشتهر قبرص بكثرة الأماكن التاريخية المهمة، وتستطيع بأربعة بنسات (أقل من بنسيْن في عملة المملكة المتحدة اليوم) استئجارُ دراجة للتجول في أماكن السياحة القريبة، كما تستطيع مشاهدة أكثر معالم السياحة بعدًا.

وسطَ قبرص، يُقدِّم نادي (غاريسون) مركزًا آخرَ للإجازة يتضمّن مسبحًا يُعوِّض غيابَ البحر والشاطئ. وإذا كنتَ تتكيّف مع الحرارة المرتفعة فهذا هو المخيم المثالي للعطلة في المدينة وللتسوق. كان الجنود الذين يَخدمون في بريطانيا

ويذهبون إلى منازلهم في الإجازة يُمنحون بعضَ المال بدلَ معيشة. وفي مخيمات قبرص للإجازات، يَدفع الجيشُ بدلَ معيشة مباشرةً إلى منظمات الجيش والبحرية (NAAFI)، ويستطيع الشخص أن يَستقلَّ سفينة إلى قبرص مجانًا، كما يحصل على بطاقة مجانية لاستخدام قطارات السكك الحديدية في بريطانيا. وفي الإجازة عَدّ الجيشُ نفسَه مسؤولاً عن نقل الجندي إلى وجهة مغادرته بلا تكلفة.

كانت السّكناتُ بسيطةً بعضَ الشيء: ففي الرّمال الذّهبيّة -مثلاً- الخيامُ على الشّاطئ، وقُدم الطعام في خيمة كبيرة، وكان هذا المنتجع هو الخيار الأكثر شعبيةً إلى حد بعيد، أما الأشخاص الذين يفضلون العطلة في شاطئ البحر فثمة منتجعُ (كيرينيا) الأبردُ.

ذَكَرَ (جيف بوك) أنّه وزميليْه (جيم ناب) و(ستان كوكس) أمضَوْا معظمَ إجازتهم على شاطئ في منتجع الرمال الذهبية، وفي بعض المناسبات استقلوا القطار إلى (فاماغوستا).

استمتع (أيان كريستي) مع صديقين بأسبوعهم في منتجع الشبان المسيحيين في (كيرينيا) حيث بَقُوا هناك للمبيت والإفطار فقط. كانت (كيرينيا) قاعدة لمشاهدة معالم السياحة في شمال قبرص، وكان عليهم استخدام سيارات الأجرة للوصول إلى أماكن عديدة. من المحبِط لـ(جيف) و(أيان) أن تكون في أرض الحرية حيث يوجد كثيرٌ مما يُرغب برؤيته والقيام به وليس لديك إلا قليل من المال!

كان لبعض المحظوظين وظائفُ ماتعةٌ كأنّها إجازةٌ مستمرّة، ومن هؤلاء الرّقيبُ (ري يالوب) الذي طالما سافر إلى مستودعات القاعدة في التل الكبير لتنظيم قطع الغيار التي يحتاجون إليها، ووَصف فقال: «كانت هذه الأسفار كالإجازة تمامًا، كنا نفطر الساعة الثامنة والنصف صباحًا ثم نذهب إلى المستودع للتحقق من بريد حيفا قبل الذهاب إلى معهد البحرية والجيش والقوات

الجوية لشرب القهوة.. نعود بعدها للتحقق من الأقسام المختلفة للتأكد من التعامل مع جميع الطلبات. وبعد الغداء نستأجر شاحنةً عسكرية لتُقلّنا إلى الإسماعيلية لنسبح في البحيرة المرة الكبرى، ثم نعود في الوقت المناسب لشرب الشاي بعد الظهر قبل التحقق من تحميل المواد. كنا نرتدي ملابس السهرة كلَّ مساء لنتعشى في الفوضى التي يعقبها دائمًا عرضُ فلم. كان هناك شخص مسؤول عن جهاز العرض، وشاهدْنا أحدث الأفلام على الدوام».

في وقت مبكّر من العام 1948م حينما كان يجري إخلاءُ فلسطين، شُحنت بضائع المتاجر إلى خارج حيفا، وكانت قوافل الرجال والمواد تسير جنوبًا بالطرق الترابية الصحراوية إلى مصر.. في ذلك الوقت، نَقل مستودع عتاد الجيش الملكي (RAOC) اثنتين وخمسين وحدةَ غسيل ملابس وأحواض استحمام متنقلة إلى رفح لتزويد وحدات الحماية الخلفية بأَدْشَاش ساخنة ومرافق لتغسيل الملابس. وكان (دينيس بيرنز) أحدَ الرجال المشاركين في تلك العملية، ولم يمكث في رفح إلا بضعة أسابيع عندما أصيب بالْتهاب اللوزتين الإنتاني، وهي شكوى تحتاج إلى عناية مهنية احترافية، وليس في رفح قدرة طبية مناسبة، وكانت المستشفيات العسكرية هناك مغلقةً أو على وشك الإغلاق؛ وهذا يعني رحلةً عبر سيناء بسيارة إسعاف إلى المستشفى العسكري في (فايد).. وَصل هناك ليلاً. يقول: «استيقظت صباح اليوم التالي فوجدتُني في جناح الحالات الخطيرة، وما هذا إلا إجراء مؤقت، فسرعان ما نُقلتُ إلى جناح الجراحة. وبعد العملية، وُضعتُ على حِمْية من (الآيس كريم والجيلي) أسبوعًا تقريبًا، ثم نُقلتُ إلى مستودع (دفرسوار) للنقاهة لمدة أسبوعين للراحة والاستجمام. كان هذا أشبهَ بعطلة».

كان من الماتع لـ(دينيس) تركُ الأسلحة جانبًا والهروب من النشاط المحموم للانسحاب من الأرض المقدسة. كان قادرًا على الذهاب للسباحة، وفي بعض المناسبات سَبح في قناة السويس.

كان (دينيس) يعرف أنّ هذه الاستراحةَ الماتعةَ لا يمكن أنْ تستمرّ إلى الأبد،

لكنّه لمْ يُدْهَش حينما نُقل إلى معسكر العبور (156) في بور سعيد، وقد اعْتُرف بهذا المعسكر معسكرًا لطيفًا بعضَ الشيء، يعمل به أسرى الحرب الألمانُ الذين قاموا بالأعمال المنزلية جميعها. كان المعسكر مُتَجَمَّعَ الذين عادوا من فلسطين إلى وطنهم واستقروا فيه. وَجد (دينيس) الحياة في بورسعيد أفضلَ منها في رفح، وبقليل من الحظ قد يوضع على متن سفينة مع قدامى المحاربين الفلسطينيين أثناء عودته إلى المملكة المتحدة، لكنه أخطأ، فقد اضطر للعودة إلى رفح.

قبلَ الحرب وفي أثنائها، حُدِّدَ سنُّ ترْك المدرسة عند الرّابعةَ عشرة، وبحلول العام 1945م كان عديدٌ ممن في سن العسكرية في مهن محجوزة (الخدمات الأساسية للدولة) ومستثناة من التجنيد. كانت أحوال المجندين ممن ليسوا في مهن محجوزة مؤلمةً إذا ما قورنوا بأقرانهم ذوي المهن المحجوزة الذين يتلقَّوْن أجورًا عاليةً فضلاً عن المستقبل المشرق المحدد. لم نعِ هذه الأمور وعيًا عميقًا ونحن في الثامنة عشرة، لكن تعليمنا العام لا ينتهي بترك المدرسة. أكسبتْنا الحياة العسكرية علومًا وخبرات لا تُكسبها الجامعات؛ فقد كنا نناقش القضايا السياسية والاجتماعية في مراكز التعليم والثكنات المعدنية والرحلات الميدانية في الأراضي التي تَمركزْنا فيها، كما درّس الرقيب (أيان كريستي) القراءة والكتابة والرياضيات لِمَن يحتاجون إلى ذلك.

بَذَلَ الجيشُ البريطانيُّ جهدًا كبيرًا لتوفير فرص مواصلة التّعلّم وإتقان المهن بعدَ الخدمة، فمثلاً زُوِّد (جون ترارن) بالكتب والمواد الضرورية ليواصل مهنتَه المحاسبةَ: دَرس في رفح خلالَ ساعات العمل خارجَ المنزل على ضوء مصباح محمول في خيمته. كانت فلسطين فرصةً فريدة للاهتمام بالتاريخ من خلال زيارة المواقع التاريخية والدينية المهمة مثل أنقاض قلعة الصليبيين والمساجد القديمة والأماكن التي زارها المسيح (عليه السلام).

حينما وَصَلَ (بيل هاورد) إلى فلسطين عامَ 1936م حَصَلَ على كتيّب من اثنتين وثلاثين صفحةً طبعتْه ونشرتْه مطبعةُ الحكومة في القدس. منشورٌ مفيد أُصدر لقوات بريطانيا كلها التي وَصلتْ إلى فلسطين في ذلك العام، وهو بقلم القسّ (أتش جي وليامسون)، عنوانه (ماضي فلسطين وحاضرها). غرضُ الكتيب -كما عبّر اللواء (جي جي ديل) قائد قوات بريطانيا في فلسطين وشرق الأردن- أن «يعرف الذين يخدمون في فلسطين كلَّ ما بوسعهم عن الأماكن والمباني المهمة كتابيًّا وتاريخيًّا في الأرض المقدسة».

كانَ الكتيّبُ مرجعًا تاريخيًّا جيّدًا لأماكن فلسطين المهمّة مثل يافا التي كان لها أسماء عديدة: كان اسمها (يوبا) في الكتب المقدسة، وأَطلق عليها اليهود (يافو)، وسماها العرب (يافا)، ولكنْ في الهيروغليفية اسمها (يابو) وفي اليونانية (لوب). إنها من أقدم مدن العالم، يعود تاريخها بين العامين: ألفين وثلاثة آلاف ق.م، وفي العهد المصري لرمسيس الثاني اشتهرت يافا بحدائقها.

يافا مسرحُ قصّة يونس (عليه السلام) والحوت الكبير، وعُوِّمَ معبدُ سليمان (عليه السلام) إلى مينائها بعد أنْ بُني بأرز لبنان، واستقر القديس بطرس في بيت سمعان الدبّاغ؛ وكان هناك عندما جاء رسل (كورنيليوس)، وفي يافا أعاد القديس بطرس الحياة إلى (أي دوركاس)، وهنا أيضًا رأى ببصيرته الوحوش الشريرة وغير الشريرة.

حينما كانتْ بريطانيا تحارب ألمانيا تَضاعفتْ قوّةُ الجيش البريطانيّ أضعافًا كثيرة، واضطرت مرافقُ جمعية الشبان المسيحيين إلى التوسع لتلبية الطلبات المتزايدة على خدماتها. أدّت الجمعية دورًا مهمًّا في تقدم (بيل هاورد) من عريف إلى رائد. استفاد (بيل) من المكتبة وغرفة القراءة ومرافق الرياضة والرحلات، فأصدر نسخة من نشرة الأخبار الشهرية للجمعية: إصدار المثلث الأحمر رقم (5)، المجلد الثالث، بتاريخ أيار (مايو) 1938م. كان إصداره عبارة عن منشور من أربع صفحات يكشف اتساعَ دور الجمعية. وفي ذروة التمرد

العربي، كان مدهشًا أن يعيش الشباب العرب واليهود حياةً خارج أوقات العمل الجدي بالاستفادة من خدمات الجمعية!

كانتْ هوايةَ (بيل) المفضّلة لعبةُ الضَّرب بكرة المطّاط الـ(سكواش) في ملاعب الجمعيّة، وشارك برحلة من رحلات الجمعية العديدة. أُعلن عن رحلة ليوم واحد إلى نهر (أَرْنُون/ وادي الموجب) وينابيع البحر الميت الساخنة: يوم السبت الحادي والعشرين من أيار (مايو)، والمغادرة في الساعة السادسة والنصف صباحًا.

تذكّر (بيل) أنّ درجة الحرارة مرتفعة للغاية في البحر الميّت، وأنّ الرّحلة غير مقتصرة على أفراد الخدمة. تكونت المجموعة من مدنيين أديانهم متعددة، في اليوم الذي اجتاز فيه اليهود والمسلمون والمسيحيون (أرنون) معًا. ذهبوا بالحافلة من مركز الجمعية إلى النهر، وسار الجدول اليومي كما أُريد له وفقًا للإشعار: «سنستقل القارب من منزل السيد ذيب إلى (أرنون). بعد الظهر سننتقل إلى الينابيع الساخنة ونغطس في المياه المعدنية المفيدة. أَحضرْ ملابس السباحة وأحذية التنس لتستلقي على الحصى في ضفاف نهر (أرنون). وسينتبه منقذو الحياة ذوو الخبرة إلى المجموعة أثناء السباحة، ولا تنسَ إحضار غدائك الخاص. ويمكن للسيدات الانضمام إلى النزهة».

كانتْ رسومُ النّقل بالحافلات والقوارب للأعضاء (450 مل)، ولغير الأعضاء (500 مل): (تسعة شلون وعشرة شلون على التوالي في العام 1938م من المال البريطاني أو 45 باوندًا و50 باوندًا بعملة اليوم).

كان لجمعية الشبان المسيحيين مدرسةٌ ومكتبة، وفي كانون الثاني (يناير) 1938م نَجح ثلاثة طلاب في امتحانات جامعة لندن: (جي ستروس) و(دبليو فيلشينفيلد) و(أس لوفر). هُنّئوا هم ومعلموهم لنشرة الأخبار.

ورغم القسوة الشديدة في إخماد الثورة العربيّة وإعدام العرب شنقا في العام 1938م؛ لم تتأثر جمعية الشبان المسيحيين بالأوضاع القائمة وهذا رائع جدًّا!

يتذكّر (بيل) بوَلَع رحلةً في آب (أغسطس) 1937م: «استأجرَ مساعدُ القسّيس العامُّ العقيدُ (ويب) حافلةً وسائقًا محليًّا لاصطحاب مجموعة من صغار ضباط الصف -وأنا منهم- في إجازة إلى سوريا.. سافرنا من القدس عبْر الناصرة وطبرية ودمشق وبعلبك وبيروت إلى أرز لبنان، وعدنا من الطريق ذاته».

كم اختَلفت الرّحلة عما بعد الحرب المعادية حين كانت زيارة الأماكن التّاريخيّة أصعب!». يمكن الحصول على إجازة أحيانًا في المعسكر لكنْ بتصميم وخيال جامح لتكون إجازةَ استرخاء. كان ضروريًّا، مثلاً، تجاهلُ نشاطات المعسكر. لا تغييرَ في أوقات الوجبات -ومن ذلك الإفطار- التي حُدّدتْ بغير مرونة للموظفين خارج أوقات الخدمة. ومقارنةً بمعسكرات الجيش كان المعسكر (153) جميلاً لكنه لا يُعد معسكرًا للعطلات على رغم بعده عشر دقائق فقط عن البحر وشاطئه الرائع. طيلة سنوات الانتداب بدا الجيش عازمًا على منع القوات فرصةَ زيارة المواقع التاريخية الرئيسة، ولا سيما المواقع المسيحية القوية. كانت القدس وبيت لحم والناصرة مناطق عربية، ولذا عُدَّتْ أكثرَ أمنًا. تَمكّن الذين ذهبوا إلى كنيسة القيامة في القدس من الحصول على شهادة بالحج بتوقيع رئيس الأساقفة.

في حديقة الجثمانيّة يستطيع للمرء أنْ يشتريَ بطاقات معايدة مزيَّنة بزهور مجفّفة. ظنَّ (تشارلز إيلز) أن الباعة بالغوا كثيرًا، فقد الْتقى وهو في طريقه إلى كنيسة القيامة بدليل يحمل صينية ورود وشفرات حلاقة وصُلْبان.

كانَ حفْلُ الرّعاة في بيت لحم عشيَّةَ عيد الميلاد حدثًا سنويًّا شعبيًّا! حضره (بيل هاورد) قبل الحرب. وبعد الحرب أدى آلافٌ من القوات طقوس الحجّ عينَها في ليالي عيد ميلاد المسيح (عليه السلام) كلِّها، رغم النشاطات الإرهابية المستمرة.

في سنوات الانتداب الثلاثة رغب كثيرٌ في حضور مراسم الميلاد المجيد لدرجة أنهم اضطروا إلى طلب تذاكر. وفي العام 1946م أذاعَ مِذياعٌ (راديو بي بي سي) أول بث عالمي لمراسم عيد الميلاد المجيد بعد الحرب العالمية الأولى. وتَحدّث (مالكولم أستلي) عن الآلاف الذين كانوا في عيد الميلاد عام 1947م في الميادين وقال: «تمكنّا من الاحتفال بليلة عيد الميلاد في الميادين أثناء خدمة الحراسة الليلية، وكان حدثًا لا ينسى». ثم لخص المدة التي قضاها في فلسطين: «تمكنّا من زيارة القدس وطبرية والبحر الميت والناصرة وبيت لحم على نفقة الحكومة في الأيام التي لم تُعَدّ فيها فلسطينُ منطقةَ سياحة، وفي وقت كانت فيه هذه الأماكن غيرَ ملوثة وما تزال في مناخ غير تجاري».

اكتَشفَ (آرثر هاموند) وهو في قَسْطينَةَ أنّ المرض لمْ يكن بلا تعويضات حين أُصيب بقرحة في ساقه لم تلتئم ودخل المستشفى في صرفند.. كان في عنبر العمليات الجراحية البسيطة عندما قرر هو وحارسٌ -كان يتعافى جيدًا- ذاتَ ليلة الذهابَ إلى صالة عرض الأفلام (السينما). وفي طريق العودة رَكل الحارسُ عمدًا وبقوته كلها صخرةً من الصخور البيضاء المصفوفة على المسار، فسأله (آرثر) عن السبب فأجاب بأنه يريد أن يُفتق جرحُه مرةً أخرى لتطول مدة إقامته في المستشفى!

وبعدَ تعْويضيَ غير المقبول في المعسكر بسبب إصابة ركبتي خفتُ الذهاب إلى المستشفى. ضُمّدت ركبتي بجبيرة مثنية فثَبتتْ. كان مستشفى حيفا العسكري البريطاني ملاذًا للسلام والهدوء؛ فرعايةُ راهبات (كوين ألكسندرا) الممرضات تُناقض حياةَ المعسكر والمستودع تناقضًا منعشًا، وكان لدينا الوقت لقراءة كتاب في اليوم لمن يرغب. في السرير المجاور رجلٌ أُصلح فتقُه للتو، كان يصر على استعراض أثر الجرح، والجندي الذي في جانبي الآخر ينتظر إخراج رصاصة من ساقه؛ وكانت آخر كلماته لي أثناء نقله إلى غرفة العمليات: «تأكدْ من أنهم أعادوا الرصاصة لي»! وعرفتُ لاحقًا أن الجرحى جميعهم يريدون أن يحتفظوا

بالرصاص أو الشظايا تذكارًا. وفورَ عودة هذا الجندي إلى الجناح نطق: «أين الرصاصة؟». ظننتُ أن هذا الرجل المسكين تعرض لكمين، فسألته كيف حدث ذلك؟ فأجابني: «انطلق مسدسي خطأً، لكنّ لحسن الحظ كان مصوبًا نحو الأسفل». أتساءل عما إذا كان سيَذكر هذه الحقيقة أثناء إعادته سرد الأحداث لاحقًا في حياته الطبيعية؟!. مُنح الجنود الأمريكيون المصابون في الميدان ميدالية القلب الأرجواني، وسُمح للجنود البريطانيين أن يحتفظوا بالرصاص أو الشظايا.

وبعدَ زهاء أسبوع نُقلتُ جنوبًا إلى أكبر مستشفًى عسكريٍّ بفلسطين في بئر يعقوب ودخلتُ إلى أحد أقسام الجراحة فاستقبلَني منظرُ أحد مبتوري الأطراف جالسًا على سريره يعزف بالنّاي مبتهجًا! هل كان سعيدًا حقًّا أم يتبجح ليبدد مخاوفه؟! لم أَدخل المستشفى قطُّ قبل إصابتي هذه وأجدني الآن في جناح بين مجموعة من الرجال الذين يشابهونني، شبانًا ذوي أجساد رياضية، لكنهم يعانون من إصابات جسدية معيقة، بعضها بسبب أعمال الإرهاب، وبعضها الآخر بسبب الحوادث. تُركنا وحدَنا معظم اليوم ولم يأتنا إلا مسؤول النظام أو الممرضات؛ المسؤولُ الذي يساعد المرضى في الأمور الدنيوية، كاستخدام المِبْوَلة أو نونية السرير، أو إسدال الستارة حول المريض، وتغيّر الممرضةُ الضمادات وتقدّم الدواء وتبدل الملاءات وترتب الأسِرّة.

أَسْهَمَ صيفُ فلسطينَ الحارُّ الطّويلُ عام 1947م ودرجاتُ حرارة تشرين الأول (أكتوبر) المرتفعةُ في ازدياد شعوري بالضيق من جبيرة ساقي، وانتابني الخوف من دخول نملة تتسلّق جدران الجناح تحت جبيرتي أو في ملابسي. وبارتفاع درجات الحرارة ارتدى الموظفون ملابس قليلة. وفي إحدى المناسبات اضطُرّ الجَراح لإعادة كسر ساقِ مريض لأن الكسر الأصلي لم يلتئم على الوجه المرجو. وُضعت ستائر حول المريض ودخل طبيب التخدير إلى الجناح مرتديًا قبعته وثوبه المهني؛ وأثناءَ مشيه إلى سرير المريض سَنحت الفرصة لجميع المرضى الذين مرّ بهم لرؤية ثوبه المهني غيرَ مُحكَم الإغلاق من الخلف. لم نكن نغطي أجسادنا

على الأسرة إلا بملاءات الكتان الإلزامية التي تعدّلها المرضات غيرَ مرة في اليوم. لم تَرتدِ الممرضات أيضًا إلا ملابس قليلة؛ ولفساتينهنّ البيضاء كبساتٌ جانبية رخّاها الغسيل المستمر بعضَ الشيء، فمتى انحنتْ إحداهن نحو السرير انفرجَ ثوبها فيبدو ما يثير الرجل، أضف إلى ذلك العطرَ الأنثوي الناعم الذي يستحضر ذكرى رفقة الأنثى المفقودة في حياتنا الذكورية آنئذ!

كان في بئر يعقوب مرضى من أقسام الجيش جميعها. وفي السّرير المجاور لي رَقد مريض عولجت ساقه المكسورة بلوحة فولاذ مقاوم للصدأ، وفي البداية كانت ساقه في الجص، ولكنه الآن بحال أفضل يستعد لمغادرة الجناح بمساعدة عكازة المشي ويعرض مفتخرًا الأشعةَ السينية لعظمه الذي عولج. اتجه إلى معسكر النقاهة في (ناثانيا) وأَخذ الأشعة السينية تذكارًا. كان رجُل السرير الثاني من ميناء (كوناه)، ومن أجل القصة سأسميه (تاف) على الرغم من أن لهجته تشير إلى أنه من (ليفربول) أكثر من (ويلز).

أُحْضرَ من سجون معتقلات غزّة، السّجون المشهورة بكسر أكثر الأرواح تحدّيًا، وقد كُسرت ساقه كسورًا متعددة حينما كان يطلي سقفًا وهو على سلّم مرتفع، وعندما وقف رقيب الفوج تحته مباشرةً لم يستطع مقاومة إغراء سكب الدلو على رأس الرقيب. كان التظاهر بوقوع حادث بنظره أفضلَ من العقوبة التي تنتظره ولا يمكن تخيلها! لذا سقط عن السلم بعد الدلو! ولإصلاح كسوره تقرر استخدام أحد أضلاعه السفلية بدلاً من الصفيحة والبراغي الفولاذية المعتادة. وقد أخبرني بأنه كان صديقًا لـ(إيميلين ويليامز)، وبُدّدت شكوكي عندما تلقى رسالة من هذا الكاتب المسرحي الشهير.

وذاتَ صباح غادرَ (تاف)، لكنّه عادَ بعدَ بضعة أيّام والدّمُ يتدفّق من الجصّ، ثمّ وُضعَ في جناح (6) تحت الحراسة، وقد انتهت حريته عند حدود لبنان حيث سلّم نفسه متعبًا متألمًا.

كما فرَّ رفاقُه من ثكنات الاعتقال في غزّة وعَبَروا الحدود. وعلى ما يبدو، جاؤوا لاصطحاب (تاف) ليلاً. وقد الْتقيتُ في مستشفى (تشيستر) العسكري به مرةً أخرى ودعاني إلى منزله في منطقة (كوناهس كواي) فور عودتي من الإجازة، وحينما اتصلتُ به كان فارًّا.

كلَّ ليلة يُسْمَحُ لنا بسماع أغنية واحدة، وتُقدَّمُ لنا حصّةٌ مجّانيّة من البيرة: زجاجة لتر من (Gold Star Beer) يتقاسمها مريضان، أما أولئك الذين يعانون من اليرقان فيُعطَوْنَ زجاجة (غينيس).

بمرور الوقت تحسّنتْ حالي، وأصبحتُ أقوم بنصيبي من واجبات الجناح، وانضممت إلى فريق من أربعة وزعوا حصة الليل من البيرة. لم يرغب بعض المرضى بالبيرة، فكنا نلتقي في مطبخ الجناح بعد التوزيع لشرب البيرة غير المرغوب فيها كلها. كانت البيرة من النوع اليهودي الإيرلندي الثقيل، وذهبتُ إلى الفراش وأنا أشعر بالدوار قليلاً.

لمْ يكن في الجناح رتبٌ عسكريّة، فاستخدمَ المرضى أسماءهم الأولى، وكان رقيبٌ من الحراس يَشغل سرير (تاف) الشاغرَ الآن. قَلب لُغْمٌ مركبةَ الرقيب المدرعة وأصابه إصابات عديدة. جُلب إلى الجناح في حالة من الهيجان والألم مع كسور في الفخذين. ثُبّتتْ ساقاه بالجبائر مع مسامير رُبطتْ بالأثقال فوق السرير. كان مرتبكًا أيامًا عديدة ويبلل الفراش حتى تعلّمَ أن يطلب المبولة، وفي صباح يوم وضعها موضعًا خطأً، ولحسن الحظ كانت الأخت (سورتيس) قريبة منه فوضعتْ قضيبَه فيها.. وفي يوم آخر كان مرتبكًا أيضًا ويصرخ في كل مرة ليغيّر وضع جسده بالمقبض المعلق فوق سريره. وكان يُظن أن سبب ألمه إصابات ساقه فقط، ولكن في هذه المرة كانت العظام المكسورة تخرج من ساعده! وأسبوعًا في الأقل، لم يَلحظ أحد إصابة ذراعه. تعاطفْنا معه تعاطفًا كبيرًا وحاولنا مساعدته بكل وسيلة متاحة.

كانتْ مهمّةُ توزيع البريد في الجناح دُوْلَة، ولمّا حان دَوْري قلتُ للرّقيب: «سَارْجْ، لك بريد» فصرخ عليّ من سريره قائلاً: «قل: بريدٌ لك سيدي الرقيب أيها المجند (لو)»! واضحٌ أنه في طريق الشفاء، وأدركْنا أنه لم يلفظ الاسم الأول لأي شخص؛ خاطبَنا جميعًا بالرتبة أو بالاسم الثاني، كان رسميًّا جدًّا، وعلى رغم ذلك، وبكل حُب، ظللْنا نناديه (سارج)، ولم تستطع رسميّتُه أن تقلل من الإحسان الذي منحناه إياه.

يجبُ أنْ يكون المجنّدونَ في الثّامنة عشرة والنّصف من العمر ليُرسَلوا إلى فلسطين، ولكن القاعدة لا تنطبق على الجنود الأطفال. كان في الجناح ضابط مبتدئ أتجوّل برفقته لنصل إلى السلك المحيط ونتحدث إلى العرب المارين في المسار وراءه. جاءت فتاتان صغيرتان في التاسعة أو العاشرة من العمر، قدّمَتا لنا البرتقال رشوةً (بَخْشِيْش) مجانًا، وأعطيْناهما عشرة قروش بخشيشًا أيضًا، وفي غضون عشر دقائق عادَتَا بكمية أكبر من البرتقال بخْشيشًا كذلك، وكذا في اليوم التالي.. ثم صار هذا الأمر ترتيبًا يوميًّا: تأتي كلتاهما بالبرتقال فنعطيهما عشرة قروش كل مرة. وقد سعد الجناح بالبرتقال الطازج إلى اليوم الذي لم تظهر فيه الفتاتان الصغيرتان! ربما قُبض عليهما أو مَنعهما والدهما أو أُخرجت أسرتهما من المنطقة ذات الأغلبية اليهودية، وكان السكان العرب يُخوّفون. نُقلتُ إلى (نتانيا) حيث معسكر النقاهة للعلاج الطبيعي الإضافي، ولكن ركبتي لم تتحسن. وفي أوائل كانون الثاني (يناير) بعد قضاء عيد الميلاد في (نتانيا) والخروج إلى وسط فلسطين في مهمةِ مُرافَقَة مثيرة، عدتُ إلى الجناح ذاته في بئر يعقوب، وقد أُحدثتْ بعض الأمور: فالإخلاء جار، وغادر عديد من المرضى بسفن المستشفيات التي تُبحر من حيفا، ووجدتُ سليمان العربي المسيحي النابلسي في الجناح مصابًا بجروح يشعر الجيش أنه مسؤول عنها، وكان التواصل معه صعبًا فهو لا يتحدث الإنجليزية وأنا عربيتي ضعيفة جدًّا، وقد أراني صليبه لأعرف أنه عربي مسيحي، فرَسمتُ له صورةً للمسيح على الصليب، وأصبحنا أصدقاء. زارته زوجُه واثنان من أبنائه، صبي وفتاة، وأراهم رسمي بكل فخر، وبكرم عربي نموذجي أعطَوْني بعض التمر.

قامَ جنودُ المشاة وقوّاتُ المظلّات بعمل رائع للحفاظ على السلام في أعنَف مناطق العالم. وهي مَهمّةٌ لم يُدرَّب الكتبة ورجال الأعمال ومُصلحو الآليات عليها، ولم تكن لديهم المهارات اللازمة للقيام بها. طارد المشاة والمظليون الإرهابيين ونصبوا حواجز على الطرق وفتشوا المنازل وقاتلوا بأسلحة النار؛ قاموا بهذا كله بصبر ومصابرة لا نظير لهما في الجيوش الأخرى! ومن ناحية أخرى، عملنا جنبًا إلى جنب مع المدنيين، وأثّرت روابطنا بهم في موقفنا وتفكيرنا واللغة التي استخدمناها معهم.

لمْ تستطعْ قوّاتُ حفظ السّلام احتمالَ التّقارب نفسه مع المدنيّين. وفي بعض الأحيان، كان الاختلاف لازمًا، وهو ما أشعرني بعدم الارتياح الشديد، ولم يكن الأمر أسوأ من مساء يوم أحد حينما ظَهر مريضٌ من الطرف الآخر للجناح مرتديًا زيَّ رجل دين، وأقام منبرًا وهميًّا لأداء عمله غير الديني للغاية: اقتبسَ سطورًا معروفة من الكتاب المقدس ودمجها بتعابير بذيئة خاصة به. وقد رأيتُ هذا الفعل قبلُ وانزعجت، وشعرتُ بالخطر حينما رأيت سليمان سعيدًا به منتظرًا سماع خطبة دينية. لم يَفهم سليمان ما يقوله (رجل الدين)، واحتار من الضحك الصاخب حوله، وشعرتُ أنا بالحرج والخجل.

وكان في الجناح شابٌّ عربيٌّ آخَر، وهو جنديٌّ من الفيلق العربيّ، لا يتحدّث الإنجليزيّةَ أيضًا لكنه يلتقط الكلمات العربية التي شَقّت طريقها إلى مفردات الجندي، ومنها (macnoon) الكلمةُ التي استُخدمت بحرية شديدة، وقد استَبدل بها الجنود -ببراعة- كلمةَ (مجنون/ crazy) التي يستعملها العرب في سياق خطير للغاية ولا يتقبلونها أبدًا بطريقة استخدامنا لها نحن الغربيين.

لسوء الحظّ، افترضَ الشّابُّ أنّنا نتحدّث عنه فغضبَ غضبًا شديدًا. وممّا زاد الطّين بلّة أنّ غضبه لم يؤدِّ إلا إلى أنْ جعل معظمَ المرضى يضحكون أكثر!

في الأحوال الاعتيادية، لا يَمرَضُ الشّبابُ في سنّ العسكريّة غالبًا، وكثيرٌ من الأمراض وبعضِ الإصابات تعالج بنجاح في المعسكر.

شاعَ مرضُ الزُّحَار وحُمّى الرّمل بين القوّات في الشّرق الأوسط، ولكنّ الجمرةَ الخبيثة لمْ تَشِعْ بالتأكيد! وقد أصيب (ريكس فورسلاند) بها عندما كان بسلاح الجو (6) في رفح.

تؤثّر الجمرةُ الخبيثةُ إمّا على الجلد أو الرّئتين أو الأمعاء، أمّا (ريكس) فأثّرت على جلده، ووجهه خاصةً، ولو أثّرتْ على رئتيه أو أمعائه لقتلتْه. وسرعة انتشار المرض موضحة في قصة ريكس.

بَدَأَ الأمرُ بشَفْرَة حلاقة اشْتُرِيَتْ من معسكر منظّمة الجيش والبحريّة، وكانتْ جراثيمُ المرض خاملة، ولو أن الشفرة من مصنع محترم ما حدث ما حدث. يَغتسل (ريكس) ويَحلق ذقنه قبل الذهاب إلى الحراسة، وفي غضون بضع ساعات جَعل وجهُه يتضخم ولكنه قام بواجبه بكل حزم. ولما توقفتْ ساعته كان وجهه «منتفخًا مثل البالون» على حد تعبيره. (صُوِّر ريكس لمجلة طبية). وبعد بضعة أسابيع أزيلت النواة وكانت رائحتها مروّعة! كبيرةً جدًّا لدرجة أنها تَركت حفرةً في وجهه يَخرج منها الماء أثناء تنظيفه أسنانَه. وحتى يومنا هذا يعاني من ندبة واضحة رغم شفاء الجرح شفاءً تامًّا.

في هذه الأثناء وَصَلَ خبرُ (ريكس) إلى المعسكر في رفح فأثار الذّعر..! اتُّخذت تدابير وقائية صارمة لكنها للأسف لم تشمل قتْل جميع الكلاب.

ظنَّ (ريكس) أنّه كان مَحْمُومًا –والجمرة الخبيثة تعبير يوناني يعني الجمرة– فعَرض نفسه على الطبيب فشخّص حالته بالجمرة الخبيثة فأُرسل إلى مستشفى حيفا العسكري وعُزل. وكان على الذين دخلوا الجناح جميعِهم أن يراعوا قواعد النظافة الصارمة ومنها ارتداء الأقنعة؛ فلو وصلت الجراثيمُ نفسُها التي أثّرت على جلد (ريكس) إلى أمعائه أو أمعاء شخص آخر لكان المرض مميتًا وقد يؤدي إلى وباء.

يروي (ريكس): «حُقنتُ بالبنسلين في الأرداف كلَّ ثلاث ساعات ليلا ونهارًا. بَدَأَ العلاجُ بمئة ألف وحدة وتطور إلى خمسمئة ألف مع كل حقنة. وبحلول ذلك الوقت أُغلقتْ عيناي تمامًا بسبب التورم الهائل في وجهي. رَفضتْ ممرضة واحدة دخول الجناح، وأما سائر الموظفين فكانوا رائعين».

لن ينسى (ريكس) أبدًا القائدَ الطّبيب (جي أم مان) الذي أنقذ لطفُه وعملُه الفوريُّ حياتَه ومَنع انتشارَ المرض، وقد أَسفَ لأنه لم يرَ ذلك القائدَ مرةً أخرى ويشكرَه.

من الطّرق المضمونة التي يتهرب بها الجنود من الأعمال الاعتيادية اليوميّة التي تحاصرهم، ارتكاب جُنحة تُخضع صاحبها لمحاكمة عسكرية فيُرسَل إلى ثكنات الاعتقال، وفي أيام الانتداب البريطاني الأخيرة ازدادت هذه الظاهرة ولم تتسع تلك الثكنات لكثير من المذنبين.

ويَجبُ أنْ تُنَفَّذَ العقوبةُ في المعسكر، وهذا يعني النّومَ في الزّنزانات، فيعاني الجنديُّ نفسيًّا وجسديًّا معاناةً شديدة بتمرينات المخيم الصارمة والطهي... وطالما أُشيرَ إلى أن السرقة والفرار جريمتان لازدياد الجرائم العسكرية، وقد فرَّ بعضهم ولم يُقبض عليهم، وفرّ آخرون بنيّة القيام برحلة لبيع بعض السلع المسروقة. لم تكن حياة ثكنات الاعتقال ماتعة، وصعبٌ أن نتخيلها في فلسطين زمنَ الحرب، ولا سيما بسبب الفرار من الجيش. ورغم ذلك تأتي الرواية الوحيدة عن حياة ثكنات الاعتقال من (داني جود فري) وهو جندي من زمن الحرب خَدم في قاعدة مستودع العتاد (2) – وادي صرار، ولم يُعتقل بالفرار، وكانت (جريمته) بسيطة، وهذه روايتُه لها والوقت الذي قضاه في الاعتقال:

دَخَلَ (داني) في إضراب لأنّ استحقاقَه من الأجور أَظْهَرَ ديونًا بدلَ مبالغ ائتمان، على الرغم من إجرائه تخفيضات طوعية في الأجور لأسابيع عديدة: طلب ثلاثة جنيهات إسترلينية لشراء هدية لزوجه، وبخطأ مكتبيٍّ لم يحصل على نقود. صَمّم على إظهار غضبه فبقي في سريره اليومَ التالي بدلاً من تناول الإفطار

أو العمل. ولم يَمض وقتٌ طويل قبل مجيء الرقيب (بوكس) إلى ثكنة (داني) وسؤاله عن المشكلة. أخبره الرقيب أنه إذا قام من الفراش وذهب إلى العمل فلن يُبلِّغ عن الأمر. ذهب (داني) الغاضبُ لتناول الطعام وشرب الشاي، وطُلب منه مرةً أخرى أن يذهب إلى العمل لكنه رَفض ثانيةً فاعتُقل. تُفسِّر كلمات (داني) ذاتُها الأحداث اللاحقة:

«اعترفتُ أمامَ الرّائد (دومونيكو) بذنب رفْض طاعة أمر ضابط أعلى، وحُكمَ عليَّ بالسجن ثمانية وعشرين يومًا في (جلاسهاوس) بالقدس. أتذكّر رحلتي إلى القدس مع رفيقين (مُرافَقَةً) وسائق سيارة (الجيب) المكشوفة. بقينا طيلة الطريق نَتبادل النّكت والغناء إلى أن توقفنا خارج أبواب مبنًى كبير. كنتُ أحمل بندقية من بنادق المرافقة وهو يشعل سيجارةً عندما صَدر هديرٌ يصمّ الآذان من مبنًى على الجانب الآخر من الشارع: «مَن السجين؟»، فأخبر زملائي ذاك الرفيق الضخم باسمي ثم رمَوْا حقيبتي وانطلقوا عائدين إلى وادي صرار بأقصى سرعة.

صاحَ الرّقيبُ: «احملْ أغراضك، وقفْ بانتباه، دُرْ لليمين، دُرْ لليسار، يمين، يسار، يمين، يسار، حَرّكْ قدميْك». عَدوتُ مُسرعًا إلى المجمع واضطررتُ للعدْو إلى أعلى المبنى وأسفله قبل دخوله عدْوًا، وطُلب مني أن أَخلع ملابسي وأعدوَ عاريًا فوصلتُ إلى الطاولة حيث كان القائد جالسًا. بعد الاستماع إلى قانون مكافحة الشغب اصطُحبتُ إلى زنزانتي.

كان في زنزانتي شخصان آخَران: شابٌّ قريبٌ من عمري، وإيرلنديٌّ يبلغ من العمر اثنين وخمسين عامًا قُبض عليه يسرق البطاطا من أرصفة حيفا ويبيعها؛ ولما حُوكم فقدَ رتبته -وكان رقيبًا- وحُكم عليه بالسجن ستة أشهر مضى منها حتى الآن ستة أسابيع فقط. أخبرني أنه إذا تمكن من دخول المستشفى فسيقضي معظم المدة المتبقية هناك. سألني أن أَكسر معصمه بل وأراني كيف أفعل ذلك! وهذا مستحيل طبعًا، لكنني سايرتُه ولَوَيْتُ معصمَه قليلاً وقلتُ له أنني لستُ قويًّا

بما يكفي لكسر معصمه. انتفخَ معصمه قليلاً وتخلّينا عن المحاولة لأن قلبي لم يطاوعني.

كانت الحياةُ صعبةً جدًّا، قُسِّمنا فرَقَ عَمَل ومُنِحْنا وظائف، وكان أكثرَ عَمَل كرِهْناه نتْفُ ألياف جوز الهند في معمل ألياف جوز الهند: تُملأ ألياف جوز الهند بعد نتفها بالمِخَدّات التي ينام عليها الجنود، وكانت قشورُ جوز الهند قذرةً وتثير الغبار الكثيف».

تَحَسَّنَت الحياةُ حينما نُقلَ (داني) للعمل في مطعم الرّقيب؛ وهي وظيفةٌ يريد أن يحافظ عليها. كَتب: «حافظتُ على نظافة المكان، وكنتُ آخذ بقايا الطعام التي تحتوي على شرائح كبيرة من لحم الخنزير المقدَّد (المملح المجفف)، والنقانق غير المأكولة، وكميات من الخبز، وغيرها من الأطعمة الشهية إلى الفتيان. وكنتُ أَنقل السجائرَ نصفَ المدخَّنة المتروكةَ إلى الجانب الآخر، وكان التدخين جريمةً يعاقَب عليها، فيعاد تدويرها وتُصنع سجائرُ جديدة منها.

كانتْ أصواتُ حرّاسنا عاليةً ومزعجة، وهم يقصدون إخافتنا ما عدا سامريًّا، وقد اصطحبنا لشراء بعض الأغراض وسَمح لنا بالتدخين في الذهاب والإياب، وكان معه كيس حلوى أشرَكنا فيه أيضًا».

9. «أولاد السرقة»

انتشرت السّرقةُ بسبب الفقر في أنحاء الشّرق الأوسط جميعها، ولكنّ السّرقةَ من الجيش البريطاني اكتسبتْ أهميةً أكبر. عاينَ مجندو الأوقاتِ الصعبةِ الإسرافَ الذي لا يُصدّق في الحرب! كانت فلسطين ترسانةً ضخمة بمواد الحرب المغرية في وسط منطقة حرب مزدهرة، ويكافأ السارق الناجح مكافآت جذابة، ولم يكن المدنيون وحدهم الجانحين، فهناك لصوص في المعسكرات والمستودعات وورش العمل من المجندين وغيرهم. وفي مستودع عتاد الجيش (614) سرق عقيد ورائد أسلحةً على نطاق واسع، وسرق عريفان من الحراس دبابتين وباعاهما في تل أبيب.

ورغم التدابير الأمنية الشديدة وحتمية العقوبة القاسية، انتشرتْ جريمةً انتشارًا واسعًا بلغ حدًّ أنه لا توجد تكناتُ اعتقال يمكنها احتجاز الجناة جميعهم إذا ما قُبض عليهم!

وقد أَطْلَقَ عليها البعضُ (القفز buncing) : وآخرونَ (السّلب: liberating)، وأيًا ما كان اسمها فهي سرقة. ومن المدهش أن الحراس المجندين لمنع هذه السرقات هم مَن قاموا بمعظمها في الليل!! تُكدس متاجر كثيرة بضائعها على قواعد خرسانية في العراء، وكان المستودع الفرعي في شاطئ الخياط أسهل الأماكن التي يمكن الوصول إليها. لقد وجدتُ حقيبةَ ظهر جميلةً مصنوعة في (بيرغن) عندما كنتُ أقوم بواجبات الحراسة في شاطئ الخياط، ووجدتُ أيضًا إناءَ قهوة عازلاً رائعًا (تُرْمُس). لم يصعب عليَّ نقل الأغراض إلى المعسكر بالشاحنة، وكان لمعظم أفراد القوات الذين يرتادونها معي غنائمُ متعددة؛ ولا سيما أن قائد الحرس يجلس دائمًا جانب السائق. وحينما وصلْنا إلى المعسكر أَخفيتُ حقيبة الظهر بين أغصان شجرة زيتون ودَفَنْتُ الترمس في صندوق صفيح في حديقة المعسكر (56). كنتُ أنوي تسهيل إدخال الأغراض إلى الثكنة حينما تسنح الفرصة، لكنني -وعلى نحو غير متوقع تمامًا- دخلت المستشفى ولم أَر المعسكر ولا حقيبة الظهر ولا الترمس مرةً أخرى!

كان (ليو شامبرز) موهوبًا في العثور على بعض الأغراض المرغوبة للغاية، ومن شاطئ الخياط خاصةً. كتب (برين كروس): «حصل (ليو) على مناشف تركية جديدة ناعمة بيضاء. أعطاني ستًّا منها فأخفيتها في الطرود الغذائية التي سُمح لنا بإرسالها إلى الوطن مرةً واحدة في الشهر مجانًا». وكتب عن سرقة أخرى:

«في أواخر العام 1947م كان لدى رقيبي في الفريق (جوك سنتون) فستانُ زفاف من النايلون، أخذه من أحد المستودعات الفرعية، وقد أرسلتْ له خطيبتُه (موريل) مقاساتها فطلب من امرأة عربية مسيحية أن تجعل الفستانَ وفق مقاس (موريل)، وما لبث أن عاد إلى المملكة المتحدة وتزوج».

ولتشتّت الجيش في أنحاء فلسطين كلها، كان لفرق سلاح عتاد الجيش الملكي مستودعات ومواقف سيارات في جميع الأنحاء. وكانت مجموعة مركبات المعسكر (612) في رفح من أكبر مجموعات المركبات في فلسطين. وُضعت المركبات وضعًا إستراتيجيًّا على الجانب الفلسطيني من الحدود المصرية وصحراء سيناء من أجل الرحلات الطويلة.

وكان (دينيس هاريدنج) معيّنًا في المعسكر (612)، فسَرد لنا حكاية سرقة سيارة تحمل سمات المنظمة اليهودية كلها:

«في أواخر العام 1946م كان هناك عشرُ شاحنات (دودج) بوزن ثلاثة أطنان تنتظر التسلّم. وفي الصباح ظَهر السائقون المدنيون ومعهم الأوراق الصحيحة فأخرجوا الشاحنات. وفي وقت لاحق وصلتْ مجموعة أخرى من السائقين لتسلّم الشاحنات، وكان من الواضح أن المجموعة الأولى مزيّفة وأن الشاحنات قد سُرقت. حقّقت الشرطة الفلسطينية والمحققون في القضية، وبعد يومين رافقت العقيد (الكولونيل جوي) إلى شرطة يافا، ومن ثَمّ عبْرَ شوارع يافا الخلفية إلى ورشة كبيرة حيث وَجدْنا إحدى الشاحنات مُعَادًا طلاؤها بألوان مدنية كستنائية غامقة».

لكنّ يافا كانت مدينة عربيّة، والعثورُ على شاحنة مسروقة هناكَ جَعلَ القضيّةَ أكثرَ حيرةً. يتابع (دينيس) حديثه: «عُثر على هيكل شاحنة أخرى فقط، وقد أُلقيتْ في تل أبيب خارج مقر جمعية مزارعي البرتقال. وقُبض عربيان من خان يونس على بعد زهاء عشرة أميال شماليّ رفح وموقع السرقة، وقد أدينوا لاحقًا. ولم يُعثر على دليل يشير إلى تورطِ بريطاني أو أحد من الرتب الأخرى. أشارت الأدلة إلى عصابة إجرام من اليهود والعرب».

كان البَدْوُ العربُ رُحّلاً جابوا شبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا بحثًا عن لقمة العيش بأيّ وسيلة ممكنة.

كانوا في كلّ عام يقطفونَ الزّيتونَ ويزرعونَ الأشجارَ في المعسكر. وكان (برين كروس) و(جيس أوبرين) في المعسكر (153) أثناء حصاد 1946م و1947م، ولديهما قصص عن حصاد البدو، والحمير المثقلة بالأحمال، والنساء المثقلات بالعمل. وفي موسم قطاف الزيتون يقوم أحد الحراس بدوريات في المخيم بحثًا عن اللصوص الصغار الذين قد يميلون إلى الانزلاق بين القضبان وسرقة الممتلكات الشخصية. وكان لمعظم الأكواخ كلابُ حراسة مخْلصةٌ قادرة على تمييز الجندي منِ غيره، حتى لو لم يكن مرتديًا الزي العسكري. كان البدو عمالَ زراعة غيرَ رسميين (موسميّين) في شبه الجزيرة العربية، ولكنْ -كما كَتب ت. ي. لورنس وصفيًا في كتاب (سبعة أركان للحكمة)- لم يمانعوا النهب.

وبينَ انحسار حرب الصحراء الغربية وتدفّقها يلتقط البدوُ هناك الأسلحة المتروكة. وفي العام 1943م حُوكم في القدس عسكريون بريطانيون ومدنيون يهود بشأن التجارة بالأسلحة غير القانونية. عَثرت الشرطة الفلسطينية والجيش البريطاني على مخبأ أسلحة في معسكر تدريب يهودي سرّي في (رمات هاكوفيش). وقد نَقل البدو الأسلحة من صحراء شمال أفريقيا، وفي العام 1944م استخدم الإرجون الأسلحة المسروقة ضد البريطانيين.

كان (جيمس روسيل) من كتيبة المشاة (61) في مهمّة حراسة ذاتَ ليلة عند إحدى البوابات في معسكر الكتيبة حينما رأى ظلًّا يمر بخيمة الطهاة المجاورة القريبة من خيمة الحرس.

لمْ يكن متأكّدًا تمامًا ممّا رآه فأرْسَلَ زميلَه الحارسَ للتّحقّق، فوَجَدَ أنّ بندقيّةً سُرِقَتْ من أحد الحراس النائمين. وكان على الحراس دائمًا -ولو في غير ساعات الدوام- أن يناموا بأسلحتهم؛ فكانوا يربطونها بأحزمة على أجسادهم أو أسرّتهم. قُطع الحزام واخْتفت البندقية. وفي صباح اليوم التالي اكتُشفت حفرةً في سياج الأسلاك الشائكة، ولم تُطْمَر فورًا، وروقبت في الأيام والليالي التالية، ولكن اللص الذكي لم يستخدمها مرةً أخرى.

وتُشير سرقاتُ التسلل صغيرةُ النّطاق إلى غارة عربيّة.

لمّا كانتْ سفينةُ الملاحة البخاريّة (Strathnaver) في طريقها إلى المملكة المتّحدة رَستْ في بورسعيد، وكان (هنري سميث) ضابطُ صف اللواء الذي بقي له زهاء ستةِ أشهرٍ خدمةٍ قبل التسريح في طريقه إلى المعسكر بحيفا. لا دوْرَ لضابط صف اللواء في المعسكر، لكن العقيد (جوري) أراد أن يَجرُد متجر البطانيات، ولم يكن صعبًا توقّع التناقض الذي سيسفر عنه الجرد، فبعد كل شيء في الشرق الأوسط إذا احتاج الجندي مبلغًا سريعًا فما عليه إلا بيع بطانية، ولكن نتيجة جرد (هنري) مذهلة! وكتب: «لم يَطل الوقت قبل اكتشافي عدمَ توافق بل تناقضَ المخزون الفعلي وأرقام الحسابات. كان عليَّ أن أبلِّغ عن نقص زهاء عشرين ألف بطانية. لا بد أن هذا تمَّ في الوقت عينه الذي بيعت فيه الأسلحة من مستودع حيفا. إذن، نحن لم نسلّح الإرهابيين حسبُ، بل دفأناهم بالبطانيات أيضًا. استدعي مكتب التحقيقات الفيدرالي فاعتقل عريفًا في فرقة السلاح الملكي يقود سيارته المليئة بالبطانيات إلى المستودع. كان عليه أن يحاكَم محاكمةً عسكرية. وعلى الرغم من أنني لم أكن ملزَمًا بتقديم أدلة شفهية، تأخّرَ تسريحي إلى ما بعد المحاكمة وقضيتُ ثلاثة أشهر إضافية في فلسطين، وأخيرًا أبحرتُ بالسفينة الجورجية إلى المنزل».

لقدْ سُرقَتْ بطّانيّةٌ للرّحلة من بئر يعقوب إلى بورسعيد، وقايضتُها في محطّة القنطرة للسكك الحديدية بحقيبة جديدة من جلد الخنزير. كان جلدها جميلاً جدًّا، ولكنّ عندما رسوْنا في (ليفربول) تمزقت الحقيبة المليئة بأغراضي. نعمْ كان الجلد ممتازًا لكن الخيَاطة سيئة. نُصب لواء المشاة (61) في جنوب البلاد بمنطقة الجيا شمالَ غزة مباشرةً؛ المنطقةِ التي كانتْ غالبيتها عربية، وكانت عرضةً لمفاجآت اللصوص المحليين الماكرين. حاول (جيمس روسيل) محاولةً جريئة لسرقة قضبان خطوط السكك الحديدية قرب المعسكر في وضح النهار. شوهد الحادث من المعسكر، وسُلّمت الجناة للشرطة الفلسطينية وأُطلق سراح حمارهم على أمل أن يَجد طريقه إلى المنزل. ولا يمكن للمرء أن يصف سرقة وقود الجيش البريطاني من مستودع بلد الشيخ، ومن محطة الوقود على الجانب الغربي من جبل الكرمل، إلا بالجرأة الخطيرة! كانت المنشأة كبيرة جدًّا لدرجة أنها تُزوّد بالبنزين بخط أنابيب مباشر من مصفاة النفط في حيفا، وكان لديها (بدل تبخّر) أسبوعيٌّ: خمسةُ آلاف جالون، وهو ما يدل على حجم المستودع. ذَكر الرقيب السابق في الشرطة الفلسطينية (مارتن دوشنيز) الحادثةَ بشيء من التفصيل في نشرة الرفاق القديمة (214): أثيرت الشكوك حينما وصل الإنفاق المسموح لخمسة آلاف جالون إلى خمسة وعشرين ألف في الأسبوع! وقد استدعي فرع التحقيق الخاص (SIB) لكنْ لم يُعثر على مخالفات كبيرة. في أحد الأيام، كانت هناك سيارة استكشاف مدرعة للشرطة في ساحة بلد الشيخ الرئيسة، ولاحظ السائق أن مركبات عديدة تقف جانبًا وتملأ جالونات من أنبوب عمودي يقع في طرفِ كُشْك خشبي.

شاهَدَ العاملونَ موكب مركبات من أنواع مختلفة تذهبُ إلى الكشك لتملأ الجالونات، وكان الرجال الذين يحملون السلات على حميرهم يملؤون الأواني البلاستيكية بشيء ما. وفي آخر المطاف، استحوذ فضول الشرطي (بات ديفلين) عليه فوجد أن الجالونات لا تُملأ ماءً بل بنزينًا، حتى أن بعضهم كانوا يدخنون أثناء سحب الوقود!

تَتَبَّعَ فريقٌ تحقيق بجهاز كشف الألغام أنبوبًا يمتدٌّ من الكشك إلى خطّ الأنابيب الرّئيس. وقد حُفر الأنبوب الرئيس وأُدخل أنبوب (الماء) فيه وأُغلقت المفاصل بالطين.

الماءُ أغلى كثيرًا من البنزين في الأراضي الصّحراوية الكبيرة. ولمْ تَتَوافر المياهُ في الصنابير إلا في المدن الكبرى فقط، وما تزال مجتمعات ريفية كثيرة تَسحب المياه من الآبار كما كانوا يفعلون في زمن المسيح (عليه السلام). وأما القوات المتمركزة في المناطق الجافة التي لا يوجد فيها حمامات أو مرافق غسيل، فكانت وحدات الاستحمام المتنقلة ضرورية لها. وفي بعض الحالات، كان ذلك يعني وضعَ أنبوب مؤقت للمياه من مصدر محدد أو من صهريج مياه. يتذكر (بيرسي بيركيت) عاملُ تنظيف الأنابيب ووحدة الاستحمام المتنقلة حادثةً حينما زَوّد الوحدة بالمياه وفتَح الصنبور: وَجد أن لا ماءَ هناك! ولما عاد إلى خط الأنابيب وَجد البدو حولوه لملء خزانات المياه الخاصة بهم. إنّ أخذ مياه شخص آخر يعد سرقة، وفيما مضى فُقدت أرواح عربية كثيرة بسبب ملكية الآبار المتنازع عليها!

في المعسكرات الكبرى بعضُ التّجّار المرخَّص لهم، ومنهم عائلةُ الذّهَبي المرخَّص لها أن تعمل في المعسكر (153)؛ وهي شركةٌ عائلة في متجر صغير يديره ستة أشخاص عرب يعيشون في المباني الصغيرة أيضًا؛ وكانوا يكسبون أموالاً من بيع المسروقات أرباحًا إضافية. كان أحدَ واجبات (لين هاريس) الأخيرة قبل إغلاق المعسكر (153) تفريغُ دلاء إطفاء الحريق من الرمل المملوءة به؛ وقد وَجد في دلْو منها عشر رصاصاتِ بندقية فأخذها إلى التاجر الذهبي فمَنحه عشرة جنيهات إسترلينية، وكان مندهشًا لذلك. ومن المتوقع أن تُنقل الرصاصات إلى سوق حيفا ويعاد بيعها، وقد كانت الأسلحة بأنواعها كلها تُباع في الأسواق، ومنها قنابل اليد الحية، و ومعظمُها بريطانيّ الأصل.

10. تُجّار السَّلاح

الجنودُ النّظاميّون الذين خدموا مدّةً طويلة، وسجلاتُهم نموذجيّة، قد يصادفهم حظٌّ كبيرٌ فيُوظَّفون في إحدى وظائف فرق سلاح عتاد الجيش الملكي النادرة والبعيدة عن منطقة الخطر. وفي العام 1951م وَجد (بيل مونسي) ضابطُ الصف الأول كثيرُ الأسفار نفسَه في وظيفة كانت مرمى حسد كبار ضباط الصف الآخرين، وكان الثاني في القيادة بعد القائد (لوكس) في جيش الراين البريطاني (BAOR) في (باد أويهاوسن)- ألمانيا. أخبره القائد أن ضابطًا كبيرًا من سلاح عتاد الجيش الملكي يطلب زيًّا رسميًّا جديدًا. حَجز (بيل) موعدًا للضابط عند الخياط (برونو) في اليوم التالي. ولما جاء الضابط الكبير فوجئ (بيل) بأنه هو نفسُه مدير العمليات السابق، وهو العقيد (توماس جيراند جور). أخذ (برونو) مقاسات (بيل) وفق الأصول وحُدّد موعد القياس الأول، ولكنْ بعد بضعة أيام أُبلغ القائد (لوكاس) أن العقيد (لن) يحتاج إلى زيه الرسمي.

في العام 1950م زارَ فرْعُ التّحقيق الخاصّ بالجيش (برين كروس) لاستماع أقواله عن خدمته بصفته الضابطَ الإداري المسؤولَ عن ترسانة الأسلحة في المعسكر (614). فاجأتْه الزيارة وهو الذي سُرّح قبل عامين! وذَكر في بيانه أنه كان مسؤولاً عن مستودع الأسلحة حتى آذار (مارس) 1948م، وفي ذلك الوقت قام برحلات عديدة إلى البحر لإلقاء أسلحة غير مستخدمة، ومعظمُها بنادق (تومي) الفائضة، فاستبدل به الرائدُ (نيومان) الرقيبَ (دينيس مايكل إيفرز).

استاءَ (برين)، فقد كان جنديًّا جيدًا، ولأنه وَقَّعَ عقْدَ استمراره في العمل ستّةَ أشهر إضافيّة ليكون مع أصدقائه حتى نهاية الانتداب.

في كانون الأول (ديسمبر) 1951م، زارَ محقّقُ الجيش الخاصُّ (بيل) لأجل بلاغ بشأنه حين كان العريفَ المسؤول عن مستودع أسلحة عتاد الجيش. وفي الواقع، عَرفتْ بريطانيا كلُّها عن العقيد (جور) وجنوده حينما نَقلتْ تقاريرَ محاكمته العسكرية الصحفُ الوطنية كلها.

ولمّا نَشَرَ سجلُّ القصاصات الفلسطينيُّ القصّةَ عامَ 1999م بَدأتْ ذكرياتٌ عن العقيد تظهر من أولئك الذين عرفوه: بعضُها جعلتْه أسطورةً مثل تلك التي دارت حولَ الحارس الذي نحّى الأسلحةَ حينما مرّ العقيد بمقعد الحراسة الخاص به ورُقّي فورًا إلى عريف. وواضحٌ من الرسائل والتعليقات أن رجاله سرعان ما احترموه لحسن قيادته لهم واهتمامه برفاهيتهم.

كان للعقيد (جور) شريكٌ هو الرّائدُ (رالف هيربيرت نيومان) الذي اتُّهِمَ وأُدينَ مذنبًا قبلَ عام، وقد خَدم ستة أشهر وكان أمينَ الصندوق. ولم يَتحدث أحدٌ جيدًا عنه قَطّ، لأنه غير محبوب على ما يبدو من الرتب جميعها؛ وقد شَعر الكلُّ أنه هو الذي أغرى (جور).

بقي الرّائدُ (بيل) في الشّرق الأوسط من أيلول (سبتمبر) 1936م إلى تشرين الأول (أكتوبر) 1943م، وقضى معظم الوقت في المقر الرئيس في فلسطين وشرق الأردن، في القدس. وبحلول العام 1941م حَمل رتبة ضابط صف، وكان العقيد (أر. أي. وير) كبيرَ موظفي نائب مدير خدمات العتاد في خط الاتصال (الشرقي) في حيفا.

وُجّهْتُ لتجهيز مكتب للعقيد (جور) الذي كان سينضمّ إلينا بصفته نائبَ مساعد مدير خدمات العتاد، وفي الوقت ذاته طُلب مني أن أَستخرج ملفات السياسة وأُبْلغ العقيدَ (جور) عن الوثائق المهمة ليتعرف بنفسه على ما نقوم به.

وَصَلَ (جور)، وكانَ يبدو هائلَ الضّخامة، ويُوحي شكلُه بالمسدّسات المثبّتة على ساقيْه بأنّه جندي مقاتل. وعندما أَحضرتُ الملفات ليطلع عليها قال لي: «سيّد (هوارد)، لا مكان لي هنا، يجب أن أحصل على وظيفة حيث يوجد عمَل!»، وفي غضون يومين نُقل إلى طبرق.

وقد الْتقيْتُ به مرّةً أخرى في (نورماندي) حينما كان مديرَ مستودع العتاد هناك.

كرّر عديدٌ من المراسلين وصْفَ (بيل هوارد) لـ(جور) بأنّه «جنديّ مقاتل»، وتحدّثَ مَن قابلوه عن طوله وعن المسدسات المثبتة على رجليه، ولكنْ بوصوله المعسكرَ (614) في العام 1948م وجولانه في المستودع، نما مخزون أسلحته الشخصية وصار لديه قنبلتا يد معلّقتان بحزامه، وحَمل مسدس (برين)، ولديه كلب كبير بجانبه. ومن المؤكد أن الجنود الشباب والضباط المبتدئين أُعجَبوا به، وقد رأى (برين ريفرز) -وهو مساعدٌ فرعيّ- فيما بعدُ عقيدًا، وكان بلا شك يرى (جور) نموذجًا يحتذى به، وهو ما لخّصه في رسالته:



المقدّم توماس جيرارد جور (وسط يمين) القائد السّابق لمعسكر عتاد الجيش الملكي (614)، مع العقيد بيب واتسون، فرقة الحدود، والقائد فيني (ATS) وبيني، وابنة العميد بي.دي. جونز، بحفلة في حديقةٍ في تلّ الكبير، مصر، 1948م بعد الجلاء من فلسطين. والصورة من المقدم برين ريفرز

«إنّ المقدّم (جور) هو الضّابط الذي تتّبعه إلى الجحيم وأنت تعرف جيدًا أنّك ستعيش. أَطلق عليَّ لقب (الشرّير الصغير)، أظنني أستحق ذلك، لكني كنت الشخصَ الذي يُوقظه في وقت متأخر من الليل أحدُ موظفي العقيد بأوامر الذهاب إلى مستودع الأسلحة وتجهيز سلاح العقيد المفضل: «احمل سلاحك

وكن في (الجيب) بعد نصف ساعة، ستخرج في دورية». كان الهدف هو تسيير دوريات في مناطق المستودعات لردع اللصوص، عربًا كانوا أم يهودًا.

لم يقتصر سحرُ المقدّم (جور) الذين خدموا تحتَ إمْرته؛ كان من الجنود القلة في فلسطين ما بعد الحرب، الذين أُتيحت لهم فرصة مؤاخاة النساء المدنيات. وأكثرُ من تحدثوا وكتبوا عن المقدم السيدةُ (فيش) ضابط الرعاية المدنية في المستودع. تمكّن المقدمُ (فرانك ميتشيل) من تجنب محاولات تودد السيدة (فيش) إليه في سنوات الحرب، ويروي عن أيامه في فلسطين في سنوات الحرب برسالة وجهها إلى (جون تاران) عام (1982م): «كانت تأتي لرؤيتي مرتين في الأسبوع بحجج متعددة مع نوايا واضحة تمكّنتُ من تجاهلها».

في سنوات ما قبل الحرب، أَسّسَ اليهودُ وحدات مراقبة خفيّة متعدّدة، وفي العام (1942م) اندمجوا في شبكة واحدة تحت (الهاغانا) باسم (الشي): جَنّدوا نساء مدنيات لجمع المعلومات بأي وسيلة. نُسخت المستندات المطبوعة نُسَخًا كربونية وصُوّر بعضها. رأى بعض المحاربين القدماء أن هذا أحد أسباب علاقة السيدة (فيش) بـ(جور)، وظن آخرون أنه لن يَنظر إليها -وهي العجوز- ولديه الشابة الجميلة (سوزي ذو الفقار).

كَتَبَ (فرانك ود) عريفُ الرواتب: «كانتْ وسيلتي الرّئيسة لتفادي ملل مكتب الدفع هي أن أذهب مُرافقًا مسلَّحًا مع سيارة الإسعاف أو الضابط القائد في سيارة موظفيه. وبعد انضمام المقدم (جور) إلينا، رافقتُه في فلسطين كلها طولاً وعرضًا، وكنتُ أداوم في مكتب دفع الرواتب يومَ الدفع دائمًا. أذكر أنني كنت أرافق المقدم مرةً أو مرتين إلى ملهًى ليلي في حيفا: كان رجلاً عظيمًا، أَرسل زجاجات من الجُعّة (البيرة) لي وللسائق وهو يستمتع في الملهى. كان لديه أجمل فتاة هناك، وكانت تسافر برفقته في سيارة الموظفين، اسمُها (سوزي ذو الفقار)، وأنا على استعداد أن أَفعل أيَّ شيء لأظفر بليلة واحدة معها! لكن المقدم دائمًا يحظى بالحظ الأوفر، أليس كذلك؟

اصطحبنا كثيرًا من الأشخاص المتنوعين في رحلاتنا إلى القدس ونابلس وصرفند والناصرة و(تيبيريوس) وعكا وغيرها. لكنْ لا علمَ لي فيما إذا كان أيّ من أولئك الأشخاص له يد في صفقة الأسلحة التي أسقطت المقدم. وكلّ ما أعرفه أنه كان رجلاً رائعًا، بخلاف الرائد (نيومان) الذي كنتُ أكرهه.

ومن الجدير ذكره أنه لم تكن الفتيات اليهوديات كلهن يعملْنَ في التّجسّس، فقد تزوّجَ كثير منهن جنودًا بريطانيين في سنوات الحرب؛ وغالبًا ما اخترْن الضباط أو كبار الضباط في القوات المسلحة، وكنَّ سعيدات بالمجيء إلى بريطانيا مع أزواجهن للاستقرار في هذا البلد. وبعد الحرب ثُبِّط أفراد القوات المسلحة عن الزواج من المدنيين في فلسطين.

تذكّرَ (كين ليود) المقدّمَ (جور) لمّا كان الضّابطَ المسؤولَ عن سبعَ عشرةَ مركبةً وأحدَ الضباط الذين ألّفوا مجموعة متقدمة على شاطئ الذهب في (نورماندي) لقيادة مجموعة كان (كين) عضوًا فيها. لم يَنج إلا المقدم والجندي (جاك) و(وايت هيد) حين غرقتْ سفينتهم، لكنه كان على الشاطئ لمقابلة مجموعة (كين) عندما وصلوا.

لا يمكن نسيانُ الظّروف غير الاعتيادية والمثيرة (الدراماتيكية) التي الْتقى فيها (ليزلي مورجان) المجندُ الشابّ وهو في طريقه إلى مستودع عتاد الجيش (614) بقائده الجديد، وهي مثل المقدم (جور) نفسه!

كان (ليزلي) في قطار (القاهرة- حيفا) السّريع الذي عُدِّن في التاسع والعشرين من شباط (فبراير) 1948م. وكان (ليزلي) و(جور) في القطار ذاته إلى الوجهة ذاتها. وبعد حوالي ثلاث سنوات من عيش الجندي المغوار (جور) في السّلْم مَنحه الانفجار الفرصةَ لعرض صفاته القيادية الأسطورية.

كتب (ليزلي): «أذكر أنّه لم يُسْمَحْ لنا بالخروج من القطار إلى أن نُقلَت الجثثُ والجرحى إلى أماكن متعددة للعلاج. وبدا لي المقدم (جور) عملاقًا

بالشريط الأحمر حول قبعته ودرع سُتْرته. كنا نسير على طول مسار سكة الحديد بانتظام، وكان المقدم (جور) واقفًا على الحافة، فازداد طولُه طولاً.

وفي مستودع عتاد (500) بدرنة في طبرق حَصل (جور) على وسام الخدمة المتميزة لأنه نظّم المقاومة حتى بعد إصدار أوامر إلقاء السلاح.

ويتذكر (هوارد آلين) المقدّم (جور) حينما عُيِّن في طبرق:

«في حزيران العام 1942م كنتُ في مستودع (500) في درنة ومعي توصيةٌ بالتّرقية من عريف إلى رقيب، وجاء المقدم إلى المعسكر، وكان عليّ أن أقدّم نفسي أمامه، وقبل ذلك عليّ أن أقوم بالتدريبات: (الذراع واليد، وأطول طريق للأعلى وأقصر طريق للأسفل)، ولي ذكرى لا تنسى حين وقفتُ منتصبًا أمامه وهو جالس على طاولة بشاربه الأسود الكث، وعيناه نافذتا النظر.

صَرخ في وجهي: «لكي تكون رقيبًا يجب أن تكون جنديًّا كفؤًا. إذا لم تكن كذلك فسأعود وأمزق رُتبك». وبعد تحية مثالية عدتُ إلى الثكنة مسرورًا».

بعدَ بضعة أيّام دقَّ ناقوسُ الخطر العامّ واجتمعْنا على عَجَل لأنّ (جيري) في الطّريق. لقد كنتُ محظوظًا وتمكّنتُ من الخروج والوصول إلى الإسكندرية. وفي الأسابيع السابقة للإخلاء كان لدينا تدريباتٌ فوجيّة قبل العمل في المستودع، وتدريبٌ على الضربات المربّعة، وتدريبٌ على التحية، حتى السير أثناء ارتداء أقنعة الغاز. لا بد أن (جيري) كان يضحك منا، فمن الواضح أن هذه الأوامر أوامرُ المقدم (جور).

قلت وداعًا لزميلي (إيدجر تريماين) الذي قُبضَ عليه. لقد مات، ولكنني رأيته بعد التسريح وأخبرني كيف نزلوا جميعًا إلى المستودع الرئيس، وكيف كان المقدم (جور) يسير بمسدس مهددًا بإطلاق النار على أي شخص يدخل الخنادق!

اختلفتْ طريقةُ المقدم (مالكولم ستون) وطريقةُ (جور) في غير مناسبة. كانت المرّةُ الأولى حين كان في العام 1946م قائدًا (كابْتِن) ملحقًا بقيادة العتاد في القاهرة، وكان (جور) يخدم في البعثة العسكرية الإنجليزية في الجيش

المصري، ثم نُقل الرجلان (مالكولم ستون) إلى القيادة في فلسطين بالقدس، و(جيري جور) إلى قيادة مستودع عتاد الجيش في حيفا. وقد عَرف (جور) أيضًا الرائدَ (نيومان) ضابطَ زمن الحرب؛ الشخصَ الأقلَّ جاذبيةً وكان ضابطَ الفرقة.

كان (مالكولم ستون) قائدًا لنائب مدير خدمات العتاد العميد (سي. اتش. اي. كيت موثر) الذي كان (جيرارد جور) مسؤولاً عنه.

عَرَف (لوثر جور) قبلَ الحرب حيث كان الاثنان ضابطَيْ نظام، ودائمًا ما يتحدث عنه بتأثّر شديد. لقد كوفئ العميد (لوثر) بالوسام العسكري لمشاركته في الحرب العالمية الأولى، وقال (ستون): «لقد أشيعت هنالك شائعات تشير إلى انخراط (جور) و(نيومان) في أنشطة بيع الأسلحة التي صادرتْها الشرطة الفلسطينية وأُودعتْ بمستودع لتُلقى في البحر لاحقًا».

«عندما اعتُقلَ (جور) وحوكم محاكمةً عسكرية احتُجز في مطعم للضباط في (فيلتم). لقد كنتُ موجودًا بعد ذلك في مكتب لشؤون الحرب، وقد وَجَب على المسؤول المباشر عني المقدم (دي. دبليو. هيث) أن يتناوب مع الآخرين على القيام بمهمات المرافقة. ومنَ المثير للاهتمام أنه كان سابقًا المسؤولَ المباشر عني في القاهرة، وكان (جور) يزوره، ولذلك رأى أن القيام بهذه المهمات تجربةٌ مؤلمة. ومؤكَّدٌ أن هذا يشير إلى رجوع (جور) إلى رتبته القديمة (مقدّم)».

(أجاب المقدّمُ (مالكولم ستون) عن أسئلة استفتاء عامّ، الأسئلة التي حيَّرتْ كلَّ مَن عَمل في وحداته. لقد نُقل مكان عمله من طبرق إلى ألمانيا، وشَغل منصبَ عقيد ثماني سنوات، ولكنْ بدون أن يتمتع بالمزايا التي يتمتع بها شاغلو هذا المنصب. هل كان ذلك بسبب سلوكه؟!)

لقد كان اللّواءُ (جي. جي. دينستون) يشغلُ منصبَ المدير المسؤول عن المعدّات الحربية حين غُزيتْ (نورماندي)، وقد أَخبر مسؤولي محاكمة (جور) العسكرية عن خدمات (جور) المهمة التي قدّمَها خلال عمليات الهبوط مع دول

الحلفاء، وأشار إلى امتلاكه مهارات قيادة ممتازة وإلى أنه صعُبتْ عليه معرفة المهمة الصحيحة الواجبة عليه في أوقات السلم.

ورغم شغْل اللواء ذلك المنصبَ لم تُتَحْ لـ(جور) فرصةٌ للقيادة، لكنه أسهم بتقديم خدمات النقل والإمدادات العسكرية (اللوجستية)، وقد وجدَ قليلاً من الرِّضا تجاهَ تقديرِ الشرطة المسؤولة عن انضباط المعسكر والمستودعات لجهوده في تحفيز الأفراد وتجميل صورة الشرطة بتحسين مظهر عناصرها وتطوير أسلحتهم ورفع روحهم المعنوية. ولُقِّبَ (جور) بـ(زناد البندقية رقم 614) لشغفه بالأسلحة النارية الشخصية وتحذير الجنود من إطلاق النار على المدنيين، وكان لذلك أصداءٌ إيجابية لدى العاملين في المخازن، ولم تُطلَق النار على أحد في المستودع. ولكن، في معسكر أحد معاهد البحرية والجيش والقوات الحربية قُتل بعض العرب بحادثتي إطلاق نار منفصلتين.

لقد أَطلقَ أحدُ عناصر شرطة الانضباط النّارَ على شخْص ففُصل وأُرسل إلى بلده في المملكة المتحدة. وفي حادثة أخرى، استَهدف لصوصٌ بسطاء من قرية الطيرة المجاورة أحدَ معاهد البحرية والجيش والقوات الحربية، وكانت المشروبات المسكرة والسجائر أكثرَ ما يَهْوَوْنَه ويُغويهم ولا سيما أنها لم تكن متاحة للشباب المسلمين. لقد كان هؤلاء اللصوص يشقون طريقهم بتجاوز سياج يطوّق المنطقة حين اكتُشفت نقطة عبورهم ولا يستخدمونها مجددًا، حَدث ذلك في حادثة إطلاق النار الثانية. لقد أَمر المقدمُ (جور) حارسًا بالبقاء والانتظار في أحد المعاهد.. وفي أثناء ذلك قَدِمَ لصّ لتجريب حظه فأَطلق الحارس النارَ على هذا المتطفل فأرداه قتيلاً فورَ رؤية رأسه من النافذة.. ثم انتظر قدومَ حارس بسبب صوت النار، ولكنْ لم يأت أحد فالْتفتَ وأَطلق النار على الباب مخترقًا الزجاج ولم يُكشف موقعه. إنّ قتل مدني -أيًّا كان السبب- يعد عملاً مروعًا، وقد أُرسل الجندي إلى وطنه. وإذا كان المتطفل المقتول يهوديًّا أُرسل الجندي إلى وطنه خوفًا عليه من الانتقام.

لقد بَيّن مسؤولُ المحاكمة العسكريّة للمقدّم (جيرارد جور) الفرقَ بينَ المحاكمة التي تقوم بها دائرةُ الادعاء المَلَكية والمحاكمة العسكرية.

كانتْ مدّتُها أقصر، فلمْ تَطُل مدّةُ تأجيل الجلسة، لأنّه لا هيئةَ محلّفين. لقد كان أعضاءُ المحكمة يناقشون القضية خمسًا وأربعين دقيقة، ثم يعلنون النتائج. لكنّ، ليس هذا هو الفَرق الوحيد. يُشْبه الدليلُ الذي قدّمه النائب العامّ العقيد (هالسي) في القسم القانوني للجيش الدليلَ المقدّمَ في قضية (أر. أتش. نيومان) الذي كسب مالاً ببيع هذه القصة إلى جريدة تُنشر يومَ الأحد.

الذين تعرّفوا على (نيومان) في الجيش عرفوه شخصًا غيرَ عقلانيّ وأنانيًّا، ولمْ يُفاجَؤوا بقراءة ما وَصف به نفسَه في قصته: «ملكُ الشّرق الأوسط في تهريب الأسلحة»! وقد ذَكَر الضابطُ السابق الذي كان مسؤولاً عنه بأنه سِكّيرٌ غيرُ صادق. وهذا الوصف غير مفاجئ.

يُثار التّساؤلُ عن هويّة القائد الذي وصفه بالسّوء؛ هل هو العقيد (ستامب) الذي ترك مستودع عتاد الجيش (614) في تشرين الأول من العام 1947م ليتقاعد؟ أم المقدم (جورج مايرز) الذي شغل المنصب حتى آذار العام 1948م حينما تسلم (جور) المنصب؟

إنّ (نيومان) على الأغلب هو مدبّر صفقة الأسلحة غير القانونيّة، وقد عوقب بالسّجن سنتين حين حوكم بجرائمه، وجُرّد من وظيفته في الجيش، كما عوقب (جور) بالسجن ست سنوات وعُزل من وظيفته في الجيش أيضًا. وفضلاً عن عقوبةِ السجن أكثرِ العقوبات صرامةً، فُرض عليه مزيدُ إذلال بتجريده من رتبته وأوسمته ومعاش تقاعده.

وليس مصادفةً شطبُ روايات محكمة المقدّم (جور) العسكرية من السجلّات والإفراج المخزي عنه. لا يظهر اسمُه في كتاب التاريخ الرسمي لسلاح عتاد الجيش رغم مآثره المذهلة في زمن الحرب! وطيلةَ محاكمته الْتزمَ الصمتَ بكبرياء عالٍ ربما يكون هو -أي الكبرياء- دافِعَ الكتابة الكثيرة عنه في أعمدة الصحف، وهو ما لا يُناسب تهمَ الادعاء الثمانية التي وُجّهت له بلا داع.

اعترفَ العقيد (آر سي هالس) بالمقاضاة أنّ أدلّة الرّائد (نيومان) مَعيبَة، ولكنْ ستَظهر أدلة أخرى بشهادة مستقلة. ورغم ذلك تثير شهادة (نيومان) الاهتمام.

وَصف (نيومان) نفسَه بأنه نائبُ القائد السّابق في العام 1947م تحت قيادة العقيد (جور). ناقش (جور) مناقشاتٍ منتظمةً عن أمن المستودع فاتّصل بـ(الهاجاناه).

كان بيع الأسلحة للعدوّ جريمةً خطيرة؛ وفي هذه الحالة يكون العدوّ هو (الهاجاناه).

فُوّوِضَت (الهاجاناه) مفاوضات عديدة، وقد فاوضها (نيومان) مباشرةً. ولمّا نوقشت في أبريل أو مايو 1948م الأسلحةُ الفائضة التي يجب التخلص منها؛ كان (جور) حاضرًا، كما حَضر بعضُ ممثلي (الهاجاناه).

وبعد ذلك أَخبر (جور)(نيومان) عن الأسلحة الفائضة التي يمكن بيعُها للهاجانا.

كانت الأسلحةُ في الغالب مدافعَ رشّاشةً من نوع (براونج)، وقد تكون هناك بعض الأسلحة القديمة كالأسلحة المضادة للدبابات؛ ضمن كمية كبيرة من أسلحة الإعارة والتأجير في المستودع، التي كان لازمًا إلقاؤها في البحر الأبيض المتوسط قبل إخلاء البريطانيين فلسطين. أُلقي كمٌّ هائل من بنادق (تومي) وغيرها من الأسلحة الصغيرة في البحر، وبقيتْ هناك مدافعُ رشاشة (براونج) حُولت إلى (الهاجاناه).

ثم اتّفقَ (نيومان) و(الهاجاناه) على مبلغ المال الذي سيُدفَع، (ولا شك في أنهما اتفقا أيضًا على طريقة الدفع).

كما تورّطَ في صفقة الأسلحة غير القانونيّة الرّقيبُ الأوّلُ (جريفز)، والرّقيبُ السّابقُ (دينيس مايكل إيفرز) الذي قدّم أدلّةً في محاكمة الرائد (نيومان) السابقة، وكانوا حاضرين عندما كان العقيد (جور) والرائد (نيومان) يتناقشان

في البيع. اتُّفق على أنْ يَحمل (جريفز) الأسلحة بسيارة الاستطلاع البيضاء إلى معسكر المركبات البريطاني السابق الذي بِيع لليهود، وكان قريبًا من معسكرهم.

كان معسكرُ المركبات البريطانيّ المعنيّ هو مجموعة المركبات (611) السّابقة جنوب مستودع عتاد الجيش (614) قربَ (عتليت).

بيعتْ منشآتُ سلاح عتاد الجيش الملكي الثلاثة: مستودع عتاد الجيش (614) ومعسكر (153) ومجموعة مركبات (611) لليهود قبل إخلائها. ربما ضُمِّنت سيارةُ (جور) الـ(شيفروليه) للبيع لأن (إريك لونغ) صَوّرها في معسكر (153) الذي كان مهجورًا حينئذ. وتمَّ شحن حوالي ست شحنات، وأَبلغ (نيومان) (جور) عن الشحنات كلها. وإذا سُلِّمت شحنات الأسلحة في نيسان (أبريل) أو أيار (مايو) فسيكون ذلك الجزء من السهل الساحلي الشمالي في أيدي اليهود. وقد فرّ عديد من قرويي المنطقة قبل مذابح الطنطورة وفريديس جنوب (عتليت). وقال (مناحيم بيغن): ذُعر العرب ففَروا من رعب مذبحة دير ياسين.

قال (دينيس مايكل إيفرز) مِن (مارستون غرين- برمنغهام) ببيانه في محاكمة الرّائد (نيومان) السابقة أنه انضم إلى الجيش جنديًّا وطنيًّا في أيار (مايو) 1946م وأُرسل إلى مستودع عتاد الجيش (614) ورُقّي إلى رقيب أول. وفي أوائل العام 1948م تلقّى تعليمات عن واجب الحراسة، وكان مسلحًا بمسدس (ستين)، وقيل له أن يُدخل شاحنة.. ذهبوا إلى معسكرٍ استولى عليه اليهود على بعد اثني عشر ميلاً من حيفا، حيث فرّغ مدنيون يهود الشاحنةَ من الأسلحة. وفيما بعدُ تمَّ القيامُ ببضع رحلات إلى المعسكر.

ذَكر (إيفرز) أنّه لم يتلقَّ قطُّ تعليمات محددة بشأن الأسلحة من الرائد (نيومان): «استخلصت أن هذا يتعلق بـ(M15»). نَقل الرائد (نيومان) هذا الانطباع، وخَلُصَ أيضًا بالاستدلال، أنه إذا قال شيئًا لأي شخص فستُتَّخذ ضدَّه إجراءات.

أُلقيَت الأسلحة والذّخائر في البحر قبلَ أشهر من وصول العقيد (جور) إلى مستودع عتاد الجيش (614). ويبدو هذا عند البعض مثل حرْق ورقة جُنيه إسترليني. كان من المتوقع أن القائدَ الذي خَدَمَ -جنديًّا- مدةً طويلة، وضابطَ الصف مسؤولَ مستودع الأسلحة، العقبةُ الوحيدةُ التي تَحول دون أي سرقة. استُبدل بضابط الصف العريفِ (برين كروس) رقيبُ الأركان الأكثر مرونةً، الذي رُقّي حديثًا (دينيس إيفرز). لا يَلزم المحكمةَ العسكريةَ وضع نقطة على كل حرف «i»، ولا شخْطة على كل حرف «t» ليصير شكلَ صليب، فلا هيئةَ محلفين لِتُرْضَى، ولم يُقَدّم (جور) أيَّ دفاع. ولما أصبح المغامرُ -الساذج- المقدمُ (جور) هو القائد، صارت خطة (نيومان) ممكنة.

سيَجعلُ التواصلُ السابقُ بين الجيش البريطاني و(الهاغاناه) التّورّطَ المزعومَ بصفقة الـ(M15) قصّةً معقولة، ولكن رواية الرقيب (جريفز) عن الأحداث أكثرُ الروايات منطقيّةً. كان رقيبًا أوّلَ في مستودع عتاد الجيش (614)؛ وفي نيسان (أبريل) 1948م مع الرائد (نيومان) والعقيد (جور) اللذين يناقشان بيع الأسلحة لليهود.

وردًّا على سؤالٍ ما إذا كان هناك مِن ذكْر للمال أجاب: «ستُقسّم أموال الأسلحة بالتساوي على أربعة منّا؛ زهاء خمسة وعشرين ألف جنيه إسترليني».

حَضر الرّائد (نيومان) في عمليّات التّحميل كلها، وكانت زهاء ستّة، كما حضر العقيد (جور) أحيانًا. تتألف الأسلحة من بنادق (برين) و(فيكرز) وأسلحة مضادة للدبابات. ذَكر الرقيب (جريفز) أن السيد (سيلفر) -وهو مدني يهودي- في مناسبة أخرى شقَّ نصف جنيه إسترليني إلى نصفين، أعطى الرائدَ (نيومان) نصفًا. وقال أن الأموال ستُدفع له عندما قَدّمَ نصف أوراقه البالغة جنيهًا إسترلينيًّا في (إنجلترا).

قال الرّقيب (جريفز) أنّه عاد إلى (إنجلترا) في شباط 1949م، وبعد زهاء ستّة أسابيعَ أو سبعة تلقى برقيةً من الرائد (نيومان). الْتقيَا في (أدجوير) وذهبا

إلى (ديوسبيري)، وهناك الْتقيا بـ(سيلفر) آخرَ لا السيدِ (سيلفر) الذي رَأَيَاه في فلسطين. أبرزَ الرائد (نيومان) نصفَه من الجنيه الإسترليني وسلّمه السيدُ (سيلفر) حقيبة. لم تُفتح الحقيبة هناك، لكن السيد (سيلفر) قال إن هناك زهاء خمسة وعشرين ألف جنيه إسترليني. وقال الرقيب (جريفز) إن الحقيبة مليئة بفئة الخمسة جنيهاتٍ الإسترلينية، والجنيه الإسترليني. وقال الرائد (نيومان): «انتهى الآنَ. كلّ شيءٍ صحيح».

ذَكر (برنارد إيزادور سيلفر) من منطقة (دُيوسْبيري/ Dewsbury) أنّه في العام 1948م حصل على حزمة لتُسَلَّم إلى الرائد (نيومان)، الذي قُدِّم له نصفُ جنيْه، ولما تَسلّمها قال إنه لا بد من خمسةَ عشرَ ألف جنيه إسترليني إلى ثمانية عشر ألف. ولكن (سيلفر) لم يناقش الأمر.

ولما سُئل عن الحقيبة أجاب: «مِن أحد أصدقائي»، فسألوه عن هذه المعرفة فقال: «لستُ جاهزًا للرد على ذلك».

ثمّ سُئل: «هل كان يهوديًّا؟» فأجاب مرّةً أخرى: «لستُ مستعدًّا للإجابة عن ذلك». ولما أَعلموه بأنه قد يُتّهم بازدراء المحكمة قال: «كان يهوديًّا».

وفي تصريح للرّائد (آر سي لامبرت) من فرع التّحقيق الخاصّ، في الرابع والعشرين من آب (أغسطس) 1951م، ذَكر (نيومان) أنه في شباط (فبراير) 1948م اقتربَ منه العقيدُ (جور) الذي ناقش إمكانية بيع الأسلحة والذخائر إلى الدول العربية، وأعطاه قائمة الأسلحة في مستودع الأسلحة، ففهم أنها ستُقدّم للعرب.

ثمّ وَصف زيارات إلى القاهرة ودمشقَ وبيروت، وذكرَ (نيومان) ما قيل له أنّ المبلغ الذي سيُدفع مقابلَ الأسلحة هو خمسة وعشرون ألف جنيه إسترليني، لكنه أحسَّ لاحقًا أنها مؤامرة لقتله هو والعقيد (جور) فتخلى عن الخطة. وفيما بعدُ اقتَرح العقيد (جور) بيع الأسلحة لليهود. وقال (نيومان): «كان غباءً، وأتأسّف على ذلك شديدًا الآن لأنني وافقته على مقترحاته. أخذت (جريفز) والرقيب

(إيفرز) جزئيًا في ثقتي. سُلّمت كمية من سلاح (براونينغ) وغيره من الأسلحة المتقادمة -التي كان من المقرر إلقاؤها أو تدميرها- إلى معسكر يهودي في (عتليت). ولهذا تلقينا دفعةً تبلغ زهاء ثمانية عشر ألف جنيه إسترليني: دُفع منها سبعة آلاف في مصر إلى أحد أصدقاء (جور). ولما عدنا إلى (إنجلترا) دَفع لي المالَ رجلٌ ذو علاقات باليهود اسمُه (سيلفر). وقد دَفعتُ مبالغ للعقيد (جور) حوالي ألف وخمسمئة جنيه إسترليني، واتفقنا على أن له ثلاثين بالمئة من أية استثمارات قمنا بها.

كان واضحًا مِن هذا البيان أنّ (نيومان) كان يُلقي اللّومَ على العقيد (جور) في صفقة الأسلحة هذه.

وبعد ما يزيد على خمسين عامًا، يُؤمِن الذين خَدموا في مستودع عتاد الجيش (614) إيمانًا راسخًا أن (نيومان) كان العقلَ المدبر لصفقات الأسلحة غير المشروعة. وربما يكون الرأي متأثرًا بفقدان الرجلِ الشخصيةَ والتعاطفَ. اتصلَ بـ(الهاغاناه) اتصالاتٍ وقام برحلات إلى حيفا بعد حظر التجول.

وبنظر الذين خدموا في فلسطين ذلكَ الوقتَ: لا يَنْبغي تمريرُ أيِّ أسلحة من أيّ نوع إلى أولئك الذين كانوا حتى أواخر الانتداب إرهابيين يقتلون الجنود ورجال الشرطة البريطانيين. ومن مطلع كانون الأول (ديسمبر) 1947م إلى نهاية الإخلاء قُتل مئتان واثنان وعشرون جنديًا بريطانيًا إضافيًا.

رغْمَ نهاية الانتداب في الخامس عشر من أيار (مايو)، ما يزال هناك جنودٌ وإمداداتٌ في منطقة حيفا، ومن ذلك مشاةُ البحرية وحراس التنّين الملكي الذين كانوا يحمون المنطقة.

وإشارةً إلى تصريح (نيومان) بمشاركة (جور) في اجتماعات (الهاغاناه) كلها، استُجوب السيدُ (ميلفورد ستيفنسون) من (قفقاس سنتر)، الذي يمثل العقيد (جور) بوساطة الرائد (نيومان). «أحيطكم علمًا أن المقدم (جور) لم يحضر ألبتَّةَ في المفاوضات التي جرتْ بينك وبين الهاغاناه».

وردّ (نيومان): «هذا صحيح». قَدّم الرقيب (جريفز) والسيّد (دي إم أبفرز) الأدلةَ ذاتها في محاكمة العقيد (جور) العسكرية، كما في حالة الرائد (نيومان).

وقال السّيّد (برنارد إيزادور سيلفر) أنّه سَلّم (نيومان) حقيبةً في (يوستون) بإيعازٍ من صديق عزيز. لقد فهمَ أنها تحوي أموالاً. وقال (جريفز) أنه لم يذهب إلى (يوستون) من أجل حقيبة أموال. والمكان الذي جمع المال فيه لم يُعدّ شيئًا مهمًا، ولكن رواية (سيلفر) تختلف عن رواية (نيومان) و(جريفز) في هذه النقطة.

وَثَمَّةَ تفاصيلُ كان لا بدَّ من تفحصها كلها لو كان ذلك في محكمةٍ مدنيّة.

ولما استُجوب بالتفصيل اعترفَ (سيلفر) أنّ له أخًا في حيفا. لم يعلم بأيّ ترتيبات من قبَل أعضاء فريقه لتعيين (نيومان) بعد مشاكله الحالية، ولأنه تردَّد في ذكْر مَن سلّمه الحقيبة وفيما إذا كان يهوديًا؛ علمْنا أنه شقيق (برنارد إيزادور سيلفر).

ودافعَ العقيدُ (جور) عن نفسه بأنّه لا يُعَدُّ مذنبًا بمُجَرَّد توجيه خَمْس تُهَم -وقد برئ منها بعدُ- لا أدلةَ عليها. ولأسبابٍ عمليةٍ لا فنّيّة، اعترفَ بالتّهم المُدَان بها.

قال السيّد (ستيفنسون) في دفاعه عن القضيّة: «حتّى وقْت وقوع هذه الأحداث، يتمتع العقيد (جور) بالحماية العسكرية، التي كانت تحميه حمايةً شديدة من لقاءِ الأشخاص في الخارج، الذي يُلْزِمُ أن يكون معه مرافقون.

أليس واضحًا أنّ (نيومان) هو رأس مشروع بيْع الأسلحة لليهود؟»

رأتْه المحكمةُ في مكان الشّهود، ورأتْ في شخص السّيّد (برنارد سيلفر) -على الأقلّ- إحدى الأسَر التي ارتبطَ بها (نيومان).

صَمّم آلافٌ من اليهود في فلسطين على استخدام كلّ وسيلة للحصول على السّلاح، وهم ذوو خبرة طويلة في الأعمال، تمتد لآلاف السنين، فماذا يسع (جور) البائسَ أن يفعل إذا صَمّموا على الوصول إليه؟!

بمجرّدِ أنْ فكّرَ مثلُ هذا الرّجل بقبول بضعة جنيهات، انتهى. ورغمَ سجلّه الرّائع، أصبح المتّهم ضحيةً أخلاقية، دنّسته الحثالةُ الذين اتصل بهم.

جَعَلَ تقريرُ (التايمز) الذين عرفوه يعيدون النظر في جوانب عديدة من محاكمته العسكرية. وقليل من الناس يرون أن (نيومان) و(جور) لم يبيعا مزيدًا. وقد تَعذّر التحقق من الكمية. وأَخبر المقدمُ (جورج مايس) -الضابطُ مسؤولُ تصريف الأعمال بمستودع عتاد الجيش (614) في المدة من رحيل العقيد (ستامب) إلى وصول (جور)- المحكمةَ أن السجلات فُقدت في خليج حيفا قبل المحاكمة العسكرية.

أشيعت هناك شائعاتٌ حول تورّط (جور)، ومنها أنّ الشرطة الفلسطينية استولت على الأسلحة المعنية من (الهاغاناه) وسُلّمت إلى المستودع.

ظنَّ كثيرٌ، وأنا منهم، أنّ (جور) كان يتعاطف مع الصهاينة، فلم يكن في فلسطين مثلَ معظم العسكريين الذين صاروا حذرين من السكان اليهود بسبب أعمال إرهابييهم وقدرتهم على التلاشي في المجتمع اليهودي عقبَ الفظائع! وفي الوقت نفسه، أصبحت القوات أكثرَ تعاطفًا مع عرب فلسطين. وفضلاً عن ذلك، كان لدى (جور) مزيدٌ فرص لمفاوضة اليهود؛ ومثال ذلك زيارةُ (بن غوريون) للمستودع.

وكانت ثمّةَ علاقةٌ قويّةٌ بين (جور) والسّيّدة (فيش) التي كانت تُعدُّ (أُذُنَ العقيد).

أثارت «قصاصات فلسطين في طبعتها الأولى اهتمامًا جديدًا عندما أعادت طبْع تقرير (التايمز): تتعلق القصص بتساهل (جور) تجاه المتسللين اليهود الذين قُبض عليهم بالمستودع عندما أَطلق سراحهم. في حين غَضب فيه حينما لم تُطلَق النار على المتسللين العرب، وسُلّموا إلى الشرطة بخلاف أوامره!

واتّفق الذين وُظّفوا لإلقاء فائض الأسلحة في حيفا على أنْ لا بأسَ بتحويلها إلى مكان آخر إذا أمرَ الأمرَ ضابطان كبيران.

ورغمَ تقديم (التايمز) تقريرًا أكملَ من تقارير الصّحف الأخرى؛ أثارتْ -بلا إجابات- أسئلةً مهمة. عاد (نيومان) إلى إنجلترا في وقت مبكر من العام 1949م، والْتقى (جور) في (فارنبورو) في وقت لاحق من العام ذاته وأعطاه ألف جنيه إسترليني من الأوراق النقدية. اشترى (نيومان) أربعة عقارات بمئتي جنيه إسترليني باسم (مارجريت جور) أختِ (جور)، لكنهم كانوا يوثّقون لصالح (نيومان). وأدركتْ الأختُ من أخيها أنه إذا احتاج المالَ أثناء وجوده في الخارج فستتمكن من بيعها. وكانت الآنسةُ (جور) -و(هيكتور بارسيلون)- محاميةً وعضوًا سابقًا في هيئةِ المحامي العام للشّرق الأوسط، شهود الادّعاء. أَقرض (بارسيلون) (جور) سبعمئة وسبعين جنيهًا إسترلينيًّا (وكان في العام 1947م يُعدّ مبلغًا كبيرًا!)، وقد سدّدَ (نيومان) الدَّين بعد تلقي أموال من (سيلفر).

طوالَ الوقت، تُخطئ صحيفةُ (التايمز) بذكرها مستودع عتاد الجيش (614) على أنه مستودع العتاد المتقدم (614).

كانت أشهُرُ الانتداب الأخيرةُ نهايةً متعجّلةً وغيرَ مرضية للإدارة البريطانية في فلسطين. ولا يَعرف الأحوالَ حينئذ إلا الذين خدموا هناك: سرقاتُ أسلحة كثيرة، وقد اشتُبه ببعضها أنها وقعتْ في أثناء العمل!

كان الخروجُ غيرَ منتظم، لكنّ له قواعدَ. أخبرَ الرّقيبُ (فريمان) الذي عمل في الملجأ (11) عام 1947م -وهو من قدامى المحاربين في (دونكيرك)- الذين عملوا معه كيف خرجوا من فرنسا، وقد طُلب منهم حزمُ الصناديق وتجهيزها للنقل، لكنهم غادروا على عجل فورَ دعوتهم لذلك. حَصل العدو على كمية كبيرة من الذخائر الأساسية المعبأة. ومع كل تقدُّم أو تراجع من هذا الجانب أو ذاك، هناك ارتباكٌ كاف لتحريرِ (سرقة) أغراض قيمة ومرغوب فيها. وكان الانسحاب من فلسطين فوضويًا فوضى فزادت نسبة السرقات عن مستواها الاعتيادي، رغم أن الانسحاب لم يكن متعجلاً كانسحاب زمن الحرب.

صَعُبَتْ على القوات البريطانية إعادةُ بعض ممتلكات الـ(W.D.) إلى بريطانيا، فكان مرجَّحًا أن يأخذوا الأشياء التي يمكن تحويلها إلى أموال على الفور فقط. اختار (جور) و(نيومان) أن يبيعوا أسلحتهم لليهود بدلاً من العرب، لأنهم يخشَوْن من العرب أن يقتلوهم لأنّهم لم يستطيعوا تسلّم أسلحة إلا مرةً واحدة.

ولكنّ التّفسير الأرجح هو أنّ (الهاغاناه) كان لديها مستودعُ استقبال مثاليّ في مجموعة مركبات القيادة (611) السابقة، فضلاً عن تمويل وتنظيم تسليم النقود في إنجلترا حيث كان يتم مباشرة. ولا يوجد بنك سويسري، بل لا وجودَ لبنك على الإطلاق، ولا أوراق مصرفية (شيكات) أيضًا.

ليست صفقةُ أسلحة (جور ونيومان) آخرَ حلقة خاصة غادرة من أعضاءٍ عديمي المبادئ في جيش بريطانيا بفلسطين؛ فثمة سرقة جريئة في التاسع والعشرين من حزيران (يونيو) 1948م بعد أربعة وعشرين يومًا من إبحار (جور ونيومان) من حيفا بالباخرة (جورجيك الثاني): سَرَقَ ثلاثَ دبابات من مطار حيفا الساعةَ الواحدة والنصف رقيبان بريطانيان من حرس التنين الملكي وعضوٌ من الهاغاناه، وكان الرقيبان (مايكل فلاناغان) و(هاري ماكدونالد) يسرقان

الوَقود والمعدات ويبيعانها إلى الهاغاناه في زمان ما. ووفقَ (دان كورزمان) مؤلفِ كتاب (سفر التكوين 1948) فقد دُفع لهما ثمانية وعشرون ألف جنيه إسترليني مقابل الدبابتين اللتين تمكَّنَا من قيادتهما من حيفا إلى تل أبيب. أما الدبابة الثالثة فقادها عضوٌ من الهاغاناه، وهو سائق عديم الخبرة، انزلق في خندق.

وعملُ (فلاناغان وماكدونالد) الآثمُ يعني أنّهما إذا عادا إلى بريطانيا العظمى فسيحاكمان محاكمةً عسكرية وسيحتجزان مدةً طويلة. لا بديلَ سوى البقاء في دولة إسرائيل والخدمة في جيشها. وقد وَصف (كورزمان) حياتهما بعد الخدمة في الجيش بأنها حياة مرضية مع أزواج يهوديات في التجمعات اليهودية (التي كانت تسمى: الكيبوتز).

كان (بيتر مارش) عريفًا سابقًا في الحرس الملكي التنين عندما غادروا حيفا في الأول من تموز 1948م، وهو يتذكر الحادثة جيدًا، وقد لَفتَ انتباهي إلى كتاب (تفويض القبطان) للقائد (فيليب بروتون) الذي يقتبس من تقرير السرقة الرسمي للرائد (بات روبرتسون) الذي أَكد السرقة. وحياةُ الرقيبين ما بعد السرقة جاءت من (سفر التكوين 48).

المراجع:

-إجراءات المحاكمة العسكريّة من (التايمز)، كانون الأول (ديسمبر) 1951م.

—موادّ أخرى من مراسلات كتّاب قصاصات فلسطين.

11. فظاعة كبيرة جدًّا

كانتْ هناك سلسلة أحداث عام 1947م تهدف إلى بلورة قلوب الساسة البريطانيين وعقولهم وإثارة غضب الجمهور البريطاني. ومنذ أصبح (بيفين) وزير الخارجية وهو محاصر بضغوط متضاربة معظمُها من أمريكا، وبعضها من ساسة بريطانيا، وليست أقلَّ منها ضغوطُ صهاينة حزبه (حزب العمال البرلماني). وربما يكون تفجيرُ فندق الملك داودَ حدثَ العام 1946م الأساسيَّ، الذي دفع (تشرشل) -وهو صهيوني محبط- للمطالبة بإجراء إيجابي في بيانه «اُحْكُمْ أو اسْتَقِلْ».

لمْ نُحِط بأخبار الفظائع كلها، والأخبارُ التي حصلْنا عليها تفتقرُ إلى التّفاصيل، وحتّى صحيفة (فلسطين بوست) التي يملكها اليهود لم تسجلْها كلَّها. كنا على يقين -تقريبًا- من فظائع شمال فلسطين، ليس من الصحف أو النشرات الرسمية بل من شبكة النقل. كانِ الرجال والشاحنات من الأفواج جميعها غالبًا مع سائقي فيلق خدمة الجيش الملكي يدخلون ويخرجون من المستودع طوال اليوم في ساعات النهار. وكان سائقونا، مع مرافقين، يسافرون بين الأرصفة والمستودعات الفرعية وورش العمل، وكان المستودع بمثابة خليّة معلومات. وبعد أيام قليلة من العمل في المستودع قُصف بنك (باركليز) بحيفا. وفي اليوم التالي سافر (جون وايت) إلى حيفا بسيارة (جيب) وسمع مزيدًا من الانفجارات. ومن يومياته نعلم أنه في الخامس عشر من أيار 1947م فُجّر قطار يوصل العمالَ العرب إلى مستودع عتاد الجيش (614)، ولذلك لم يُسمح للعمال اليهود بدخول المستودع. وما عَدَدْناه جولةَ نشاطِ إرهابٍ مُضجر كان رسالةَ شماتة كُتبت إلى صحيفة (نيويورك هيرالد تريبيون/ New York Herald Tribune) التي طُبعت مصادفةً في يوم انفجار سكك الحديد نفسه. وقد كُتب إعلانًا ودَفع له (بين هيشت) الذي كان كاتبَ نصّ في (هوليوود)، وكانت محتويات الرسالة بمثابة تحريضٍ بشع على مزيد من العنف.

«يهود أمريكا معكم، أنتم أبطالهم، أنتم ابتسامةُ يرتدونها، أنتم الرّيش الذي يزين قبّعاتهم. في كل مرة تفجّرون ترسانة بريطانية أو تحطمون سجنًا بريطانيًا أو تفجرون سكة حديد بريطانية عاليًا في السماء أو تسرقون بنكًا بريطانيًا أو تهجمون ببنادقكم وقنابلكم على الخونة وغزاة وطنكم البريطانيين -تصنعون عيدًا صغيرًا في قلوب يهود أميركا.

تدميرُ السّجن، الذي كان عيدًا في قلب (هشت)، وَقع في الرابع من أيار 1947م حينما هاجم الإرجونيُّ (زفاي ليومي) سجنَ عكّا. لقد كانت غارةً نهارية جريئة من مجموعة تُفضّل عادةً ساعات الظلام، لكن حظْر تجوّل الليل الذي فُرض عقبَ إعدام (دوف غرومر) ما زال قائمًا. أولاً، وَقع هجومٌ تضليلٍ على معسكر قريب.

وَصَلَ الإرهابيّونَ إلى السّجن متنكّرينَ بزيِّ الجنود البريطانيّين في شاحنة بريطانيّة. هُرِّبت متفجرات إلى السجن في وقت ما من قبل، واختُرق الجدار بانفجارات في السجن وخارجه. وفي فترة اختراق الجدار القصيرة هَرب مئتان وأربعةَ عشر مدانًا عربيًا وواحد وأربعون يهوديًا. وكان هدف الخطة إطلاقَ سراحهم!

يتذكّرُ (جون كوسجروف) الحادث لأنّ بعض رفاقه بسلاح مهندسي الكهربائيات والآليات الملكيّ في ثلاث ورش عمل بـ(كيرات موتزكين) شمال حيفا، ذهبوا إلى حفل زفافٍ عربي. استقلوا شاحنة مع جنود من القوات المحمولة جوًا، الذين كانوا يسبحون. وكالعادة، كانوا جميعًا يحملون أسلحة. وبسبب انفجاراتٍ ومعمعةِ معركة قريبة أقاموا فورًا حاجزًا على الطريق الرئيس. ركضَ الإرهابيون الهاربون تجاه حاجز الطريق وقُتل ثمانية واعتقل خمسة. وشُنق ثلاثة من المعتقلين في التاسع والعشرين من تموز؛ وهو ما أدى فورًا إلى رد فعلٍ من الإرهابيين.

وفي الثامن من تموز (يوليو)، لمّا نُطِقَ الحكمُ عليهم بالإعدام، أُطلقتْ خُطّةُ انتقام.

ففي السّاعة الواحدة من صباح الثاني عشر من تمّوز اختُطف الرّقيبان (ميرفين بايس) و(كليفورد) من مقهًى قربَ (نتانيا) وهما برفقة كاتب يهودي. كان الرجلان في فيلق المخابرات، وكان (مارتن) جنديًّا في سلاح مهندسي الآليات والإلكترونيات الملكي حتى أيلول (سبتمبر) 1946م. وفي الأول من آب، بوساطة عنوان في الـ(ديلي إكسبريس) بلغَ رعْبُ إرهاب اليهود إلى كلّ مائدة إفطار للقراء، وقد تضمّن العنوان: «بريطانيون مشنوقون: الصورة التي ستصدم العالم»، وموضوعُه تحتَ صورة بحجْم ستة أعمدة تُظهر جثتين معلّقتين على شجرة الكينا. وقد نَقلَت القصةَ المروعةَ الصحفُ الوطنية جميعها نقلاً وفقَ أسلوب تحريرهم وسياستهم. وصورة (ديلي إكسبرس) الصورةُ المحزنة الوحيدة لعائلتي الرجلين المقتولين.

وكانت الصحيفة في العام (1947م) على الأرجح الطريقةَ الوحيدة لإيصال أخبار الوفيات الضحايا إلى أهاليهم.

نَقلتْ صحيفةُ (التايمز) القصّةَ وردودَ الأفعال عليها بمزيد تفصيل: لم يُشنق الرقباء كما في إعدام القضاء البريطاني، فقد خُنقوا وعُلّقت أجسادهم في الأشجار، ولمّا قُطعت إحدى الجثث سَقط جزء منها على الأرض فاصطدم بلغم فانفجر فتمزقتْ أشلاءً، وأُلقيت جثة أخرى على بُعد عشرين ياردةً.

وفي ذلك الوقت، أَخبرَت الحكومةُ البريطانيّةُ السّيّدةَ (ميرسون) -التي عُرفتْ فيما بعدُ باسم (غولدا مائيير)- ممثلةَ رئاسة الوكالة اليهودية القوية كلها، بما مؤداه أنه إذا لم تتعاون منظمات اليهود فالجميع سيعانون على الأرجح.

وأُعْلِنَ رسميًّا منْحُ السّلطات حقَّ هدْم المباني في تموز (يوليو).

عُثر على جثث الرّقباء الذين كانوا يرتدون الملابس التي اختُطفوا فيها، وعُلّقت إخطارات من الإرجون تفيد بأن الرقباء محتجزون تحت الأرض منذ الثاني عشر من تموز، وحوكموا وأدينوا بتهمة «أنشطة إجرام مناهضة للعبرية»، وهي الدخول غير القانوني إلى الوطن العبري، وعضوية منظمات إرهاب مجرمة

(الجيش البريطاني)، وحيازة أسلحة نارية غير قانونية. واختُتمت المذكرة بالقول: إن هذا العمل لم يكن انتقامًا لإعدام اليهود الثلاثة.

ولمّا أَعلنَ السّيّدُ (جريش جونز) -وكان حينئذ وزيرَ دولة لشؤون المستعمرات- تلكَ الإساءةَ في مجلس العموم؛ ووجه بصيحات تقول: «يا للعيب»، وأَكمل حديثه بالقول: «حكومة جلالة الملكة أيضًا تحيّي قوات الخدمات في فلسطين لشجاعتها وتحملها الكبير رغم المخاطرة والمسؤوليات الشاقة» فصفقوا تصفيقًا. وقد تلقى تشجيعًا عاليًا لما قال: «وهذا يوجب على كل الذين يُعدّون منهم إدانة الإرهاب. جميعنا نتمنى أنْ يحرِّك هذا الفعلُ الأخير مجتمعَ اليهود لخلع جذور الشر فيهم».

عَلَّقَ مؤيّدو الصّهيونيّة في الحكومة تعليقات مهمّة، وطالبَ كثير منهم ب«العدالة في فلسطين»، وهي كنايةٌ عن تفضيلهم الصهيونيةَ على السكان الأصليين غير اليهود. وقد وَصف السيد (إيديلمان) -وهو عضوٌ عن (كوفنتري)- هذا القتلَ بالأعمال الرهيبة، وطالبَ بخطوات متشددة لإخضاع الفاعلين وملهميهم إلى العدالة.

وقال السّيّدُ (أس سيلفرمان) والنّائب (نيلسون وكولين) من حزب العمل: «مَن يحاول إثارة التعاطف العام مع ما أعدّه أنا عدالةً يجب أن يكون مُلطَّخًا بالدماء».

حتّى (بارنيت جانير) النائب العمّاليّ اليهوديّ عن غرب (ليستر)، وهو على الأرجح من أكثر المؤيدين الصاخبين لإقامة المستعمرات بلا قيود لليهود الأوروبيين في فلسطين، قال: «اسمحوا لي، بصفتي شخصًا كان دائمًا من مؤيدي عدالة المسألة (الصهيونية) في فلسطين، أن أعبّر عن رعبي العميق وأسفي وعطفي على الأقارب، وأن أقول بأنه لا خلاف في أن المجتمع اليهودي والوكالة الصهيونية والاتحاد الصهيوني يعدّون هذا العملَ غادرًا ورهيبًا».

وعلى الرغم من عدد القتلى اثنان، يعدُّ تأثيرُه -مقارنةً بمقتل واحد وتسعين

شخصًا في فندق الملك داود- أكبرَ على القوات في فلسطين وعلى السكان كافةً في بريطانيا.

ولبعض القوّات من الشّباب والشّرطة، كانت جرائمُ القتل الفظيعة كثيرة. لقد ناضلوا ضدّ تشويه سمعة غير مبررة، وتعاملوا مع الخطر وعاشوا في توتر شديد، لكن ضبط النفس عندهم لم يَعُد كما كان، وبعضُهم غضبوا غضبًا شديدًا.

قُتلَ خمسةُ يهود، وحُطّمتْ نوافذُ متاجر اليهود، وانقلبت المركبات، كما اندلعتْ أعمالُ شغب معادية للسامية في بريطانيا، وقد رُميتْ محلات التجار اليهود بالطوب من نوافذهم، وفي (ديربي) عانى كنيسٌ معاناةً من هجومٍ عمْد.

أَعلن متحدّثٌ باسم الوكالة اليهودية والمجلس القوميّ اليهوديّ من إدارات المعلومات التابعة لهما في لندن، أنه ليس لديهما كلمات تعبّر عن اشمئزازهما من قتلِ مجرمينَ متغطرسين عديمي الضمير الرجليْن البريئين قتلاً وحشيًّا، ليهَبوا أنفسهم سلطةَ البت في أمور الحياة والموت.*1

وواصلتِ الرّسالةُ دعوةَ الجالية اليهودية لمحاربة هذا العمل الإرهابي المروع.

ولا يَظنّ أيُّ فرد في القوّات المسلّحة أو في شرطة فلسطين أنْ تُجدي مشاعرُ السياسيين أو الوكالةُ اليهودية نفعًا في تقليل أنشطة الإرهاب.

ومن المؤكّد أنّها لمْ تؤثّر في إدراكنا حقيقةَ الأمر. لمْ يَكشف السّكّانُ اليهودُ عن القتلة. وذهبَ عضوُ هيئة الإرجون (أميهاي باجلين) المسؤولُ عن اختطاف وقتل الرقيبين إلى عمله بلا عوائق، وهو خبير المتفجرات الذي يقف وراء فظائع فندق الملك داود في العام السابق، ولكنْ لم يُندّد به أحد! ورغمَ الإشعارات المعلقة على جثث الضحايا التي تفيد أنه ليس انتقامًا لشنق الإرهابيين الثلاثة في التاسع والعشرين من تموز (يوليو)؛ كَتب (بيغن) في كتابه: «إن الانتقام المروع الذي فرض علينا في (نتانيا) لم ينقذ عشرات الشباب اليهود حسبُ من المشنقة، بل قصم ظهرَ حكمِ بريطانيا!».

كان هذا بمثابة انعطاف في سبب الغضب، وتصريحًا نادرًا لا لبسَ فيه، كتبه في قصّته من جانب واحد. وكان ذلك صحيحًا بعض الشيء. والحقيقة أن أزمات المال هي السبب الأهم للتخلي عن الانتداب لا الأعمال الوحشية. وفي بريطانيا، كان الاقتصاد يزداد صعوبةً، والحاجة ماسة إلى قرض آخر من أمريكا، وبريطانيا تجهد جهدًا لتسدد أمريكا قرضَ حرب. كما أَعلنت الصحفُ ذاتُها التي أَعلنتْ جرائم القتل عن مزيد من التخفيضات لحصص الغذاء، فخُفضتْ حصة الزبدة إلى ثلاث أونصات للفرد، وحصة الخبز بنسبة خمس وعشرين بالمئة، والبنزين بنسبة الثلث. وبنقص البنزين لا يمكن توزيع الخضراوات وغيرها من المنتجات في الدولة الغربية إلى أجزاء أخرى من البلاد توزيعَ وفرة. وكان الخبرَ السارَّ الوحيدَ إعلانٌ بالصفحة الأولى من صحيفة (ديلي إكسبرس)، أنّ شركة (هينز) الخاصة التي تنتج حبوبًا مخبوزةً، أُتيحت الآن مرةً أخرى.

دُفنَ الرّقيبان (كليفورد مارتن) و(ميرفين بايس) في مقبرة الرّملة العسكريّة بينَ يافا والقدس، وعلى الأرجح في اليوم التالي لاكتشاف الجثث. وذهبَ الرقيبُ (ديريك كينت) صديقُ (ميرفين بايس) وآخرُ مَن رآه حيًّا إلى إسرائيل لرؤية مقابر الرملة (التي تكتب الآن: الرملا / Ramleh,Ramla).

وفي اليوم الذي انتشرت فيه الأخبار، يوم الجمعة الذي يسبق عطلة البنوك في آب، كنتُ في (جنيفا) بمصر لإجراء مقابلَة واختبارات لمنصب مدرّب فنيّ في مركز إعادة تأهيل فيلق تعليم الجيش. وكان هناك استراحةٌ مدتها ثلاثة أيام أثناء الاختيار، بسبب عطلة نهاية الأسبوع في البنك، ولم تصل إليّ أخبار جرائم القتل حتى عدتُ إلى المستودع في فلسطين، وكانت العطلة حارةً، وهي حالة استثنائية في فلسطين ومصر، وأُغلق المستودع للعطلة، وأعيد فتحه في الرابع من آب، حيث عُمل على تخفيف غضب الرجال قبل الْتقائهم بالعمال المدنيين، وعادت حياة المستودع إلى طبيعتها تقريبًا. لم نتحدث إلى أي مدني عن مشاعرنا تجاه جرائم القتل، لكننا تحدثنا عنها فيما بيننا. وبحلول ذلك الوقت، في منتصف

هذا العام الدموي، لم يزعجنا شيء، ولكنهم بَدّدوا تعاطفنا مع المهاجرين اليهود في فلسطين، فلم نعد متعاطفين معهم كما كنا. وكنتُ أنا والجندية (ماسون) التي عملتْ بجانبي في تسجيل الأوراق المالية، نناقش الوضع العامّ ونشير إلى «اليهود الدمويين» وهو ما يعبر عن توقف تعاطفنا معهم. سَمِعني كاتبٌ يهودي يعاني من زيادة الوزن -وهو قريب من عمري- فاقترب مني وقال: إنني ضد الساميّة.

وبالنسبة للجيش وشرطة فلسطين، كانتْ حادثةُ (مارتن وبايس) من الفظائع، وفي غضون يوم أو يومين بعد الصدمة وردود الأفعال استقرّوا ليبدأوا بالقيام بواجباتهم. وكانت أيديهم ما تزال مقيدة ولا يستطيعون التصرف كما يرغبون، ورغبتُهم بمعاقبة الجناة والمجتمعات التي تأويهم كانت أمرًا متفهَّمًا.

في المملكة المتّحدة، لم يُهَدَّأ السّكّان بسهولة، وَوَجَدَ أحدُ المحرِّرينَ نفسَه في المحكمة متَّهَمًا بالتّشهير والفتْنة.

إنه (جيمس)، مالك صحيفة (فيزيتور موريكامبل وهيشام فيزيتور) ومحرّرها، وهي صحيفةٌ أسبوعية مستقلة يوزّع منها سبعة عشر ألفًا وستمئة نسخة.

سُلِّمتْ طبعة هذا الأسبوع في اليوم السّابق لنشْرِ (ديلي إكسبريس) صورةَ مقتل الرّقيبيْن وقصتَه. ورغم ذلك، بعد أسبوع، في السادس من آب، نُشر مقال مطوَّل وغاضب واستفزازي بلا داعٍ في صحيفة (الزائرون)، في عمود رأي تحت عنوان «افرحوا كثيرًا».

«في صباح الإعلان عن بيان آخَرَ للآلام والعقوبات والصّعوبات والنّقص، لا يوجد كثير يمكن أن نفرح به كثيرًا ما عدا الحقيقة السارة التي تفيد أن حفنةً من اليهود فقط، تزعج سكان منطقتنا!».

ويمكن عدُّ الجملة السابقة ثورةً ضدّ السّاميّة، وقد قصدَتْ أن تكون هكذا، ولن نعتذر ولن نتهرب من أي مسؤولية ولا من تداعياتها.

لقد حان الوقتُ للتّحدّث بوضوح. عبّرتْ صحيفةُ (ذا فيزيتور) عن أملها في ألّا يسكن في منطقَتَيْ (موركامب) و(هيشام) أحدٌ من اليهود.

وعلى الرّغم من أنّه لمْ يُقتلْ أحد من جنود (موركامب وهيشام) في فلسطين، يقول المقال: «هناك آباء هذه الأيامَ المسماة بـ(أيام السلام)، في قلق، وأخبروا عن وفاة (ألبرت دين) البالغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا من (إدجواي رود). و(مارتون) أَطلق عليه النار من الخلف اليهودُ في فترة استجمامه».

وَصَفَ (كونت) اعتراضات اليهود البريطانيّين المروعةَ في الصحافة الوطنيّة بالقول: «ما هي إلا دعاية لإنقاذ ماء الوجه». وعزز غضبَه بأن اليهود البريطانيين ثَبت أنهم أسوأ المجرمين في السوق السوداء، وينبغي عليهم «تفكيك ثروتهم غير المشروعة» لثني يهود الولايات المتحدة عن دفع الدولارات لتسهيل دخول حثالة اليهود الأوروبيين فلسطين، وسوف يدفع بعضُهم للمنظمات الإرهابية بمزيد من الإرهابيين. وادعى أيضًا أن «النواب اليهود أكثر عددًا من أي وقت مضى في التاريخ الإنجليزي».

كان ينبغي أن يكون هذا هو المقال الأخير عن الحادث المؤلم لو لم تهجم (رينولدز نيوز) التي تعاون صحيفة (الصندي) هجومًا قويًّا على المقال في التاسع من آب.

إذن، ما بَدَأ قصّةً محلّيّةً في صحيفة أسبوعيّة صغيرة صار أخبارًا وطنيّة، وتساءلتْ صحيفةُ (ديلي هيرالد) يوم الاثنين عما إذا كان مستعدًّا للدفاع عن مقاله في المحكمة.

في الثالث عشر من آب سأل (توم دريبرج) مِن مختبر (مالدون) النّائبَ العامَّ السيد (هارتلي شو كروس) هل نُبِّه إلى المقال الذي زُعم أنه «كان معاديًا للسامية».

وقال المدّعي العامّ أنّه قرّر إحالته إلى مدير النيابات العامّة.

ولكنْ، في اليوم نفسه نَشر مقالَ تحريض آخر محرِّر صحيفة (فيزيتور) الذي لم يُبدِ أيَّ ندم على ما كتب، ويحتوي مقاله العبارة التالية:

«من أجل تثبيت السّبب في مقالنا الأسبوع الماضي، لا يمكننا أن نفعل أفضلَ من تكرار هذه الجملة!». لا يكفي اليهودَ البريطانيين إقبالُهم على الطباعة والنشر برفض رعب إخوانهم في فلسطين ووضعُهم أكاليل الزهور على التوابيت؛ عليهم أن يتخذوا خطوات أكثرَ فاعليةً لإيقاف الأموال التي بها ينشط الإرهابُ وبإيقافها يتوقف.

ولذلك حَدَثَ ما حدث، وظهر (جيمس كاونت) أمامَ السّيّد (جاستيس بيكل) في محكمة جنايات (ليفربول) في السابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) 1947م وقال «لستُ مذنبًا».

عُقدَت المحاكمةُ من السّاعة العاشرة والنصف صباحًا إلى الرابعة والنصف مساءً، وقُرر بالإجماع أن المتهم «غير مذنب» قرارًا قاطعًا، ووصلتْ هيئة المحلفين باثنتي عشرة دقيقةً فقط إلى الحكم.

ربما فوجئ بعض السياسيين والصحفيين بالنتيجة، ولا سيما صحيفة (رينولدز نيوز) التي يعد ردّها على المقال الأشدَّ عنفًا.

ولتأكيد غضبهم عَنونوا المقالَ عنوانًا يجعله مقالاً لاستمالة اليهود، وضمّنوه صورةً لـ(جوليوس ستريشر) النازيِّ الشهير باضطهاده اليهود، وقد أُعدم بصفته مجرمَ حرب.

ولا بدَّ أنّها خَيّبتْ أملَ السّيّد (دبليو غالاغر) عضو البرلمان الشيوعي عن (فايف ويست)، الذي قال: إنّ معاداة السامية في جوهرها تحريضٌ على القتل، ويجب عدها جريمةً.

ولقد كانت لحظةً تاريخية مفصلية، وكانت الحكمة تقضي بأن يلتزم الصمتَ أولئك الذين اختلفوا مع السيد (كونت). هَيّج القتلُ المروعُ للرقيبين (مارتين) و(بايس) غضبَ بريطانيا المتعبة، بسبب الحرب على فلسطين. وقد أسعرتْ صحيفة (رينولدز نيوز ودريبيرج) اللهبَ بتحويل حادثة محلية إلى قضية وطنية.

وطوالَ فترة استجوابه من السيدين (دينيس جيرارد، كي. سي) و(جلين بلاكليدج) وقف (كونت) بحزم خلف كلماته المكتوبة بإجابات صريحة، وقال أنه كان يعبّر عن آرائه التي انتهى إليها من الاتصال بالناس. كان معظم البريطانيين قلقين بشأن مئة ألف جندي معظمُهم من المجندين الشباب في فلسطين، وقد قلَّ التعاطف كثيرًا مع محنة اليهود النازحين بسبب أعمال الإرهابيين اليهود والدعم المعنوي والمالي الذي يتلقونه من اليهود البريطانيين.

أشار السّيّدُ (جي. أو. سلايد) للدّفاع في الاستجواب الدقيق إلى أن عدد اليهود داخل منطقة تداول صحيفة الزائر بين العشرين والثلاثين. سأل: «هل كان لديك أي فكرة عن أن عشرين أو ثلاثين سوف يهاجمون الـ(17.700) المتبقية، أم أن الـ(17.700) ستهاجم الثلاثين؟».

أجاب السّيّد (كونت): «بالتأكيد، لا». وهذا يضع القضية في سياقها.

استغرقتْ دعوةُ السّيّد (سلايد) للدّفاع اثنتين وستين دقيقةً، واعتمد على حريّة الصّحافة.

يبدو أنّ دعْم الرّئيس (هاري إس ترومان) لليهود لا شكَّ فيه، فقد اعترف بالحكومة المؤقتة في غضون إحدى عشرة دقيقة من إعلان دولة إسرائيل غير القانوني قبل ثماني ساعات من انتهاء الانتداب. وفي وقت مبكر من رئاسته أثبت أنه قليل الكياسة الدبلوماسية بكشفه تفاصيل المناقشات السرية عن حصة المهاجرين التي يجب السماح لها بدخول فلسطين.

أَثبتَتْ مقالةُ (كونت) ومحاكمتُه أنه ما تزال في بريطانيا شكوك ثقافية من اليهود. وفي العام 2003م ظَهرت أدلة على وجود الشك نفسه في أمريكا حتى المستوى الرئاسي. ما مدى صدق اهتمام (ترومان) باليهود؟ كشفتْ مقالات في مذكرات سرية كَتبها في تموز (يوليو) 1947م عن غضبه واحباطه حين وصل الإرهاب اليهودي إلى أكثر مستوياته ساديةً، وكان آلاف من النازحين (DP) يبحثون عن مستقر! أولئك الذين لسبب ما لا يستطيعون التحدث بصراحة في كثير من الأحيان، يبوحون بأسرارهم بكتابتها في مذكراتهم وكأنهم يتحدثون إلى صديق. لقد أَعرب (ترومان) في أحاديثه الخاصة عن عدم ثقته باليهود إعرابًا لا لبس فيه، يقول: «اليهود أنانيون جدًّا جدًّا، لا يهتمون بعدد قتلى الإستونيين أو اللاتفيين أو الفنلنديين أو البولنديين أو اليوغوسلافيين أو اليونانيين، أو سوء معاملتهم، ما عوملوا (اليهود) معاملةً خاصة». وتابع: «ولكنْ حينما تكون لديهم سلطة مادية، ماليًا أو سياسيًّا، فلا (هتلرَ) ولا (ستالينَ) يستطيع أن يتعامل معهم بقسوة أو بسوء».

المراجع:

1. التايمز، 1 آب 1947م.

2. الثورة، مناحيم بيغن، (WH) ألين، 1951م.

12. النّهاية تلوح في الأفق

بحلول تشرين الأول، 1947م، صارت عصابات الإرهاب، ومنها (الهاغاناه) المدربة إنجليزيًّا، تنشط كلَّ ليلة، وفي أيلول 1947م وحدَه قُتل اثنا عشر شرطيًّا: أربعةٌ في غارة على بنك (باركلي)، وثلاثة في مقر شرطة حيفا. كانت القوات البريطانية مقيدة، تبقى في المعسكر معظم الساعات التي لا عملَ فيها. ومهما يكنْ عملُ الجيش في النهار، يُدعَوا للقيام بواجبات الحراسة ليلةً بعد ليلة. وتزايد الضغط على الحكومة لمغادرة فلسطين في الوطن كله، حتى اللواء (برنارد مونتغمري)، دعا إلى الانسحاب، وأرسل إلى رئيس الوزراء: «هناك مئة ألف جندي يتمركزون في فلسطين وأيديهم مقيدة، يُقتَل اثنان منهم كلَّ يوم!». ووفق الصحافة العالمية، كانت معنويات القوات البريطانية في فلسطين منخفضة. وفي الحقيقة، ثمة خلط بين الغضب وانخفاض الروح المعنوية، فيُفهم الغضبُ انخفاضًا في الروح المعنوية. كانوا يستهينون بشجاعة وتصميم الجنود الشباب. وسبب الغضب مفهوم: لقد قُيدوا بسياسة لا تسمح بردّ أقوى، تجلى ذلك في أرقام الضحايا التي أظهرت ثلاثة أضعاف عدد أفراد القوات البريطانية المقتولين مقارنةً بعدد قتلى الإرهابيين اليهود. ورغم ضبط النفس أَطلق اليهود على القوات البريطانية اسمَ (النازيين)، وهي الصرخة التي ترددتْ في صحافة أمريكا. وكان الجيش البريطاني في فلسطين المدجَّج بالمجندين الشباب منضبطًا انضباطًا جيدًا، وتشبيهُهم بالنازيين يقلل من المعنى السلبي لهذه الكلمة التي يجب أن تُحصر بأعضاء الحزب الوطني الاشتراكي الألماني. وكان هؤلاء المجندون أيضًا ضحايا العدوان النازي.

كانوا أطفالاً خلال الحرب في أوروبا؛ أَلِفوا الحصار ونقْص الموارد والمشقّة؛ كانوا فتيةً في طريق الرجولة قبل أن يستدعيهم الجيش. بعد معاينتهم الظروفَ المؤلمة التي يعيشها اليهود الأوروبيون وغيرهم من نزلاء معسكرات الاعتقال النازية، ذهبوا إلى فلسطين وهم متعاطفون مع اليهود. لقد قلَّ هذا التعاطف كليًّا

بسبب الظلم الذي كان لصالح اليهود. لقد نَزعتْ فظائعُ الإرهاب التعاطف نحو اليهود، وزادتْ صداقتهم للعرب.

بوصفنا مُجَنَّدين، معظمُنا ينتمي إلى الطّبقة العاملة من بلد فقير أفقرتْه ستّ سنوات من الحرب، وقد لمسنا في صداقتنا للمجتمع العربي تشابهًا كبيرًا للصداقات في الجيش البريطاني. وقد تَصادق السائقون والميكانيكيون وعمال التخزين، والمدنيون العرب الذين عملوا معهم، وترابطوا، وكان بدهيًّا أن تتشابه هذه الصداقات بنظائرها بين عسكريّي ومدنيّي مستودعات بريطانيا.

كان الفلسطينيون في أريحية وثقة ظاهرة غير مستغرَبة من شعب جذوره راسخة في وطنه كما كان آباؤه وأجداده منذ قرون. لم يكونوا قادرين في العام 1947م على تصور المصير الذي أوشك أن يصيبهم!

حظي العمالُ المدنيّونَ اليهودُ في المستودعات والمعسكرات العسكريّة بأفضل الوظائف، فكانوا يتلقَّوْن أجورًا أعلى، ولكنْ حتى حينما تتساوى الوظائف يتلقون أعلى الأجور!

كان لديهم (الهستدروت)، وهو الاتحاد التّجاريّ اليهوديّ الذي طالب بأجور أعلى لليهود وحصل عليها. هؤلاء مهاجرون أوروبيون لديهم أهداف قومية مع مزيج غريب من ميول اشتراكية ورأسمالية، على غرار الفاشيين الأوروبيين في الثلاثينيات. كانوا متوترين مع تصميم واضح على النجاح. ولديهم منظمات، بعضها سرّيّ قادر على تنظيم جيش وإنشاء أمة، كما كان لديهم إدارةٌ منتظَرة.

لمْ تفعلْ بريطانيا طوالَ سنواتها الثّلاثين من الاحتلال شيئًا لإعداد السّكّان المسلمين والمسيحيين الأصليين للحكم الذاتي. وقد نفي المفتي الحاج أمين الحسيني الرجل القادر على تنظيم السكان للحكم الذاتي في ثلاثينيات القرن الماضي لمقاومته هجرة اليهود.

عاشتْ فلسطينُ أكثرَ من أربعمئة عام تحتَ الحكم التركيّ، وهو حكمٌ لا يمكن وصفه بالقمعي. الأتراك مسلمون، وكانوا يُحترمون بفضل وجودهم في الأرض المقدسة، وقد سمحوا بقدر كبير من الاستقلال. لكن على مدى الثلاثين عامًا التالية حَكمتْ بريطانيا البلاد وسَمحتْ بدخول المهاجرين الأوروبيين اليهود، فانتهت بذلك قرون من السلام.

شهدَ شهْرَا تشرين الأوّل وتشرين الثّاني من العام 1947م نقاشًا مكثفًا، ليس في بريطانيا فقط، بل في لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين .(UNSCOP) اقترحتْ بريطانيا تقسيم البلاد حلًّا ، ولم يكن جديدًا ، فقد اقتُرح بدايةَ الانتداب. ولمْ يُرِدْ هذا الحلَّ اليهود ولا العرب. وتحدّث السياسيون البريطانيون عن نقل العرب إلى الدول المجاورة. وجرَتْ محادثات سرية بين وفد بريطاني والمفتي في أيلول، ولما أثير موضوع التقسيم ردَّ المفتي ردًّا بسيطًا لا يسع الوفدَ البريطانيَّ إنكارُ منطقيته: «ضع نفسك موضع العرب. تذكّروا أنفسَكم عام 1940م، هل فكرتَ يومًا في عرض جزء من بريطانيا على الألمان بشرط أن يتركوك في الجزء الآخر المتبقي؟! بالطبع لا، ولن تفعل ذلك أبدًا، سوف تفضل الموتَ دفاعًا عنها، وأنت تعلم أنهم لن يوفوا بعهودهم. اليهود لا يريدون جزءًا من فلسطين، بل يريدونها كلها وأكثر».

كان (آرثر غرينوود) ممن رفعوا توقّعاتهم في العام 1944م، حينما قال بصفته زعيمَ أعضاء حزب العمال في البرلمان، ويهوديًّا، في تجمّع حزب العمال في يوم عيد العمال: «نيتنا إقامة وطن قومي يهودي، والسماح لليهود بالذهاب إلى هناك حتى يصبحوا أغلبية»، وتابع: يجب نقل العرب إلى دول الجوار.*2

في الرابع من كانون الثاني 1947م حُددت مواعيد انسحاب بريطانيا، وفي الرابع عشر من أيار 1948م انتهى الانتداب والانسحاب، وتمَّ في الأول من آب 1948م. تلقّت القواتُ هذا القرار بمشاعر مختلطة، وسعد معظمهم بالعودة إلى

الوطن، لكنهم فوجئوا بمغادرتهم بدون إكمال مهمتهم! وأحبط بعضهم من فرط ضبط النفس، وغضبوا بعدم إخضاع الإرهابيين الجبناء للعدالة، وحزنوا على رفاقهم الذين قَضَوا من أجل لا شيء!!!

غضبَ بعضُهم لأنّهم تركوا القتال مع الألوية العربيّة غير النّظاميّة، وقد رحّبوا بخبراتهم. تألفتْ هذه الألوية من شباب متحمسين؛ رجال بسطاء لم يخضعوا لتدريب عسكري وهم غير منظّمين. نمذجَ زعماؤهم أنفسَهم مثل (لورنس العرب)، وكانوا مغرمين للغاية بإظهار براعتهم على ظهر الحصان. كان واضحًا للجندي البريطاني استهانة العرب باليهود؛ لم يُقدّروا قوتَهم وتنظيمهم ومكرهم، أما العرب الذين فروا ولم ينضموا إلى الفرق العربية غير النظامية فلم يكونوا على وهم؛ فقد كانوا على علم بمستوى تنظيم اليهود ومكرهم الكبير، وعلى هذا النحو كان تقييمهم صحيحًا.

لمْ تكن مغادرة فلسطين بالنسبة لقوّات الخطوط الأماميّة المحمولة جوًّا والمشاة إلا طيَّ الخيام وتعبئة المعدات العامة ونقلها كاملةً إلى مستودع عتاد الجيش الملكي.

أعادت بعضُ الفرق المتّجهة إلى مصرَ الانتشار فيها وفي مناطق أخرى من الشّرق الأوسط جنوبًا بقوافل عبر صحراء سيناء. كان الانسحاب من فلسطين مهمةً صعبة وطويلة للخدمات الخلفية، مثل مستودع عتاد الجيش أو مهندسي الآليات والإلكترونيات الملكي. وكان لا بدَّ من سحب آلاف الأطنان من فائض الجيش والحرب، وتفكيك معدات المصانع وآلاتها. وما لا يمكن استعماله في القتال يباع محليًّا مع الخيام والأواني والمقالي وسيارات الموظفين. ألقي فائض الأسلحة والذخيرة في البحر. وكان إعلان الانسحاب متوقعًا فتمكنتْ أقسامٌ معينة من الجيش من الاستعداد.

كانت المستشفياتُ العسكريّةُ في فلسطينَ شاهدًا على توقُّع انسحاب القوّات البريطانيّة وجلائها، وكان مستشفى بئر يعقوب هو الأكبر، وأُجريت خطط الإخلاء بسرعة ليتهيأ المرضى والجرحى إلى الحركة.

كانت الهجماتُ على الجيش تتزايد. وممّا أزّم الأمرَ إقبال العرب المدنيين الجرحى من تبادل إطلاق النار مع جنود الفيلق العربي الذين كانوا يعملون حراسًا إلى المستشفيات.

قبلَ عيد الميلاد نُقلْتُ من المستشفى إلى معسكر نقاهة في (نتانيا).

وبعدَ ثلاثة أشهر بجناح الجراحة في بئر يعقوب، رُحب بالتّغيير.

ورأسَ السنة الجديدة، احتُفل بالمعسكر تلك الليلة وتفرّغ الفنانون والمرضى، وقُبيْلَ منتصف الليل جاء رقيب إلى الكوخ يبحث عن أليق الرجال الذين يمكن إيقاظهم. و(الأليق) تعني القدرة على الوقوف بلا عكازات أو أطراف مجبَّسة.

ولأنني أَعْرُج فقط، اُخْتُرْتُ واستُدعيتُ إلى غرفة الحراسة. تبيّنَ أنّه نُصب كمين لحرّاسنا العرب الزائدين حينما كانوا في لحظة تبديل الوظائف، وسُرقتْ أسلحتهم الثلاثة عشر: سبعة رشاشات (ستين) وست بنادق. وفي حالة مريبة للغاية -بأقل تقدير- احتُجز الحراس في الزنازين بدون مزيد من اللغط.

قصّتُهم أنّ عصابةً كبيرةً من العرب المسلّحين قفزتْ من العشب الطّويل، من وراء الصّخور، فأخذتْ أسلحتهم، ثم انطلقوا من فجوة في سياج محيطِ السلك. كان من الممكن أن تصحَّ هذه القصة رغم عدم تصديقها من قِبَل الموظفين أو المرضى.

كان الحراسُ هناك لمنْع السرقة فقط. وكان من المفترض أنّه لنْ يقومَ أحد بعَمَل إرهابي ضد مؤسسة يرعاها الصليب الأحمر، حتى عصابة (شتيرن). ورغم فوز اليهود في سباق الحصول على الأسلحة بأي طريقة اشتُريتْ الأسلحة بأنواعها كلها وسُرقت من اليهود والعرب.

كما كان مشترو العقارات المُحْتَمَلُون يراقبون المعسكر قبل بضعة أيام من ليلة المصير، ولأنهم يهود كانوا موضع شك؛ ورغم ذلك شاع الظن بأن الأسلحة سُلّمت إلى شركاء من الخارج.

كانتْ وظيفةُ الضّابط النّظاميّ هي العثورُ على اثني عشر رجلاً من المرضى لتولّي دورية حول المكان.

والوسيلة الوحيدةُ لتسليح كلّ رجلٍ هي أخذُ الأسلحة من الوظيفة السّابقة.

كنتُ أنا وشريكي في فترة الحراسة الثانية، وكان لدي رشّاش (ستين) ولدى زميلي بندقية. كانت ليلةَ رعب، وقمنا بواجبنا ونحن خائفون خوفًا شديدًا. وبناءً على ما تقدم، أرى أن قصة الكمين صحيحة.

كان محيطُ المكان الذي نحرسه، طويلاً، ومن المفروض أنْ نلتقيَ دوريًّا بالحرّاس في أيِّ نهاية منه. طُليتْ مبانٍ عديدة من المعسكر باللون الأبيض. وعلى بُعد بضع ياردات من السلك المحيطِ جانبِه الآخر مزرعةُ فواكه، وعلى الأرجح بستان برتقال. لم نتمكن من وضع أنفسنا في مكان خلفيتُه بيضاء، فالْتففْنا حولها لنكون في الجانب الآمن. وَصلْنا إلى نقطة الالتقاء وقررْنا أن نجلس على صخرة ننتظر وصول زملائنا الحراس؛ جلسْنا ظَهرًا بظهر، وتركت بندقيتي أسفلَ بينَ ركبتَيّ. وقعَ انفجارٌ صاخبٌ ومرتْ رصاصةٌ واحدةٌ نحو الأعلى على بُعد بوصة من وجهي. لم أتفحّص المسدسَ حينما تسلمتُه، وكان صمّامُ الأمان يعمل، وكنتُ محظوظًا لأنه لم يكن في حالة إطلاق.

وفي غضون دقائقَ أُطلقت نار، وهذه المرّة من جهة الحارسين المقرَّر أنْ نلتقي بهما. ركضنا في ذلك الاتجاه ووجدناهما يتدحرجان ضاحكَين، وكان من مهام دوريتهم الأكواخُ التي أُسكن فيها الفنانون، وعَلّقت الإناث من أفراد القوات أمتعتهن بسلك في الخارج. ولما سَمع الحارس الحامل رشاشَ (ستين) طلْقتِي العرضيةَ تَوتّر شديدًا وظَنّ السروال الذي يرفرف حركةً مشبوهة فأطلق النار. كانت تلك قصته. وقال شريكه لنا: «لقد فَعل ذلك -ببساطة- للضحك».

أفرجَ عن الحارسيْن في اليوم التّالي، فلا دليلَ على أيِّ ذنْب.

وقد عُرض دليل على مدى انتشار جيش بريطانيا في الشهر الأوّل من الإخلاء حينما طُلب من ثلاثة مرضى من مستودع النقاهة أن يَعملوا مرافقين بعد بضعة أيام فقط من استدعائهم لواجب الحراسة. ورغم الخطر الكبير هناك، كانت فرصةً لرؤية فلسطين والهروب من ملل المستشفى.

وبينما كنا نقود نظرَ الاثنين الآخرين من فتحة القماش لرؤية إلى أين نحن ذاهبون، ولمراقبة مسبّبي الشغب، وفورَ خروجنا من (نتانيا) -واجهَنا عربيٌّ رثّ الثياب في منتصف الطريق يلوّح ببندقية تركية قديمة للغاية ويدعونا إلى التوقف.

يتألّفُ (حاجز الطريق) الخاصُّ بالعربي من صخرة واحدة أو اثنتين من الصخور الصغيرة التي يمكن المرور بها بسهولة.

قال الضّابط: «تخلّص من الوغد أيّها الرّقيب». ومن حسْن الحظّ أنْ تجاهَل الرّقيب الأمرَ لأنه على ما يبدو -من حيث لا تدري- انضم خمسةٌ أو ستة آخرونَ مُبَنْدَقينَ بأحدث بنادق الـ(لي إنفيلد إم كيه في) إلى العرب. طَلب العربي أن يرى تذكرة عملنا. وقال الضابط الغاضب: «أَطلق النارَ على الوغد الصفيق أيها الرقيب».

لقد مرَّ ثمانيةَ عشرَ شهرًا منذ أنْ أطلقت بندقيّة (برين)، وكان ذلك لفترة قصيرة فقط. كانت يداي ترتجفان مع صعوبة في تركيب المخزن. وفي هذه الأثناء أَظهر الرقيبُ الذي كان أكثرَ حكمةً وأكبرَ سنًّا منا للعرب تذكرة العمل، رغم أنه كان يُشَكّ في تمكنه من قراءتها. كان من الممكن أن يَستغرق الأمر بضع ثوان فقط قبل تركيب المخزن، وما إنْ وُضع في مكانه حتى أَطلّ وجه من الباب الخلفي. أَخفضَ العربيّ الجَسورُ نفسَه بذكاء حينما رأى أنفه على بعد بوصات قليلة من نهاية ماسورة البندقية. وسمح لنا بالانتقال إلى طولكرم، وهي معقلٌ عربي.

كانتْ وجهتُنا إلى مؤسّسة عسكريّة على الجانب الآخر من المدينة، لكنّها كانتْ يومَ التسوق في طولكرم. وَجدْنا أنفسَنا عالقينَ في سوق تقليدي مزدحم للغاية،

وقد أُغلق الطريق. كنا محاصرين بالماعز والحمير، والبائعين والمشترين، وقفز صبيانٌ عرب صفيقون على دَوَّاسات الأبواب، ومرةً أخرى كانوا لصوصًا ينظرون من وراء الباب الخلفي، وكما حدث من قبل؛ اختفَوْا عندما واجهوا بندقية برين. لقد شققْنا طريقنا عبر الصخب ثم وصلْنا إلى وجهتنا. كانت مهجورةً ما خلا رقيبًا عربيًّا كبيرًا يجلس في غرفة الحراسة بقدميه العاريتين موضوعتين على المكتب. كان يومًا جميلاً من شهر كانون الثاني لأن غرفة الحراسة فَقدت سقفَها الحديدي المموّج.

قَفَزَ الرّقيبُ على قدميه وحَيًّا على عجل ضابطَنا ثمّ نزل ليلبس حذاءه. وعند هذه النقطة عرفْنا غرض مهمتنا، وهو دفع أجور العسكر الإضافيين الذين تُركوا ليكونوا مسؤولين عن الممتلكات العسكرية المهجورة. قبلَ الرقيب راتبه ووقّع على ورقة باللغة العربية، وألقى تحيةً مُضحكةً أخرى.

وإجابةً لطلب الضّابط ركضَ فوقَ السّهل إلى قرية طينية للعثور على بقيّة الحرّاس وعاد مع رجل واحد أخذَ راتبَه والرقيبُ يوقع للآخرين ويسحب رواتبهم. كان واضحًا أنهم يظنون البريطانيين قد رحلوا بلا عودة. ولما خرجْنا من الشاحنة وجدْنا حقائب أدواتنا مسروقة. لا بد أنها أُخذت خلالَ ازدحام طولكرم. وقد زرنا منشآت أخرى في طريقنا إلى نابلس، ومن ثَمّ نحو القدس.

توقّفت الشّاحنةُ واقترحَ العريفُ أنْ أقفَ وأراقبَ فوقها؛ أرادوا منّي أنْ أرى ما يقع أمامنا. كنا ننظر إلى القدس من الشرق، كنا ننظر عبر الوادي مجموعةَ مبان مسطّحة مفصول بعضُها بالأبراج والقباب، نظرةً بانورامية. كان الرقيب على دراية بالقدس وسمّى بعض المباني البارزة. ورغم بُعدها ميلاً فقط كانت قبة الصخرة البناءَ الأهم والأبرز. كان هذا هو المشهد الذي رأيتُه كثيرًا منذ ذلك الحين في الصور. وبينَنا وبين قبة الصخرة يقع وادي (كيدرون) وجدران الحرم الشريف المنحدرة والهضبة التي تقع يمينَها القبة الذهبية الرائعة. كان المسجدُ الأقصى الأصغرَ والأقلّ من ناحية قبته الفضية، يقع يسارَ الهضبة. ورغم

ذلك يحظى المسجد الأقصى بالأهمية الدينية العميقة عند المسلمين. كان برج كنيسة القبر المقدس يبرز من قلب عدد مهول من المباني.

وفي آخر المطاف عدّنا إلى (نتانيا) وتوقفنا بطريقنا في نادي (نوفيلد).

وهناك دُعينا إلى وجبة جيدة فأَكلْنا ثلاثتُنا بنَهَم والضّابطُ والشّاويشُ يتفحّصان أوراقَ العمل ويحسبان ما تبقى من النقود التي لم تدفع على طاولة بعيدة.

لم نتحدّثْ بشيء، ولكنّ نظراتنا المتبادلة تحدّثتْ فيما كنّا نفكّر فيه.

أيّام الانتداب الأخيرة كانتْ فرصةً لبعضهم من أجل السّرقة أو البيع أو...

ونحن عائدون إلى المعسكر تسابقْنا على طول الطّريق بسرعة شديدة فخَلعتْ سيّارتُنا بابَ سيارة أمريكية متوقفة في أثناء فتحه من قبل السّائق.

كنّا في بلدِ قطّاع الطّرق، فمن الغباءِ أنْ نتوقّف.

كان عيدُ الميلاد عام 1947م عيدَ الميلاد الوحيد في الأراضي المقدّسة، للجنود الشّباب.

ولآخرين، كان عيدَ الميلاد الثّاني. وللجميع كان عيدَ الميلاد الأخير في الأراضي المقدسة. وقد لاحتْ في الأفق نهاية الانتداب، وأيامُنا في فلسطين معدودة، وسنكون بالوطن في الشهور القادمة.

والذينَ استمتعوا بأعياد الميلاد عهدَ الجيش ينتظرون الحدث القادم على أنه الحدث الأهمّ المُشرق في السنة. وكان الضباط وكبار القادة ينتظرون الرّتب الأخرى لتناول الغداء يوم الميلاد. وكانت هذه السنةُ واعدةً بتهدئة أعصابنا، فسنعود إلى الوطن، وسواء رضيتَ بهذا أم أبيتَ فقد أعطينا الإرهابيين ما طلبوا.

في محطّة نقاهة (نتانيا) نقصٌ في الضّبّاط والضّبّاط المفوّضين، فكان على المرضى أنْ يصطفوا لغداء عيد الميلاد، ولكنْ يكفي عدد الضّبّاط الموجودين

لنفاذ الطّعام؛ لقد قاسُوا كمية الطعام التي يمكن أن نحتاجها بالكمية التي تُطبخ لهم في المطعم، وهو ما أنقص الطعام. وقد رجع كثير لم يأكلوا من ديك الحبش ولا لحم الخنزير المشوي عوضًا عنه. لم تكن وجبةً رائعة لكنها قريبة جدًّا من وجبة غداء الأحد في المنزل.

في كلٍّ معسكرٍ في فلسطين احتفالٌ بعيد الميلاد، ودَبّر بعضُ الأشخاص للذّهاب إلى بيت لحم.

كان من المتوقَّع أنْ يكون عيدُ الميلاد الأخير في فلسطين لضابط الصّف (أليكس) كمثله في مستودع عتاد الجيش (614) بحيفا. وقد قام هو وكبارُ الضباط بواجبات الحراسة كلها في يوم الميلاد ليهَبوا الرجالَ يومَ راحة. وفي أسابيعَ عديدة حضّرت الرتب الأخرى وخططت لحفلات يوم الميلاد. وفي يوم الإهداء في المعسكر (153) -وهو يوم عطلة للجنود- كان لهم حفل يتخلله الطعام، ويسمى (حماقات الطيرة)، وهو احتفالٌ حيّ يُظهر فيه ضباط الصف والضباط المفوضون مواهبَهم.

وبالجهة الأخرى من البلاد، في مستودع عتاد الجيش (615) في رفح، طَلب العريف (فريد بيج) مجموعةَ آلات موسيقية (أوركسترا) مع موسيقيين من مستودعه ومن مجموعة النقليات (612)، وفي مجموعته عاملان من العمال العرب.

وبالنسبة للعسكريّ (دانيال جاليجر) الذي كان ملحقًا بورشات سلاح مهندسي الآليات والإلكترونيات الملكي (309) مع أشخاص آخرين من مستودع عتاد الجيش: فلا بد أن يكون عيد ميلاد خاص مميز لأنه يوشك أن يعود إلى المملكة المتحدة في كانون الثاني بسبب التسريح من الخدمة. كانت الورشات مُهمة في حامية صرفند وكل وحدة خارجية لتحتفل بأجمل عيد ميلاد. ولم تقتصر قائمة احتفالاتهم بعيد الميلاد على ديك الحبش. لقد فرحوا كثيرًا وارتاحوا لأن التوتر قد خف؛ كانت كهدنة غير موقعة. وعلى كل، ظهرت الحقيقة

في منتصف الاحتفال مرة أخرى ظهورًا مذهلاً دراماتيكيًّا في يوم الميلاد. خالف الشابّ (داني) البالغ من العمر إحدى وعشرين سنةً وثلاثةُ رفقاء قواعدَ الخروج وذهبوا إلى مقهًى يهودي في ساحة صموئيل في تل أبيب، ولما غادروا أُطلقت عليهم النار. قُتل (داني) و(كرافتسمان دي أتش) البالغ من العمر عشرين عامًا، ومَن رافقوهم -وهم الجندي (سي) و(في آر بيرش)- أصيبوا إصابات بليغة، وقد عولجوا ابتداءً في مستشفى هداسا، ثم في المستشفى العسكري الإنجليزي. دُفن الرجلان في المقبرة العسكرية في الرملة يوم الإهداء. وهذا الحادث الذي لا يعد جحيمًا كما يحدث في فلسطين، لم ينل إلا ثلاثة أسطر في صحيفة (ميدل إيست ميل). والمهم للقوات المسلحة الإنجليزية أنه لم تكن هناك هدنةٌ وأن صراعهم العدوَّ الآن وصل إلى درجاته الدنيا، عدوًّا جبانًا يجرؤ على تسمية نفسه بـ(جنود)!

كانت عصاباتُ الإرهاب اليهوديّة نشطةً كما هي دائمًا، وكان السّكّان المدنيّون جميعهم يبحثون عن الأسلحة بأي وسيلة ممكنة ويتسولون ويسرقون، وإذا لزم الأمر يشترون.

فضلاً عن خطر تبادل إطلاق النار بين اليهود والعرب.

ويُظَنُّ عمومًا أنّ صراع اليهود والعرب، الذي عدَّه الإسرائيليون فيما بعدُ (حرب الاستقلال عام 1948م)، بدأ قبل انتهاء الانتداب البريطاني. وكان السلام بينهما هشًّا مع بعض القتلى، لأكثر من عشرين عامًا.

حتّى هذا السّلام الهشّ انتهى في كانون الأول 1947م قبل خمسة أشهر من نهاية الانتداب.

لقد قَتلَ الإرهابيونَ اليهودُ بين عامَيْ 1945 و1948م مئات البريطانيين، والآنَ استُخدمت أساليب الإرهاب ذاتها على السكان العرب في القدس.

لقد بدأوا حملتهم بإشعارات تحذير على منازل العرب، وهو تكتيكٌ جرّبوه على القوّات البريطانية في معسكراتهم.

واقترب الصّراعُ من مستودع عتاد الجيش (614) (AOD) والمعسكر (153) عندما هَجم الإرجون في الحادي عشر من كانون الأول فجأةً على قرية الطيرة؛ لقد فجّروا منزل المختار وقتلوا ثلاثة عشر قرويًا.

تفاقم الوضعُ في الثالث عشر من كانون الأول 1947م عندما ألقى (كوماندوس بالماخ) قنبلتَيْ يد على حشد من المتسوقين العرب عند بوابة دمشق- القدس؛ وهو ما أسفر عن مقتل ستة وإصابة أربعين.

وادّعت سرايا الصاعقة التابعة للهاجاناه (البلماخ) أنّه كان مكانًا لِلقاء المسلّحين العرب.

كانتْ تلك بدايةَ حملة عنف حميمة ضدّ السّكّان العرب المقيمين، وشملت مدنًا وقرًى أخرى في فلسطين، وهو ما أدى في آخر المطاف إلى إبادة أربعمئة وثمانية عشر مجتمعًا وتشريد ثمانمئة ألف لاجئ! وردًّا على ذلك قَطع العرب إمدادات المياه في القدس بتفجير خط الأنابيب الذي يجلب المياه من قرية رأس العين العربية، فهرع المهندسون الملكيون فورًا لإعادة ضخ المياه.

كان (كاتامان) حيًا من أحياء الطّبقة المتوسّطة، أغلبُ سكّانه من العرب المسيحيّين، وفي قلبه فندق (سيمريس) العربي المسيحي، وعشيةَ رأس السنة الجديدة فَجّرت الهاغاناه ثمانية منازل عربية مهجورة لإجبار مزيد من السكان على النزوح منه، وفي بواكير الخامس من كانون الثاني 1948م فَجّرت الهاغاناه بقنبلة يد بابَ الفندق.

أيقظ الانفجارُ الفندقَ ونازليه، ولكنْ لم يَسعْهم الوقت للخروج قبل انفجار حقيبتين من مادة (TNT) جعلتا الفندق أنقاضًا، وأسفر الانفجار عن مقتل اثنين وعشرين مسيحيًّا. وبعد يومين توجه أفراد من الإرجون يرتدي ثلاثة منهم زيّ الشرطة إلى بوابة يافا بعربة شرطة مدرعة مسروقة مع قنبلتين برميليّتين بحجم خمسين جالونًا مُحكَم الحشو بالمسامير القديمة وحديد الخردة وشظايا حديد

أخرى حول نواة الـ(TNT). في محطة الحافلات يَنتظر حشد من المتسوقين العرب الحافلة رقم (3). عَبرتْ عربة الشرطة بحمولتها القاتلة نقطة تفتيش الفيلق العربي وحاجز طريق عربي للوصول إلى وجهة الإرهابيين. وعندما اقتربوا من الحشد أشعلوا الفتيل ودحرجوا أحدَ البراميل المتفجرة نحو العرب المذهولين، وهرع المفجرون بعيدًا عن الانفجار الذي أودى بحياة سبعة عشر شخصًا بريئًا!

وفي طريقهم نحو هدفهم التّالي لا شكّ أنّهم كانوا متوتّرين مع مزيج من الخوف والسّعادة عندما اصطدموا بجزيرة مرورية وتعرضوا لنيران بريطانية في أثناء محاولتهم الفرار سيرًا على الأقدام عبر مقبرة (ماميلا).

وقُتل ثلاثة وجُرح الرابع وأُسر وكان يجبُ إعدامُه لأنّه -رغم تدهور الأوضاع- ما يزال قانون بريطانا نافذًا في فلسطين، ولكنْ سُمح له بالعيش. وفي آخر المطاف، ومع إصابات من هذا النوع، لا شيء أسوأ من العيش بساق واحدة أقصرَ بضعَ بوصات من الأخرى، وبهذا الوضع أُطلق سراحه.

أوشك اليهودُ في الحيّ اليهوديّ على الموت جوعًا حينما حاصرهم العربُ الغاضبون. قررت الشرطة البريطانية مرافقةَ إمدادات الطعام اليهودي إلى المجتمع المنكوب بعد التأكد من تفتيش جميع المتورطين.

ما زال للجيش البريطانيّ وجود كبيرٌ بالمدينة الواقعة في ثكنات ألنبي؛ وجودٌ كافٍ للحدّ من النشاط النهاري الرئيس للجانبين. كان الوضع مختلفًا ليلاً بالنسبة لهجماتهما. وقد تفاقمت سياسة التطهير العرقي اليهودية. لقد أرعب الإرجون العربَ في منطقة (روميما) لدرجة أنهم طلبوا حماية الهاغاناه (الأكثر اعتدالاً) ليتمكنوا من ترك منازلهم! وبحلول السابع عشر من كانون الأول بلغ عدد قتلى النزاع مئةً وستة وعشرين عربيًّا، وخمسةً وتسعين يهوديًّا، وتسعةً من أفراد قوات الأمن البريطانية.

ومنذُ أنّ صار اليهودُ إلى القصف الإرهابي في الصّراع اشتعل الانتقامُ في نفوس العرب.

أَخَذَ إعدادُ عمليّة على نطاق أوسعَ بعضَ الوقت. استلهَموا من روح حادثة بوابة يافا وسرقوا سيارةَ شرطة وحمّلوها نصف طنٍّ من مادة (تي إن تي) الكيميائية.

يرتدي اثنان من الهاربين البريطانيين وهما: (إيدي براون) قائدُ شرطة سابق، و(بيتر ماديسون) ضابطٌ سابق في الجيش، ملابسَهم العسكرية، ويقودان السيارة إلى مكاتب البريد الفلسطيني المملوكة لليهود.

أَشعلَ السّائقُ الصّمّامات وخرج، وسُمعَ الانفجارُ في أنحاء المدينة جميعها، وأَضْرَمَ النيران في المبنى. تحطمتْ نوافذ المنازل المجاورة.. وفي محاولة لتهوين بشاعة القصف، نُشرت في اليوم التالي طبعةٌ واحدة من صحيفة (فلسطين بوست) بعد أن أنتجتْها شركة طباعة أخرى.*1

وَقعتْ هناك إصابات، ورغم أنها ليستْ بقدْر ما خسره العرب بالقنابل، أيقظت إدراك اليهود لحقيقة أن القصف لم يكن من حقهم وليس لصالحهم.

وَصلَ الجنديُّ (آلان مور) إلى موقعه الجديد مع لواء المشاة الثّاني (بي) في دار الأيتام السورية- القدس، بعد ظهر يوم السبت الحادي والعشرين من شباط 1948م، ووُضع على الفور في مهمة هاتفية ليلية. كانت القدس آنذاك نقطةً ساخنة لنشاط كلا الجانبين، وقد وصل (آلان) في المراحل الأولى مما كان يجب أن يكون معركةً للسيطرة على القدس. وفي أول ليلة له في الخدمة الهاتفية شَعر بغضب العرب، وفي الساعات الأولى من صباح الأحد سَمع صوت الانفجار وأَحسّ بهزة قوية لانفجار غير بعيد.

انفجارُ شارع (بن يهودا) هو الذي قَتل أربعةً وخمسين شخصًا. وغنيٌّ عن القول أنّ زعيم الإرهاب (بيغن) ألقى اللومَ فورًا على البريطانيين، وأَمر الإرجون بإطلاق النار على أي إنجليزي يظهر في الأفق! اندلعتْ معاركُ نارية في أنحاء المدينة جميعها، وفَقد البريطانيون زهاء اثني عشر رجلاً. خطا قائد الجيش البريطاني خطوةً غير مسبوقة بإخراج القوات كلها من القدس اليهودية. لم يُنفّذ الهجومَ البريطانيون بل العرب بخطة مُحْكمة التصميم. دخلتْ قافلةٌ من ثلاث شاحنات للجيش البريطاني، تقودها سيارة مدرعة، المدينةَ عبر حاجز طريق الهاغاناه، من اتجاه باب الواد.

قال رجلٌ ذو شعر أشقرَ طويل يرتدي معطفًا من الشرطة الفلسطينية وقبّعتُه خارجَ البرج ويهز إبهامه باتجاه الشاحنات: «إنهم بخير، إنهم معي». وتحدّث أحدُ الحراس إلى السائق البريطاني في الشاحنة الأولى ثم أَدخلهم. كل شاحنة تحوي ما يزيد على طن متفجرات، وتوقفت في موقع إستراتيجي بشارع بن يهودا. أُشعلت الصمامات في وقت متأخر وكاف لتمكين الجناة من الانسحاب والاختفاء في الشوارع المجاورة خارج المكان.

كان (الشرطي) ذو الشّعر الأشقر في الواقع عربيًّا اسمُه عزمي الجاعوني، والسائقان الفاران (براون) و(ماديسون)، ولكل منهما دوافعُ للفرار قبل الإفراج الرسمي، فالأول قَتل الإرجون شقيقه فعزم على الانتقام.

وبدون هذا الصّراع كانتْ فلسطينُ بلدًا رائعًا للعيش. تزوّجَ عديد من الجنود الذين خدموا هناك في سنوات الحرب من اليهود واستقروا في فلسطين، وعاد كثير منهم مع أزواجهم للعيش في بريطانيا. وفي مرحلة ما، كان ضروريًّا منعُ الضباط من الزواج بفتيات مدنيات في فلسطين. وكان الزواج بامرأة يهودية أحدَ أسباب هروب بعض القوات في العام 1948م، لكن كثيرًا تركوا وانضموا إلى العرب تعاطفًا مع قضيتهم.

انتقل (آلان مور) إلى القدس من (نتانيا) مع لواء الحرس الأول (OFP) ضمن إستراتيجية الدمج وإخلاء العديد من المواقع العسكرية. واستمر هذا الترتيب حتى أيار 1948م حينما أخلي المعسكر في دار الأيتام السورية مع معسكر العلمين وثكنات ألنبي، وألّفوا جزءًا من قافلة كبيرة لعبور صحراء سيناء إلى مصر.

(آلان) الذي كان عليه أن يقود، تَصَرَّفَ كمرافق في هذه المناسبة لأنه كان مريضًا في مستشفى صرفند العسكري لفترة قصيرة. وذَكر أن الأمر كان محرجًا بعض الشيء، فقد كان في جناح يعاني من ضحايا النزاع، ولما سئل: «ما الذي كنت فيه؟» أجاب: «أشكو من دُمَّلَة». لقد كان على ساقه دُمَّل، وأولئك الذين عانوا من (الدَّمَامِل) في مناطق الصحراء يعرفون جيدًا هذه الدمامل مؤلمةً وموهنةً. فالقيادة بالنسبة لـ(آلان) غيرُ واردة.

كانت المركباتُ المدرّعة الإنجليزيّة مطلبًا مهمًّا بعد السّلاح لكلا الجانبين، وكان التخلص منها مشكلة كبيرة، وقد نُقل كثير منها إلى مصر ودُمر كثير أيضًا. على سبيل المثال، قادت الشرطة الفلسطينية مركبات على جوانبِ واد شديدة الانحدار وأشعلت النار فيها. وقد تقرر في محمية صرفند وجوبُ فك الأبراج المركبة على المركبات وبيع السيارات بعد ذلك. كُلف العمال المدنيون اليهود بوضع عبوة ناسفة في كل الأبراج لتعدم الفائدة منها ويستحيل إصلاحها.

لكنّ المدنيّين لم يفعلوا ما طُلبَ منهم. وفي العاشر من أيار قبل أربعة أيّام من نهاية الانتداب أُرسلت تعليمات من ورش القاعدة (3) في شاطئ الخياط إلى صرفند لاستبدال المدنيين، وأُرسل الرائد في سلاح مهندسي الكهربائيات والآليات الملكي (جي جي دويل) ومرافقُه ضابطُ الصف (بي سي كارثي) وثلاثة آخرون برتبة جندي أول وهم: (دبليو دي ماكريجر) و(بي جي شاربلي) و(آر تي ريجبي جونز) للقيام بتلك المهمة التي لم يقم بها المدنيون كما يجب. وفور

وصولهم عُرض عليهم المال لئلا ينفِّذوا، لكنهم تجاهلوا الرشوة ودمروا الأبراج. وفي طريق العودة إلى صرفند تعرضوا لكمين، ورغم استبسالهم في القتال قُتلوا جميعًا.

ولما عادتْ قوّاتُ سلاح مهندسي الكهربائيات والآليات الملكي (REME) إلى موقع الكمين لاستعادة الجثث أَطلقتْ عليها النار دوريةُ عمال الإنقاذ. كانوا يستقلون سيارةً مدرعة لعمال الإنقاذ في ورش القاعدة (3) للتصليح لإجراء اختبار حينما رصدتْهم دورية عمال إنقاذ أخرى وهم يغادرون صرفند.

ظنّوها مركبةً مسروقةً فنبّهوا وحدةً أخرى بعيدة على الطّريق لذلك، ولحُسْن الحظّ عُرفتْ حقيقتهم قبل الوصول إلى حاجز الطريق فلم تَحدث مأساة أخرى. يتذكر الرائد (جيم إيمري) الحادثَ جيدًا وأن المقبرة العسكرية لشاطئ الخياط كانت في منطقة المعركة، وفرّ حُفّارُ القبور العرب. وكان على رجال ورش عَمل القاعدة (3) مهمةُ حفر القبور ودفْن رفاقهم في الحادي عشر من أيار.

المراجع:

1. مثلّث فلسطين.
2. بريد فلسطين (3 أيار 1944م).
3. يا قدس. كولينز ود. لابيير، ويدنفلد نيكولسون.
4. المرجع ذاته.
5. المرجع ذاته.

13. النّهاية المرّة

في كانون الأوّل (ديسمبر) اشتدَّ العداء بين اليهود والعرب، ولم يَكُ هذا متوقَّعًا قبل أنْ نغادر فلسطين، ومؤكدٌ أنه سيجعل الانسحابَ أخطر، ولا سيما أن إرهاب عصابتَي (الإرجون) و(ليهي) ضد البريطانيين سيستمر. رغم أن المعارك كثيرة لم تُسجَّل سوى المعارك الخطيرة. وقد يتذكر كل جندي الأحداث التي تهمه، لكن مَن يتذكرون التاريخ قليل جدًّا. والواضح في أذهانهم هو الأشهُر الأخيرة المؤلمة من الحكم البريطاني؛ الأشهرُ الخمسة الأولى من العام 1948م.

أصبحتْ قيادةُ مركبات الجيش الآنَ من أخطر وظائف الجيش، وكانت شحناتهم الثمينة أهدافًا رئيسة. والأسلحة والذخائر على رأس القوائم التي يطلبها اليهود والعرب، فضلاً عن الزي الرسمي والبطانيات وتذاكر العمل حتى بطاقة هوية الجنود (الجزء 1) ودفتر الرواتب (الجزء 2)، التي كانت أيضًا تستحق القتل.

كان تفوّق اليهود واضحًا في سباق التّسلّح، وعربُ فلسطين يَسرقون الأسلحةَ والذخائر لكنّهم ليسوا بحماسة اليهود أو تنظيمهم الجماعي أو قسوة قلوبهم. ومن مصادر المخابرات العسكرية المطلعة تَيَقّنَ في أنحاء البلاد كلها أن اليهود يحتفظون بمخزون كبير من الأسلحة في المخابئ، وأن لديهم أموالاً لشراء مزيد منها. وكان ممثلو الهاغاناه يشترون الأسلحة في أوروبا وأمريكا بأموالِ تبرعاتٍ معظمُها من أمريكا.

ورغم انخفاض مستوى مخازن بريطانيا العسكرية زمن الحرب في فلسطين انخفاضًا مطردًا منذ نهاية حرب أوروبا؛ ما يزال هناك كثير لتحريكه، بقليل من الوقت. حتى التاسع عشر من تشرين الثاني 1947م كان استنفاد المخزون محكومًا بمطالب العمليات العسكرية بمنطقة البحر الأبيض المتوسّط. وفي العام 1946م قُلِّص مستودع العتاد الأساسي رقم (2) إلى مستودع العتاد المتقدم، وأعيد إعمار مستودع عتاد الجيش (614).

كانت القوّةُ العسكريّة الإجماليّة تتقلّص أيضًا فقد انخفضتْ من ذروتها زمن الحرب: سُحبت الوحدات واستُبدل بعضها، وسَلّمت الوحدات المنسحبة مخازنها وأدواتها في مجموعات مخازن الاسترجاع. وتحصل الوحدات القادمة على حاجاتها من مستودع عتاد الجيش (614).

عملَ العريفُ (جوس أوبراين) في مخازن المرتجعات في مستودع عتاد الجيش (614) ويتذكر تلك الفترة جيدًا، وبعضُ العناصر النادرة وغير العادية التي سُلّمت غيرُ معروف مصدرُها -على الأرجح- إلى الأبد. سُلّمت الإيصالات، وفي حالات كثيرة كان تسلم المتاجر إجراءً محمومًا، وقد تغوضي عن تتبّع أصولها. وكان لدى (جوس) مفاجآت عديدة بعضُها مثيرٌ للاهتمام غايةَ الإثارة، وبعضُها مقلقٌ أشدَّ القلق. يتذكر «سيفَ احتفال... لأيام عديدة كان يقف في ركن الغرفة ويتلألأ في وجهي. ثم في يوم من الأيام جاء الرائدُ مسؤولُ مجموعتنا ورأى السيف فأخذه إلى الحجز الوقائي!!».

أعطى الرقيبُ (فريمان) ثلاثةَ صناديقَ أو أربعةً غيرَ موسومة للعريف (أوبراين) للتخلص منها، وكانت الصناديق معلّقة في إحدى حظائر المتجر لسنوات عديدة. ولما سئل الرقيب عما في الصناديق ردَّ بـ: «غاز الخردل».

ولعدم معرفة ما إذا كان قوله مزاحًا أم لا قرّرَ (جوس) أن يفحص محتويات أحد الصناديق. ثمة صناديقُ أصفر تشبه صناديق طباشير المدرسة معبأة في الصندوق، وفي كل منها أربع وعشرون قارورة زجاجية في نُشارة الخشب. ولما عُلّقت زجاجة على الضوء رأى أنه يحوي سائلاً زيتيًا بنيًا غامقًا سميكًا. استُبدلت القارورة بعناية وتأن لأن المحتويات تطابق وصفَ غاز الخردل، وأكد انزعاجُ قبطانٍ فَحَصَ محتويات الصناديق شكوكَ (جوس).

وفي يوم الأحد التالي، مع مجموعة صغيرة، أَخذ العريفُ (أوبراين) الصناديقَ بشاحنة إلى أرصفة حيفا، حيث استقلوا مدمرة. وبحمّالة الشحن العميقة دُفعت الصناديق إلى البحر. بدأ التخلص من فائض الأسلحة والذخائر في البحر منذ أشهر، وفي بداية العام 1948م سُرّعت العملية.

كان خروج اليهود والعرب والجيش البريطاني في ساعات الظلام خطيرًا. وكان يجب تجنُّب السفر في وضح النهار ما أمكن. وقبل العام 1948م كان الجيش والشرطة الفلسطينية يحظران التجول في أي مكان تَحدُث فيه مشاكل، ولكن الأوضاع ازدادت خطورةً عقب معارك كانون الأول 1947م، وكان يجب القيام ببعض الرحلات خلال الليل. يوضح الجندي (جون ليتشمان) مخاطر السفر في الظلام:

«ليلةِ أخرى مليئة بالنجوم في ربيع العام 1948م حينما اضطررت أنا و(جوك بيرويتش) للقيام بواجب حراسة مكتب السفر بالسكك الحديدية في حيفا لإعادة بعض الرجال الذين وصلوا إلى المحطة. ولبلوغ حيفا علينا أن نمر بعديد من حواجز الطرق. لستُ متأكدًا لِمَن تلك الحواجز، وكان الفيلق العربي يحرس أحدها على الأقل، وآخرُ قد يكون للهاغاناه، ولو كانت عصابة (شتيرن) تدير أحدهما لقاتلوا للظفر بأسلحتنا ومركبتنا.

كلَّما اقتربْنا من حيفا عَلَا صوتُ إطلاق النّار من المعركة بين العرب واليهود. وأصبحت النجوم الواضحة للغاية في مستودع عتاد الجيش (614) الآن مخفيةً خلفَ حجاب من إطلاق النار المتواصل.

أَخذْنا ركابَنا وبدأنا رحلةَ العودة.. استمرَّ إطلاقُ النّار، ولكنْ في هذه المرّة كنا في قلب الرصاص. ووفق التعليمات التي تُلزم كلَّ رجل منا أن يحمل خمس طلقات من عيار (303) لم نكن بموقف نستطيع فيه أن نردَّ ردًّا فعّالاً. وعلى أي حال، قَضت تعليماتُ أسابيع الانتداب البريطاني الأخيرة بعدمِ تَعَارُك الفصائل المحلية.

مِن الحادي والعشرين من شباط اقتَصرَ وجود لواء المشاة الثاني على المعسكر إلى أن بَدأتْ واجبات الإخلاء في الرابع عشر من أيار. ولما احتاجوا إمدادات حيوية أُلّفت فرق إطفاء مع وحدات أخرى في منطقة القدس، ورافقتْهم مركبات حراسة مسلحة عبر المعارك المحتدمة. وفورَ الخروج من منطقة الخطر ينقسمون

للذهاب إلى وجهات مختلفة في منطقة حيفا وعكا في ساعات النهار الثمينة في ذلك الوقت.

وللعودة سيجتمعون مرّةً أخرى في أيِّ نقطةِ تجمُّع للسّفر عبر مناطق الصّراع. وإن فاتهم وقت إعادة التجمع المحدد فسيبقون في الليل بأقرب معسكر للجيش البريطاني ويعودون إلى القاعدة صباح اليوم التالي تجنبًا للظلام والسفر في أثناء وجود الدوريات المدرعة الإنجليزية نهارًا في الطريق.

غالبًا ما يُنصب كمين للسّائقين بسبب أسلحتهم وشحناتهم، ولكنّ عصابتَيْ (شتيرن والإرجون) لا تترددان في قتل السائق والقوات المرافقة! أما العرب فيهاجمون ويقتلون إذا قاومت القوات كما شهد (رايفلمان دنيس شيلتون).

تَمَرْكَزَ (دنيس) مع فيلق السلاح الملكيّ في البريج جنوب غزّة. مهمّتُهم أَخْذُ بعض الآبار والسيطرة عليها في الصحراء بين غزة وبئر السبع. وذاتَ يوم عادوا إلى القاعدة فوجدوا عصابة من العرب تهاجم شاحنة لسلاح عتاد الجيش الملكي.

قال (دنيس): «لقد شَنَنَّا عليهم هجومًا، والذين ما يزالون يستطيعون الركض ركضوا. وَجدْنا جثتين من الجيش، إحداهما من سلاح عتاد الجيش الملكي تحت العربة، وكلتاهما بجروح خطيرة. أخذناهما إلى معسكرنا ليعالجهما الضابط الطبيب. وذهبتُ بسيارة الإسعاف بأحدهما إلى مستشفى رفح، وفي الطريق ساءت حالته. كنتُ أمسك جانبَ رأسه ليبقى الدماغ فيه.

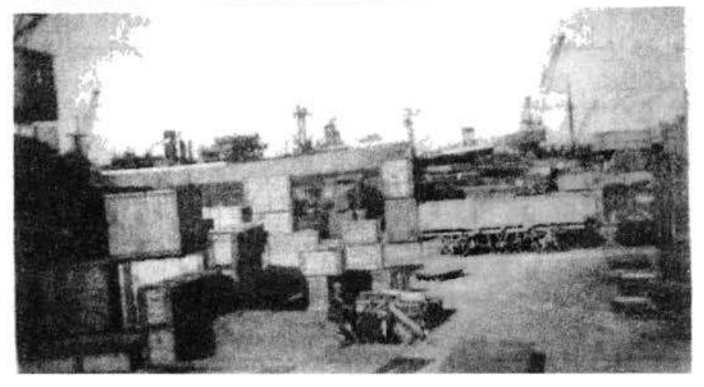
كان (بيتر) سائقًا في قسم النّقل الآليّ في وحدة غسيل الملابس رقم (1) بـ(بتاح تكفا) على بعد زهاء خمسة أميال خارج تل أبيب. كان مِن أواخر الذين غادروا المعسكر في (بتاح تكفا).

وهذه قصّةُ (بيتر):

«في أوائل العام 1948م بدأنا نفكّك المغاسل استعدادًا للشّحن إلى (إنجلترا)، واستمرَّ هذا إلى إخلاء أيار. وكلَّ بضعة أيام نقوم برحلة إلى أرصفة حيفا، حوالي خمسين ميلاً. كانت بعض الرحلات هادئةً تخلو من الأحداث التي تستحق الذكر، مُحَبَّةً لأن ما يُنقل فيها آلات لا أسلحة، ولا حراسةَ ترافقنا، ورغم ذلك فَجّر العرب قطارًا أمامنا مباشرة ونحن على وشك أن نقطع سكة الحديد؛ وهو الحادث الوحيد الذي تعرضنا له.







في تلك الأيام لمْ يكنْ بوسع عديد من موظّفي الخدمة قيادةُ السيارات، ولذا، ومع اقتراب الموعد الأخير لشهر أيار حاولنا تدريب بعضهم لنتمكن من إدخال أكبر قدر من المعدات إلى مصر التي كانت في الغالب صحراء، وما داموا يستطيعون القيادة في خط مستقيم والدخول في العتاد يمرون. ذكرياتي الأخيرة عن فلسطين هي اليهود والعرب الذين يقاتلون للدخول في الجزء الخلفي من المعسكر أثناء مغادرتنا عبر المدخل الرئيس».

غادرت المغسلة الأساسية الأولى (بتاح تكفا) واليهود والعرب يتقاتلون للدخول في مؤخرة المعسكر. أعلى اليسار: الشاحنات الأخيرة التي تُركت محملةً جاهزة للرحلة إلى أرصفة حيفا. أعلى اليمين: الطريق مسدود بقطار أَخرجه العرب عن مساره. أعلاه: معدات المغسلة تصل إلى أرصفة جاهزة للشحن إلى قبرص

رغم سريان إجلاءِ الرجال والمواد، المهمةِ الضخمة، ما يزال الإرهابيون اليهود يلغّمون قطارات القوات بلا هوادة ويُلقون قنابل يد على الشاحنات المفتوحة ويهاجمون المنشآت العسكرية الإنجليزية!

احتاج العمّالُ المدنيّون إلى نقليّات الجيش وحمايته لإيصالهم إلى أماكن عملهم ومساعدتهم في الإخلاء. وكانت الأسلحة والمعدات العسكرية الأخرى لليهود والعرب بأعلى مستوًى في الأوقات كلها، وكانت الثقة بالعمال المدنيين اليهود في أدنى مستوياتها. ما زال زهاء مئتين وخمسين جنديًّا يسيرون كلَّ يوم من المعسكر (153) ومستودع (614) واليهما.

وفي الأصل ساروا بلا أسلحة، وأما تسلّحُ بعضهم الآنَ فلمَظَنَّة هجوم مباغت. كان الجزء الأضعف والأقلُ أمانًا في المسير امتدادًا قصيرًا للطريق السريع الرئيس بين ممر المعسكر وبوابات المستودع، حيث أُنشئ حاجز طريق لإيقاف حركة المرور كلها لتصل القواتُ إلى وجهتها في أي وقت في أيام العمل.

كان الجنديُّ (جون بار) سائقَ مركبة، يعمل في سيارته سيّارةِ الإنقاذ (4×4) خارج (بات جاليم)، وتُبين قصته أن الجيش البريطاني –حتى أثناء العمل في موقف متوتر– ما يزال يتوقع من المجندين الشباب احترافًا عاليًا.

في كانون الثاني 1948م يسحب (جون) بسيّارته (فورد 4×4) مركبتَين، مع شاحنتي إنقاذ. يقوم برحلة خطيرة وطويلة إلى مجموعة النقليات (612) في رفح عندما دَبّر لهم العرب كمينًا. كانوا يسافرون على طول طريق التراب عبر تضاريس برّية من الصخور والصّبّار وأرض شجرية؛ وهي البيئة المناسبة لقطاع

الطرق. والطريق لا تكاد تُعد ممرًّا ملتويًا يمر فوق التلال وخلال التجاويف التي تتطلب أقصى تركيز في أفضل الأوقات، وبالتأكيد تحتاج تركيزًا أكثر وأنت تسحب مركبتين. كان (جون) منشغلاً بقيادة سيارته ويضطر إلى تعشيقها غيرَ مَرّة، مرتاحًا على مِقودها فإذا عربيٌّ يقفز من مكان مجهول من الطريق.. وَجد (جون) نفسَه ينظر إلى البندقية. «لقد فَرْمَلْتُ وفتحتُ الباب لأسقطه على الأرض وأقفز. كنا نتصارع على الأرض حينما انطلقتْ صليةُ الرصاص، وهم يفوقون مجموعتنا الستة فحوصرنا، ولا فائدة من المقاومة».

كان تكمين كمائن كهذا مألوفًا، وقد تكرّر في الأشهر الأخيرة لاحتلال القوات البريطانيّة. العرب يريدون الأسلحة فقط، ولحسن الحظ لا نشاط لعصابة (شتيرن) في هذه المنطقة، وإلّا لخسروا حياتهم والشاحنة. وجاءت إحدى السيارات المدرعة التي تجوب الطريق بانتظام ورافقَت الرجال والعربة إلى معسكر (612) حيث قُبضوا ستّتُهم.

وفي كانون الثّاني 1948م فاقت أساطيلُ المركبات الذاهبة إلى الجنوب باتجاه واحد نظائرها باتجاه الشمال، فاستغرقتْ هذه الرحلة أيامًا عديدة قبل انتقال (جون) ورفاقه إلى حيفا و(بيت جاليم) ليخضعوا للمحاكمة العسكرية.





صورة (برين ريفرز) للقوات وهي تغادر حيفا بقوارب لتصعد إلى الباخرة (أس أس جورج الثاني) المتجهة إلى بورسعيد في الخامس من حزيران 1948م

وببطّانيّتين فقط لكل واحد، وبلا شيء أسفلَهما غير الفولاذ البارد في سيارته، ناموا بعربتهم. ورغم سعادته بنجاته من الحادثة بلا جروح، يعلم (جون) أنه لا بد خاضع لمحاكمة عسكرية. ومع اقتراب موعد التسريح من الجندية، وبغَض النظر عن نتائج المحاكمة، سوف يتأخر تسريحهم في شارع (سيفي).

لقد حوكموا محاكمةً عسكرية بتهمة سرقة السّلاح، ولكنّ ستّةً منهم برئوا منها وسُمحَ لهم بالمغادرة إلى بريطانيا في الخامس من حزيران 1948م. وقد تأخر تسريح (جون) ستةَ أشهر بسبب المحاكمة.

تقضي العقيدة العسكرية إذا تعرّضَت العربةُ إلى إطلاق نار بأن تبقى فيها بغضّ النّظر عن الظّروف أو الإغواءات.

كان (بيتر جاكسون) من مجموعة مركبات (612) برفح، يقوم برحَل منتظمة بين رفح وحيفا. وحينما أصبحت الرحلات أكثر زادت خطورة الكمائن. وفي العام 1948م تزايدت المخاطر باطراد وانتظام، ودُبّر كمين لا يُتجنّب لـ(بيتر) ومرافقه،

ولكنهما -وتحت النيران- قفزَا من الشاحنة وردًا بإطلاق النار ففرّ المسلحون فَأُغْرِيَا بمطاردتهم لكنهما لم يفعلا الْتزامًا بالإجراءات المتبعة في الحالات المشابهة فبقيَا في الشاحنة المحاصرة إلى أن وصلتْ مركبة الإنقاذ.

قَضَتْ إستراتيجيّةُ الجلاء الشّاملة بإزالة كلّ ما يمكن إخلاؤه من جانب البلاد الشرقي، ورغم أنه قُرّر انتهاء الانتداب في منتصف ليل الرابع عشر من أيار 1948م سيبقى هناك ممرّ بطريق الساحل شمالاً باتجاه الجنوب نحو حدود مصر.

وقعتْ أسوأُ فظائع سكك الحديد الأحاديّة على القوات البريطانية في صراع 1945-1948م في التاسع والعشرين من شباط 1948م بعد ثلاثة أشهر من إعلان بريطانيا الجلاء.

وقُتلَ ثمانية وعشرون جنديًّا وأصيب ثلاثةٌ وثلاثون آخرون بانفجار ثلاثة ألغام مفخخة كهربائيًّا تحت عربات خشب تحمل مئةً وعشرةً من الجنود. كان قطار القاهرة- حيفا الليلي يقترب من (رحوفوت) على طول جسر الساعةَ التاسعةَ وخمسًا وأربعين صباحًا وقتَ وقوع المأساة. ذَكرتْ صحيفةُ (فلسطين بوست) القطارَ بأنه قطارٌ لنقل الجنود، لكنْ في الحقيقة كان نصف ركابه مدنيين معظمهم يهود؛ كانوا في العربتين الأماميتين فلم يصابوا. اشتُهرت (رحوفوت) بأنشطتها الإرهابية لقربها من الحي اليهودي وبساتين البرتقال التي تحيطها كالغطاء.

كان هناك بستانٌ قريبٌ جدًّا من الموقع فأُلقيَت جثث عديدة بين أشجار البرتقال، ووفق ما قاله شاهد عيان -وهو مهندس ملكي- تناثرت أشلاء السيقان والأذرع في ذلك المكان، وتحطمتْ عربتان متوسطتان وتضررت أخريان. ولحسن الحظ لم ينفجر لغمٌ آخر، وإلا لكان الضرر والوفيات أسوأ.

وباستمرار الانسحاب لا يُحتاج إلا عددٌ قليل من القوات، فلمْ يُحمَّل القطار عددًا كبيرًا، وكان على متنه طاقم عمال خاص بالجلاء ممن كانوا مجازين في

إنجلترا وعادوا، ومنهم رجال جدد جاؤوا ليساعدوا في إزالة المعدات والمخازن.

كان أوّلَ الواصلين إلى موقع الهجوم مستوطنونَ من (هاتزوفيم)، ولما اقتربوا أطلق الناجون النار عليهم ظانّينَهم إرهابيين، لكن اجتاز الطريقَ فتاتان بأمان وطمأنتاهم بأنهم جاءوا للإغاثة. ساعد المستوطنون في تضميد الجرحى ورعايتهم وتقديم القهوة للجنود، ثم جاءت سيارة إسعاف للدرع الأحمر، وقد استُدعيت سيارات الإسعاف العسكرية بعد ساعة بسبب قطع خطوط الهاتف.

فَحَصَ خبراءُ الجيش الذين استُدعوا لإزالة الحطام لغمًا لم ينفجر، فوجدوه يحوي رطلاً من الأمونيوم وأربعين قدمًا من الأسلاك تصل إلى بستان البرتقال.

انضمَّ (ليزلي مورجان) و(جون نيسبت) -وهما من موظّفي الذّخيرة ورجال التّخزين الذين تبلغ أعمارهم ثمانية عشر عامًا- إلى القطار في ميناء السويس ووُضعا في آخر عربتين حينما وقع الانفجار.

كَتَب (ليزلي): «لقد دُفعنا وطرحنا أرضًا من مقاعدنا إلى جانب أكياس أدوات وبنادقَ ومواد متنوعة من المقاعد وصناديق الذخيرة وصوتٌ يصرخ: «ابتعد عن النوافذ»، ولحسن الحظ لم تُدمَّر العربة التي كنتُ أسافر فيها وبقيتْ قائمة، وتمكنّا من السيطرة على أنفسنا ولم ننظر من النوافذ أو نغادر القطار. وبعد زهاء ساعتين تمكنّا من النزول من العربة والمشي إلى أمام القطار حيث وسيلةُ مواصلات مناسبة تنتظر لتنقلنا إلى حيفا.

كان مشهدُ الدمار الذي رأيناه في مسيرنا نحو مقدّمة القطار فظيعًا، فقد خرجتْ ثلاث عربات عن مسارها بالكامل ووَقع الحطام على جانب واحد».

الضابطُ المسؤولُ في القطار هو العقيد (ت.ج. جور) الذي كان متوجّهًا أيضًا إلى مستودعَ عتاد الجيش (614) ليكون كبير مسؤولي العتاد. وكان من واجبه الإشراف على إخلاء المستودع والمخازن التي تُسلّمها الوحدات التي تغادر المعسكرات والمنشآت. وكانت وظيفة (ليزلي) في آخر المطاف العملَ في مجموعة

المتاجر المرتجعة في معسكر (كيشون) بجانب نهر الأردن المقدس المعروف بنهر (كيشون).

كان من المقرَّر أن يكون في القطار ذاته (براين ريفرز) الشّخصُ البديلُ البالغُ من العمر ثمانية عشر عامًا، في طريقه مع زملائه الضباط الصغار إلى مستودع العتاد (614)، ورغم ذلك نُقل بالقنطرة إلى قطار آخر قبله ليكون الضابط المسؤول في ذلك القطار.

ولم تُنقَلْ عدّتُه معه، وظن فترةً من الزمن أنّه فقدها فقدًا أبديًّا، وقد وجدها فيما بعد. وعادةً ما يكون الضباط مع معداتهم في العربات الأمامية لقطارات القوات المسلحة.

وقد أُعطيَ (جون نيسبت) بندقيةً وخمسَ طلقات مثل (ليزلي مورغان).

وخوفًا من أنْ يعقب ذلك هجومٌ وَضَعَت القوّاتُ التي وسعها ذلك رصاصاتِها في البنادق وتوجهوا إلى النوافذ. خسر (جون) أربعَ طلقات بالارتباك والتشويش، وقضى بقية الرحلة معتَقَلاً، وأمضى ليلته الأولى في مكتب حراسة مستودع العتاد (614)، وفي صباح اليوم التالي وضعه الرائد (نيومان) قيد الاعتقال المفتوح.

وفي حال يَقتصر فيه عملُ كلّ رجل على المعسكر طوال اليوم، وفي مهمّة الحراسة كلَّ ليلة، كان الاحتجازُ ترفًا لا يستطيع الجيش تحمله.

وكانتْ مهمّةُ (جون نيسبت) التّاليةُ بعد فلسطين في وحدة غسيل الملابس المتنقّلة (301)، وفي وحدة الغسيل والحمام بقبرص. ومن الأكواخ الطُّوبيَّة في المعسكر (153) صاروا الآن في خيم صيفًا وشتاءً.

اتّخذَ (مناحيم بيغن) القائدُ الإرهابيّ للإرجون انفجارَ شارع بن يهودا ذريعةً للانتقام وتفجير القطار. وفي منتصف نيسان أُرسل العريف (إريك لونج) و(روي بوغسون) في قفص الاتهام إلى حيفا وكان هناك ضابط مسؤول، ووُضعا في

مبنى تخزين كبير مع قواتِ البحرية الملكية الخاصةِ (الكوماندوز). وكانت قواتُ البحرية (المارينز) مسؤولةً عن الأمن وقواتُ سلاح عتاد الجيش الملكي مسؤولةً عن تنظيم حركة النقل من المخازن بوساطة السفن إلى وجهات مختلفة ومنها المملكة المتحدة.

كَتَبَ (إريك لونج): «كانت المؤن والمستلزمات كافةً، التي جاءت من أنحاء فلسطين جميعها: الصابون، والقرطاسية، وقطع غيار السيارات، والأسلحة، والإمدادات الطبية وما شابه ذلك -تشغلنا للغاية، فقد تناوبْنا ثلاثتُنا في الإشراف على تحميل السفن ثماني ساعات على مدار الساعة».

بعد الخامس عشر من أيار غادرت المفرزةُ الصغيرة مبنى التخزين للنوم ستة أسابيع على متن سفينة حربية ترسو عند حاجز الأمواج حيث أخذهم قاربٌ إلى الأرصفة للعمل والترفيه، لكنهم واجهوا صعوبةً حينما ذهبوا إلى الشاطئ مساءً في المحافظة على حظر التجول الثابت الساعة (22:30).

نُقلت حمولة السّفن من الإمدادات العسكريّة واحدةً تلو الأخرى، ليلاً نهارًا، منذ بداية العام 1948م، ولم يَقتصر الأمر على الإمدادات والسفن الحربية التي تَستخدم الميناء فقط، فما تزال سفن المستشفيات التي تنقل المرضى والجرحى تتنقل داخل الرصيف وخارجه.

وكان الإخلاء يخلق مشاكلَ لحركة الأعمال الاعتيادية في الميناء.

كان الوضعُ حرجًا جدًّا، لدرجة أنه نُشرَ في صحيفة (فلسطين بوست) ظهرَ الجمعة الخامس من آذار مقالٌ عن التأثير الإيجابي لذلك الوضع على ميناء تل أبيب الصغير، فقد كان ذلك أكبر ازدهار في تاريخه، إذ انتشرتْ على زهاء نصف طول المدينة سفنٌ بمختلف الأشكال والأوصاف عبر المياه المقابلة، بعضها يحمل الإمدادات، ومنها ما يحمل الصّابورة التي تُوضع في بطن السفينة من الثقل لئلا تَميل على أَحد جوانبها لتحميل الحمضيات. ونادرًا ما كان هناك خلال الشهرين الماضيين عددٌ يقل عن مجموع السفن الراسية في الطريق. وفي

الأوقات الاعتيادية، نادرًا ما يزيد العدد هناك على ثلاثة أو أربعة. وكان ازدحام العمل في مرسى تل أبيب بسبب فوضى ميناء حيفا وارتباكه. وكانت سقيفة جمارك الميناء الرئيس للبلاد مختنقةً بالسلع، وكان المستوردون يفكرون مرتين قبل نقل بضائعهم إلى الطرق السريعة.

ومن ثمَّ فإنّ عبئًا غيرَ متوقّع ألقي على ميناء تل أبيب المجهّز تجهيزًا سيّئًا. حتّى سلطات الحكومة التي عادتْ تطوير الميناء اليهودي بوضوح، كانت تفرغ شحنات القمح والدقيق والشعير والذرَة لدائرة مراقبة الأغذية ووكلاء الحكومة السادة (ستيل بروس).

كان مفهومًا ترددُ بريطانيا في تطوير ميناء بمدينة ذات أغلبية يهودية. وبالطّبع، كان هناك ميناءُ ماء ضحل في يافا القريبة، وهو الشهير في العصور التوراتية بتسلم شحنات الأرز من لبنان، وفي العصر الحديث بتصدير البرتقال.

حتّى تشرين الأوّل 1947م شارك فيلقُ مهندسي الكهربائيات والآليات الملكيّ في فلسطين في تطويرها لتكون قاعدةً بريطانية دائمة مع خطط لإنشاء مزيد من المستشفيات والثكنات ومنشآت الإدارة.

ورغم ذلك، كان انسحاب بريطانيا حبرًا على ورق، فمثلاً كان لقوّات سلاح عتاد الجيش الملكي مستودعات يجب تفريغها، وكان لفيلق مهندسي الكهربائيات والآليات الملكي (REME) ورشُ عمل مع قوة عملٍ عسكرية ومدنية كبيرة وآلاف الأطنان من معدات النقل.

أُغلقتْ ثلاث ورش عمل أساسيّة، منها ورشُ عمل رئيسة في حيفا وشاطئ الخياط و(كيرات موتسكين) وتل أبيب. وبحلول العام 1948م كان الموظفون المدنيون يختفون بسبب ازدياد التوتر بين العرب واليهود.

كان يجب مسْحُ وإخلاءُ تسعمئة وثلاثة وعشرين ألف قدم مربع من أماكن الإقامة المأهولة، ونقْل عشرة آلاف طنّ من المعدات والمخازن فور نهاية الانتداب.

كان مستوى التوظيف المعتاد تسعين ضابطًا وثلاثة آلاف من الرتب الأخرى وزهاء خمسة آلاف مدني.

ومع تقلّص عدد الموظّفين المدنيّين ازداد العبْءُ على الجيش. ومقياسًا لحجْم العمل كان الطلب على علب التعبئة للمعدات والمؤن، وهو ما تطلّب أربعة آلاف طن من الأخشاب وثمانية وعشرين طنًّا من المسامير.

عند نقطة المغادرة قال قائد الوحدة: «هل هذا كلّ شيء؟"، قال الرّائد: «نعم يا سيّدي، كلّ شيء ما عدا مصلى الكنيسة». وقال قائد الوحدة: «لا يمكننا أن نترك هذا خلفنا قبل أن نطمئن من أن المصلى وُضع في صندوق للشحن البحري، وهو في طريقه».

كانتْ قوّاتُ المشاة ومعدّاتها تغادر عن طريق البرّ لعدّة أسابيع، وكان الرابع عشر من أيار آخرَ يوم من أيام الانتداب، واليوم الذي سيتم فيه إخلاءُ جميع المنشآت خارج المنطقة المحددة بالإعلان. وحتى ذلك الحين، كان الجيش البريطاني يحمي بعض المنشآت المدنية الإستراتيجية الحيوية، ومنها محطة ضخّ المياه في اللطرون بين القدس واللدّ. أَرْسل (مايكل جيفرسون) -وهو عضوٌ ثانوي في (لينكولنز)- وصْفًا لدوره في محطة ضخ اللطرون إلى متحف الحرب الإمبراطوري، كما يلي:

كانتْ محطّةُ الضّخّ منشأةً معزولةً وأساسيّةً على بعد ميل من حصن شرطة فلسطين المحصّن. ومن المؤكد أنه موقع لا يمكن استخدامُه ضد أي هجوم مُصرٌّ على تحقيق هدفه. كان يتألف من سلسلة من الطوب الصغير والجصّ؛ مبانٍ بُنيتْ على الطراز المحلي تحيط بمبنى محطة الضخ في سقيفة بُنيت لهذا الغرض. تقع المحطةُ على أرض صخرية مفتوحة محاطة بتلال منخفضة. وإن أي انقطاع للمحطة سيكون له تأثيرٌ بالغ في حياة مواطني القدس الذين يعانون بالفعل من ضغوط شديدة. حافظْنا على توفير دوريات على مدار الساعة وإطلاق نار غير

منتظم من قذائف (الهاون) بقياس بوصتيْن طوال الليل لردع هجمات التسلل على المحطة. تلقينا بعض نيران الأسلحة الصغيرة البرية، غير الفعالة وغير المهمة، من مصادرَ غير معروفة.

كانتْ لدينا مياهٌ متدفّقة، ومطبخٌ ميدانيٌّ يديره عريفٌ حصل على الجائزة الأولى في مسابقة تقديم الطعام الميداني. كنا نعتاش على حصص غذائية سخية إلى حد معقول، تضمنتْ أكياسًا من الدقيق والسكّر عالي الجودة القابل للتبادل التجاري. وعلى بعد نصف ميل من المحطة ديرُ رهبان، وقد اشتُهر بالنّبيذ المنتج من قِبل الرهبان. وكان النبيذ صالحًا للشرب بالتأكيد رغم الوسم غير المناسب الذي منحه إياه الجنودُ الساخرون: «نبيذ المراحيض».

كانتْ مقايضةٌ حصيفة مع رهبان ديْر (براذر هوسبتلر/ Brother Hospitaler) فقليل من الطحين والسكر بعديد من أوعية الخمر الممتاز والفعال جدًّا من (ماركة ميدوك.)

أَصَرَّ مديرُ التّموين الكريمُ على أنّه بسبب ظروفنا (المعيشية الصعبة) يحقّ لنا الحصولُ على وعائين من مشروب (ماركة آرمي رم/ Army rum). وصلتْ في قنينة صغيرة مغطاة بالقش، وأنا متأكدٌ من أنه كان من فصيلة قريبة من الشراب القوي الذي أُنتج للقوات في الحرب العالمية الأولى قبل أن يذهبوا إلى (المقدمة). كان رئيس القرية الفلسطينية سعيدًا بتبادل خروف بكيس دقيق. أنتجَ (مايسترو) المطبخَ الميداني ولدينا مؤن مناسبة للّواء، وبالتأكيد انتَعشَت المفرزةُ غذائيًّا.

في صباح الثالث عشر من أيّار تعكّرَ الهدوءُ النّسبيُّ لدينا كثيرًا عندما أصبح كلُّ شيء كالجحيم، فقد أَطلق الفيلق العربي -وهو قوة من النخبة الأردنية- النارَ على كتيبة يهودية من الهاجاناه المتمركزة بالقرب من اللطرون، على بعد زهاء خمسمئة ياردة من موقعنا. كنا قريبين جدًّا من خط النار المباشر بين القوات المتواجهة. جلسنا جلوسًا غير مريح تحت نيران مدفع (البوفورز) من

عيار (40 ملم و25 قذيفة هاون) لكننا لم نُصَب. وفي صباح الرابع عشر من أيار غادرنا اللطرون في حاملتي أسلحة (برين) وشاحنة وزنُها ثلاثة أطنان. وكان لدينا كل أدواتنا مخزنةً على متن المركبات، وسرنا عبر طريق اللد إلى أسفل طريق الساحل وإلى غزةَ ومصر.

وبسبب انشغال الجيش البريطانيّ بالجلاء، لم يكن لديهم وقت أو رغبة بالمشاركة في المعركة الجارية بين اليهود والعرب. صُرفت طاقاتهم على إبقاء خطوط الاتصال مع مصر مفتوحةً، وحمايةِ الممتلكات التي لا تزال في أيدي البريطانيين.

في الخامس عشر من أيار 1948م أَصدر الفريقُ اللواء (ماكميلان) الضّابطُ العامُّ للقوات البريطانية في فلسطين، إعلانَه مع خريطة توضح المنطقة المحتلة الآن باللون الأحمر، من عكا في الشمال إلى الحدود المصرية في الجنوب.

كان البحرُ حدودها الغربيّة، عدا بعض الثّكنات في خطّ الجبهة العسكريّة حول المنطقة اليهودية تلّ أبيب وضواحيها، وقد كان جبل الكرمل منها في أوسع نقطة له.

ومن الخضيرة باتّجاه الجنوب، تضيق المنطقةُ لكنّها تتسع بما يكفي لاتصالات الطرق وسكك الحديد، ولكن خط سكك الحديد كان معطلاً في وقت ما قبل ذلك الحين.

تَضَمَّنَ الإعلانُ ستَّ فقراتٍ رئيسة:

1- ستكون المنطقة المحتلّة خاضعةً للولاية العسكريّة إلى الحدّ الذي قد يكون ضروريًا لغرض سحب قوات صاحب الجلالة البريطانية من فلسطين، وستبقى تحت هذه الولاية وفق ما يحدده القائد العامّ.

2-ليس المقصودُ التّدخّل في حياة سكّان المنطقة المحتلّة، إلّا بالقدر الضّروريّ لانسحابِ القوّات البريطانيّة انسحابًا آمنًا.

3-من المتوقّع أنْ يكتمل الانسحابُ في الأول من آب 1948م أو قبله، ثمّ تُنهى الولاية القضائية العسكرية في المنطقة المحتلة بواسطة الإعلان.

4-يجب على جميع الأشخاص الموجودين في الإقليم المذكور أن يمتنعوا عن أيٍّ أعمال تمسّ سلامة القوات البريطانية.

5-ستُحتَرم جميع القوانين والأعراف والحقوق المتعلقة بممتلكات المنطقة المحتلة. وستُعوَّض جميع متطلبات الخدمات أو الممتلكات التي استولتْ عليها القواتُ البريطانية وصادرتْها.

6-ما دام سكّان المنطقة المحتلّة سلميّين وملتزمين بأوامر القائد العامّ، لن يتعرّضوا لمزيد من التدخل.

كانتْ مشاركةُ مجموعة المركبات (612) في رفح آخرَ مشاركة للعربات التي كانتْ ستعبر إلى صحراء سيناء ومصر. لقد كان وقتًا مزدحمًا في (612)، وبقي كذلك حتى الخامس من أيار، بعد ثلاثة أسابيع من نهاية الانتداب.

في العام 1948م طُلب من العقيد (مالكولم ستون) الذي كان قائدًا في ذلك العام الإشرافُ على تدمير المركبات المدرعة في مجموعة المركبات، وقد أُلحق كثير منها بقواعدَ عسكرية أخرى، ولكنْ كان هناك سياراتٌ مدرعة كثيرة أمريكيةَ الصنع(Staghound) للتدمير.

كان لدى الجيش المصري الذي يتحرك في المنطقة أثناء مغادرة البريطانيين عرباتٌ مدرعة من نوع (Staghounds). وهذا من مذكرات (مالكولم) عن تلك الفترة الحرجة، وقد أشار إلى عرضٍ مغرٍ جدًّا:

«اتّصلَ ضابطان من الجيش المصريّ وأبديَا اهتمامًا بشراء بعض مركبات(Staghound) ، وقدّما كل المغريات والحوافز الممكنة ليتم ذلك. ورغم ذلك واصلْنا تدمير هذه المركبات وغيرها من المركبات «أ» بنقْلها في مجموعات صغيرة خارج محيط مكان المستودع، حيث قام خبراء المتفجرات بقصفها بشحنات من قنابل مدمرة. وبعد ذلك جاء الضباط أنفسُهم وسألوا إن كان يمكنني ترتيب خلع العجلات والإطارات وتركها خارج منطقة التدمير، وعندما لم يحدث هذا اقترحوا بعدُ أن أرتبَ نقلهم خارج محيط منطقة التدمير، وبذلك نتمكن من التأجيل، وبغشوّ الظلام سأتمكن من إصدار الأمر بتأجيل التدمير حتى صباح اليوم التالي، وبالطبع ستكون المركباتُ خارج محيط المكان حتى اليوم التالي. حسنًا، لا يسعني إلا أن أقول أنني لم أكن متحفزًا لفعل ذلك كثيرًا، وكانت هذه نهاية الأمر».

كان هناك حادثٌ مؤسفٌ عندما دخلت القوافلُ البريطانيّة مصر، إذ ظنّ الطيّارون المصريون خطأً أنها قوافلُ إسرائيلية تغزو مصر، فاستَهدفت القنابل الشاحنات البريطانية.

كانت المرحلةُ التّالية للخروج من فلسطين عبورَ صحراء سيناء ورفح لأنها على الحدود تقريبًا؛ كانت نقطةَ انطلاق مناسبة للجيش البريطاني المغادر فلسطينَ كما كان الحال طوال السنوات الثلاثين الماضية.

قَدّمتْ خدمةً مهمّةً قوّاتُ سلاح عتاد الجيش الملكي حينما نُقلت اثنتان وخمسون وحدةَ غسيل وحمّام متنقلة إلى رفح لتوفير مرافق الغسيل والاستحمام لأولئك الذين يغادرون برًّا. ورحّب جنودُ المشاة والمدفعية وطاقم الدبابات والسائقون الذين وصلوا إلى رفح عبر الطرق الترابية بالاستحمام وتبديل ملابسهم قبل عبور صحراء سيناء. وكان مقرُّ الوحدة سابقًا مع عشرات المركبات أو نحو ذلك في (كفر بيلو) جنوب اللد، وكانت شاحنات النقل تحتوي على اثنتي عشرة مركبةً على الأقل، ومنها جرارات (ماتادور) التي تُستخدم لسحب وحدات الغسيل، وثلاثة أطنان مستلزمات لوحدات الحمّام، والباقي للاستخدامات

الأخرى. وكان هناك مركبةٌ رباعية تُستخدم كنوع شامل من المركبات، سبق أن استخدمتْها المدفعيةُ الملكية لسحب البنادق ونقل أطقمها.

أمّا المعدّاتُ والموادُّ التي لا يمكن نقلُها أو انتهت الحاجةُ إليها في مكان آخر، فيجب تدميرها أو بيعها في بعض الحالات. وشملت المبيعاتُ مركبات غيرَ مسلحة، وموادَّ ورش، ومؤسسات عسكرية. كانت ممتلكاتُ مستودع عتاد الجيش (614) في قمّة قائمة المشترين من أجل مساحتها وسقائف التخزين المبنية لهذا الغرض، وارتباطها بخط سكة الحديد الرئيسة. يتذكر الشرطيُّ (كين مارشال) اليومَ الذي وصل فيه (بن غوريون) إلى بوابات المستودع مع مجموعة من اليهود، ويظن (كين) أن العقيد (جور) كان على علْم بالزيارة قبلُ بوقتٍ طويل بسبب الاستعدادات التي عاينها. صدر الأمرُ لشرطة المستودع بارتداء الملابس العسكرية الكندية لتحل محلَّ الزيّ المألوف المعتاد في بريطانيا؛ كانت درجة لونه أغمقَ وأكثر خضرةً من الكاكي. يقول (كين): «لم يكن الفرق في اللون حسبُ، بل في القماش والتفاصيل.»

أُعْطي رجالُ الشّرطة الذين كانوا في واجب حراسة البوّابة الرّئيسة مسّدسَ حماية في قرابه بدلاً من بندقية (ستين) التي تُعلَّق عادةً على الكتف. ولتكتملَ الإثارة كان الحزام والشريط المتقاطع بلون أبيض. وعلّة هذا التغيير في المجموعة أن تبدو أكفأَ حينما تأتي أفواج أخرى لتسلم المؤن والأسلحة.

إحدى المنشآت الرئيسة التي وجب إخلاؤها، مستودعُ ذخيرة القيادة (567) في وادي صرار، وهو ذو أهمية كبيرة للمنتصر، فلا يُترَك مع مخزونه لمصلحة البقاء جهةً محايدة. أَرسل الرقيب (بيل إدواردز) فاحصَ ذخيرة إلى هناك لضمان التخلص الآمن من الذخيرة غير المرغوب فيها، بتفجير أطنان عديدة مرةً واحدة في منطقة تدمير خارج المستودع. وحرسَ مخازنَ الذخيرة أعضاءُ الفيلق العربي المسلحين برشاشات (برين وطومسون). ولما أَنجز (بيل) وفريقه العملَ المكلفين به رافقهم الفيلق بأمان إلى حدود مصر. ويَذكر (بيل) حادثةً

خطيرة واحدة: بعد ظهر أحد الأيام، كانت لدينا شحناتٌ من الذخيرة الأمريكية لتفجيرها، وهي طلقات من عيار كبير معبأةً فُرادى في حاويات من الورق المقوى المشمّع، وفي حالة جيدة، وبعد تفريغها كُدِّسَ الكرتون منفصلاً. لم يَدُرْ بخلدنا ولم نشكَّ بأنه ربما لن يُفرغ العمالُ العرب العاملون في المستودع الكراتينَ كلها.

فَجَّرْنا أرضيّةً من المتفجّرات سريعة الانفجار كهربائيًّا تحت غطاء جسر خرسانيّ فوق الوادي القريب، وخرجنا إلى الموقع لنرى أنجحْنا أم لم نكن من الناجحين. وإلى جانبنا، على مسافة بعيدة، دُفعتْ سيارة إسعاف فيها ضباط مدعوُّون لجولة سياحة، وحينما كنا نسير لاحظْنا أن طرف كومة الكرتون مشتعل.

الغريبُ أنّ الدّعامة كانتْ ما تزال قائمةً لمْ يؤثّر فيها الانفجار! ثمّ، قبل أن نصل إليها، انفجرت القذيفة الأولى وألقينا أنفسَنا على الأرض. لم تُفرَّغ الكراتين كلها، وتوجهتْ سيارة الإسعاف فورًا إلى الاتجاه المعاكس.

ولحسن الحظّ، انتهى أمرنا جميعًا بأمان تحت الجسر مع استمرار القذائف في الانفجار. وبينما استمرّت الشظايا تتساقط، وَقف حمار بجانب جسرنا، لكنني سُلبتُ الشجاعة لإنقاذه وشعرتُ بالارتياح لأنه لم يُصبْ بأذًى.

وفي مناسبة أخرى عُثر على (ثقوب ثعالب) صغيرة مجوّفة قرب موقع التدمير، صَنعها العرب الذين كانوا مستلقين هناك في أثناء تفجير أطنان من المواد شديدة الانفجار، يبحثون عن الذخائر غير المنفجرة والنحاس من القذائف المعطلة.

في العام 1947م، وحتّى نهاية الانتداب، كان الرّقيبُ (أليكس موناجان) كبيرَ الموظّفين في مستودع شاطئ الخياط الفرعي، لقوات سلاح عتاد الجيش الملكي. أعاقت الاضطرابات في حيفا حضورَ عديد من العمال المدنيين، فبعضهم لم يتمكن من الوصول كلَّ يوم، وآخرون يصِلون متعبين، وآخرون متأخرين.

ذاتَ يوم، وَصَلَ مراقب العمل متعبًا ومتأخّرًا، متذرِّعًا بالمشاركة في القتال ليلاً، وقد اكتَشف (أليكس) بعد مزيد من التحري أن المراقب يستأجر كلَّ ليلة بندقيةً للخروج والقتال مع إحدى فرق الميليشيات غير النظامية.

أنشئ مكتب مدفوعات مدنيّ في حيفا، يعمل فيه ضابطٌ ومجموعةٌ من الجنود، لدفع المال إلى المدنيين الذين رفضوا الدخول إلى مستودع عتاد الجيش (614) ومستودعات شاطئ الخياط الفرعية. وقد تعرَّض العمال لإطلاق نار في طريقهم.

أصبح الوضْعُ عند مستودع عتاد الجيش (614) أخطرَ بمرور الأسابيع.

وهَرَبَ العمّالُ المدنيّونَ، والعمّال اليهود خاصةً، وكانوا في الغالب موظّفين مدنيّين. ورغم ذلك كانت التعبئة والتغليف والصناديق والتحميل الشواغلَ الرئيسة، وجاء معظمُ العمال من بلدة الطيرة المجاورة. وعلى أي حال، تبين فيما بعدُ أن سجلات المخزونات فُقدت في البحر في خليج حيفا. وكان مستوى عدم الثقة بالموظفين اليهود عاليًا؛ فقد كانوا الجواسيسَ ووكلاءَ التجسس في معظم المؤسسات العسكرية.

ومن أبرز ما كان له تأثيرٌ في الأمن بأنحاء فلسطين جميعها، ما حدث في السادس من نيسان 1948م حينَ شنتْ عصابة (شتيرن) هجومًا جبانًا على الفوج الثاني عشر المضاد للدبابات المدفعية الملكية.

تختلف رواية (مناحيم بيغن) للهجوم عن رواية شاهد عيان؛ ففي كتابه (/Re-volt الثورة) يقدم تفسيرًا بطوليًا لغارة على الفوج الثاني عشر المضاد للدبابات من أجل السلب. كانت المدفعية الملكية تحزم أسلحتها لمغادرة فلسطين حين وقع الهجوم الجبان. يستخدم (بيغن) مصطلحات مبالغًا فيها مثل الهجوم «الأمامي المباشر الكامل»، و«بضع إصابات مقابل المئات»، وأصبح المعسكر كله سريعًا تحت سيطرتنا.»

قَدّم العقيدُ (ج. س. هاتش سي بي إي) روايةً لشهود عيان أصدقَ في مجلّة (ذا جانر/ The Gunner مجلةِ الأكاديمية الملكية للفنون (RA):

أُوقفَتْ ثلاثُ شاحنات للجيش عند الحاجز، وبعد لحظةٍ خرج الحارسُ نحو الشاحنة حيث يمكنه رؤية رائد فيلق خدمة الجيش الملكي يحمل بعض الأوراق، وفي مسير الحارس باتجاه غرفة الشاحنة لينظر إليهم، لم يكن يعرف –وهو في الثامنة عشرة– أنه يوشك أن يموت. أطلق أحد الصهاينة الإيرانيين في إسرائيل (IZI) النار عليه مِن بُعد قدم واحدة.

في الوقت ذاته، كان هناك مُطلِق نار آخَرُ يرتدي زيَّ جنديّ بريطانيّ، أطلقَ النّارَ على حجرة المركبة مصيبًا حارسَ رشاش (البرين). وبالكاد عُدَّ هذا هجومًا جبهويًّا مباشرًا.

حينها صرّحَ (بيغن) بأنّ «المفرزة المتقدّمة سحقت الحارس»؛ وهو مثالٌ واضحٌ على عدم قول الحقيقة كلها. يذكر العقيد (هانش) عن الحراس الأربعة الذين كانوا يتناوبون بين فتراتِ الخدمة أنهم «أُمروا بالوقوف، وجوههم إلى الجدار الأبيض، وعندما وَقفوا أُطلقت النارُ عليهم جميعًا، ولم يتجاوز عمر أي منهم العشرين سنةً»!

لمْ يكن المعسكرُ كله في أيديهم تحت سيطرتهم، وفي الواقع لم تكن العربةُ المدرّعةُ ذاتُ الثلاثينَ طنًّا بأيدي الإرهابيين، وحُملت على شاحناتهم المملوءة جزئيًّا، وهو ما أدى إلى قفز الركاب والفرار. كان العقيد في العام 1948م نائبًا بديلاً عن القائد في فوج مكافحة الدبابات الثاني عشر. لم يَظهر أو يُشاهَدْ مديرُ معاهد البحرية والجيش والقوات الجوية في المعسكرNAAFI)) مرةً أخرى بعد الخامس من نيسان.

كان يهوديًّا، والتخطيط لمثل هذا الهجوم بحاجة إلى توقيت دقيق لا يمكن أن يستند إلا على المعلومات المقدمة من الداخل.

ومن تشرين الثاني بدأ فيلق مهندسي الكهربائيّات والآليات الملكي (REME) بالإغلاق، وفي الواحد والثلاثين من كانون الثاني 1948م أُخليتْ ورش العمل في تل أبيب وبيت نبالا، ونُقل الموظفون جميعهم والخازن والذخائر إلى ورش عمل المقر

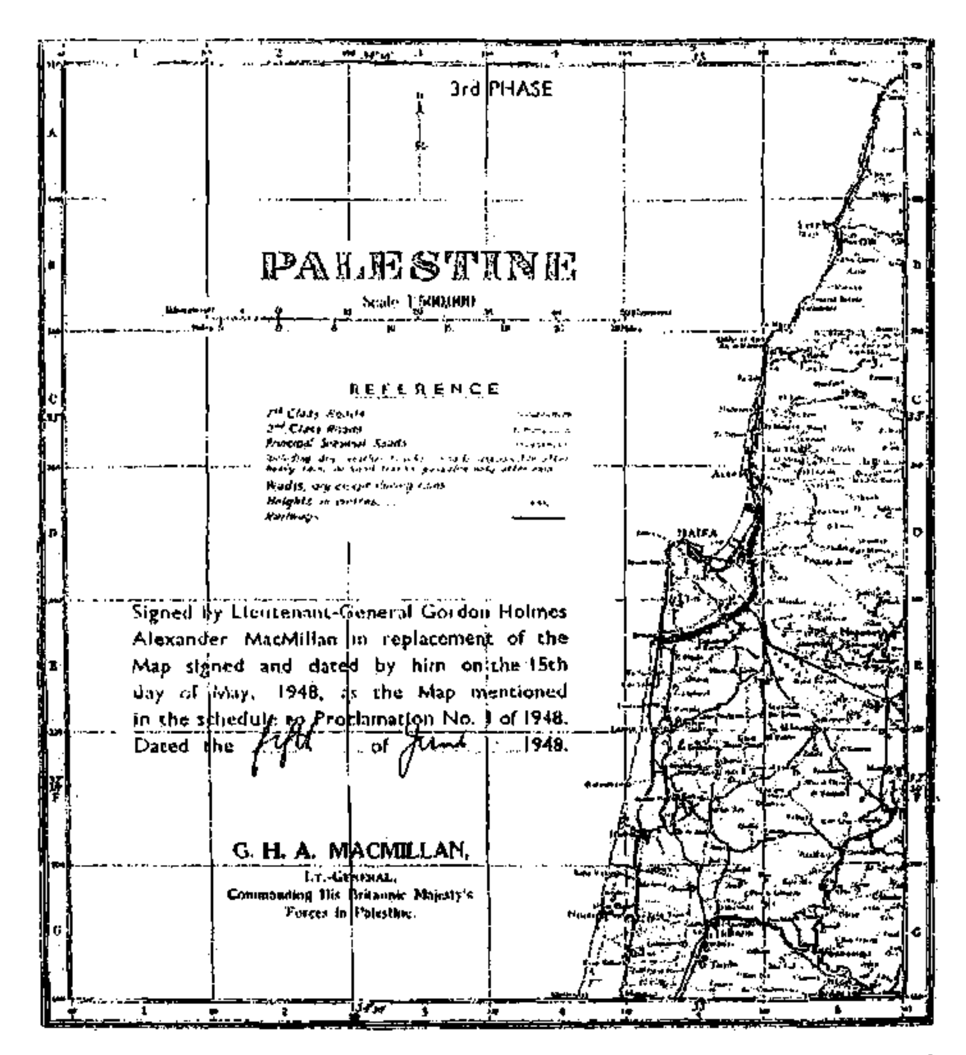
الرئيس في (كريات موتسكين). وقد أُغلقتْ ورشة شاطئ الخياط في منتصف نيسان، وسُلِّمت المباني إلى وحدات أخرى. وبحلول أيار قُطع خط سكة الحديد إلى مصر، وفي الحادي عشر من أيار كانت آخر قافلة من ورش عمل فيلق المهندسين في تل الكبير.

وباستخدام وسائل النّقل والرّافعات الخاصّة بهم، حُوفظَ على ستة آلاف طنٍّ من الآلات والمعدات وعُبِّئت ونُقلت إلى الأرصفة لتُوثَّق وتُحَمَّل. والمخزونات الفائضة غير مطلوبة، وأُعدَّتْ قائمةً بالخردة وبيعتْ محليًّا *2.

احتلّ اليهود حيفا كلها في الخامس والعشرين من نيسان، وألقى كثيرٌ من الفلسطينيّين اللومَ على بريطانيا لسماحها بحدوث ذلك وما يزال الانتداب مسؤوليتَنا. وقد صَعُبَ جدًّا على الفلسطينيين وعلى بعضنا في الوطن تخيّلُ هذا التفريغ المهول لأرض من سكّانها!!

حينما أعلنتْ بريطانيا نيّتَها في تشرين الثّاني، تُوُقِّعَ نشوبُ القتال بين اليهود والعرب، وكان اليهود يرغبون في تعزيز موقفهم الضّعيف قبل الخامس عشر من أيار، وبدأوا يرتبون نهج الإرهاب الوقائي قبل المعركة الحقيقية.

ثمّ حوّلوا انتباههم إلى عكّا رغم أنّه ما يزال لبريطانيا قوّات في المنطقة. لقد أَمطروا السكانَ بقذائف (الهاون) ليلاً ونهارًا، وأدى تفشي حُمَّى التيفوئيد إلى هزيمة سكان المدينة. وعُقد مؤتمرٌ طارئ في مستشفى الصليب الأحمر اللبناني بعكا في السادس من أيار، حضره العميدُ (بيفريدج) رئيسُ الخدمات الطبية البريطانية، وممثلون عن الجيش البريطاني، ومسؤولون من المدينة، والسيدُ (دي ميورون) من اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وانتَهَوْا إلى أن العدوى بسبب المياه، وأن هناك ما لا يقل عن سبعين إصابةً بين المدنيين. زُوِّدت عكا بالمياه بواسطة قناة من (كابري) التي تبعد عشرة كيلو مترات شمال المدينة. كانت القناة تمر بالمستوطنات اليهودية، وثمة شَكٌّ قوي في أن المياه قد لُوِّثتْ عمدًا في مرحلةٍ ما، بين مصدرها ووجهتها.



تُظهرُ الخريطة الرسمية التي صدرتْ في الخامس من حزيران 1948م المنطقةَ المتبقية التي ستُخلَى كلها بحلول التاريخ المحدد، أول آب

ألقى اليهودُ اللّومَ على قلّة النّظافة، لكنّ (دي ميورون) ذَكَرَ في تقاريره حقيقةَ الأمر، وهي حالات مرض بين الجنود البريطانيين، أُرسلوا على الفور إلى بورسعيد للعلاج. ولم يندلع المرض في أيِّ مكان آخر بين اللاجئين الفلسطينيين أو الجنود البريطانيين، حتى أولئك الذين خَدموا في مصر أثناء تفشي المرض. وقد توفي في مصر عشرة آلاف ومئتان واثنان وستون شخصًا بين أيلول 1947م وكانون الثاني

1948م، ورغم ذلك رُفضتْ رواية العرب بأنهم تعرضوا للتسمم، ولكنهم أصبحوا أميلَ للكشف عن حجم الحقد الإسرائيلي الكبير غير الإنساني!

في موقعٍ قيادةٍ مرتفع على جبل الكرمل، كانتْ محطّةُ الكاشوف (الرّادار) السادسة المحمولة جوًّا، وغرضُها مراقبة الشحن في شرق البحر الأبيض المتوسط. كان موقعًا إستراتيجيًّا تمكن منه الفيلقُ الملكي للإشارات من نقْل المعلومات الحيوية للجيش والبحرية الملكية. وفي شباط 1946م تعرضت المحطةُ لهجوم عصابة (البالماخ)، وهي فرقةٌ عسكرية على غرار القوات الخاصة من الهاجاناه. عانت المحطةُ من بعض الأضرار لكنها ظلتْ تعمل حتى الرابع عشر من أيار 1948م حينما فُكِّكت وأُلْقيت معظم معداتها في بحيرة طبرية. ذهب الطاقم السادس المحمول جوًّا إلى أرصفة حيفا للمغادرة عن طريق السّفن. ونُقلت إشارة (وحدة لاسلكيّ) بمعدات كافية إلى معسكر (لانسرس) السابع عشر والحادي والعشرين حفاظًا على الاتصال بما تبقى من الجيش البريطاني. كان العريف (آلان روز) مِن آخر مَن غادروا، وهو يتذكر إغلاقَ المحطة والأمر المحزن للمسؤول العميد (كاهون) بأن يُطلق النار على حصانه.

المراجع:

1- مجلّة الجنديّ تمّوز 1948م

2 - المرجع نفسه.

الخاتمة

إذا نظرْنا إلى الوراء وقيّمْنا خدمتَنا في فلسطين، فستتوافق الآراء في جوانب عدة. ورغم أننا تركنا وراءنا أربعةً وثمانين رفيقًا وسبعمئة، في المقابر العسكرية الفلسطينية؛ لم نعد إلى الوطن متألقين في بريق المجد! وقد عَبَّرَ عن انسحابنا الهادئ من فلسطين في القصيدة التالية ملازمٌ أول، وهو شابٌّ مجهول:

الخروج

في البحر لم تطارده مركبات ثقيلة

ولم يُرسل إلى برّ الأمان عبر ممرّ من الرّمال

رأيت الجنديّ البريطانيّ على الشّاطئ

غيرَ مثقلٍ بأسره الطّويل

لا يملك غنائم ذهبيّة من الرّبا،

ولا حتّى برتقالة زاهية في يده،

كذكرى من أرض الميعاد

لكنّه عاد ضعيفًا إلى حيث كان

وأظن أنه لن يفكّر ولو جزئيًا في

التّمرّد على قادته، أو يتذمّر

كأولئك الذين صنعوا قديمًا العجل الذهبيّ

توّاق إلى طعامٍ أفضل ونبيذ أفضل،

لن يدمدم بتهديدات ضدّ قادته أركان حرب

ولن يصرخ مرّةً أخرى لنكون في فلسطين

لم يَنته الانتداب البريطانيّ على عجلٍ كما يرى بعضُ كتّاب التّاريخ.

لقد استغرق الأمر تسعة أشهر من الإعلان في تشرين الثّاني 1947م حتّى مغادرة آخر القوات في آب 1948م. لم نهرب بسبب مطاردة حفنة من الإرهابيين كما زَعَمَ أحدُ الكتّاب. لقد كانت عمليةً لوجستيةً منظمة للغاية.

وبمرور السّنين، أصبحتْ أبعاد هذا الانسحاب واضحةً بنحو مؤلم. لقد كانت نقطةً بارزة في تاريخ الشرق الأوسط، لها أثرٌ وصدًى على مدى ستين عامًا. كانت أعمار معظمنا دون الواحد والعشرين، ولم نكن ندرك تمامًا العواقب الرهيبة. كنا على أعتاب حياة جديدة خالية من الحرب والتجنيد الإلزاميّ

بعدَ معظم الحروب تعودُ الحياةُ إلى طبيعتها، وتُتاح للنّازحين العودة إلى أراضيهم. لكنْ لم يكن الأمر على هذا النحو للفلسطينيين! فقد استغرق سنوات عدة من القمع والاستيلاء على المزيد من أراضيهم وهدم منازلهم...لكي يدرك المحاربون الفلسطينيون أن الحياة الطبيعية لن تعود إلى الأرض المقدسة.

أسبابٌ عدّة أدّتْ إلى بطْء بزوغ فجْر الحقيقة. وكانت حداثة عمرنا العقبة الأولى. وعلى مدى عشر سنوات، وبسبب الحرب والتجنيد تُمُسِّكَ بالنظام والانضباط وأُوليا أهمية كبيرة. وكان التفكير المستقل مقيّدًا. وقد تطور أسلوب الحياة العسكرية في حياتنا المدنية إلى ضربٍ من المبادئ الأخلاقية.

كان هناك عطفٌ عالميّ على العرق اليهوديّ، حتّى نحن الذين عانيْنا من عنْف الصّهاينة، لم نكنْ أقلَّ عطفًا!!

قام جيشُ المتطوّعين بواجبه خيرَ قيام، ولم يَسبقْ لجيش منذُ ذلك الحين وقبله أنْ عامل وضْعًا إرهابيًّا معاملةً مثيرةً للإعجاب كما فعلوا! وكنا نحتاج من حكومة بريطانيا حريةً أكثر لإيقاف أنشطة الإرهاب.

بعد يومين من النّشاط الإرهابيّ العنيف في خمس مؤسّسات عسكريّة وأربع هجمات على النقل العسكري، وَرد في تقرير (صنداي إكسبرس) في الأول من آذار، أنّ «بريطانيا، على النقيض من ألمانيا، لا يمكنها ردُّ الإرهاب بالإرهاب المضادّ».

ورغم ذلك، زعم (مناحيم بيغن) أنّنا واجهْنا الإرهاب بالإرهاب، بإعلان الأحكام العرفيّة في أعقاب الهجمات*1.

كيف أثّرت الأحكامُ العرفيّة في السّكّان المدنيّين؟

أُغلقت مكاتب الحكومة، وعُلِّقت المحاكم المدنية واستُبْدلتْ بها المحاكمُ العسكريّة، واحتيج إلى تصاريح خاصة للتنقل بين المناطق، وسُمح للقادة العسكريين بإنشاء محاكم لإجراء محاكمات بنحوٍ أسرع، وفُعِّل حظرُ التجول.

كان هذا الكاتب في فلسطين أربعة أسابيع فقط، حينما حدث هذا، وأنا الآن قادرٌ على مقارنة تأثيره بالتكتيكات الإسرائيلية الحالية لمكافحة الإرهاب.

يؤمن (مناحيم بيغن) إيمانًا راسخًا بأنّ عمليات الإرجون هي التي طردت البريطانيين.

ولَخَّصَ (توم سيغيف) المؤرّخُ الإسرائيليُّ الحديثُ الوضْع إذ كتب عن قوّات الأمن: «لم تكن أيديهم مقيدةً بسبب الضعف، بل بالإحساس القوي بقيود الأخلاق على السلوك القاسي تجاه اليهود».*2

وُلدَ (سيغيف) في أواخر الانتداب، وقاتل والدُه العربَ في العام 1948م. لم تُقَصَّ قصةُ فلسطين الكاملة قطُّ، وغيرُ مظنون أنْ تُسردَ أبدًا. والذي قيل مشوَّهٌ أشدَّ التشويه بالدعاية المضادة.

كان الصّراعُ في فلسطين -بين العامين: 1945 و1948م- صراعًا دمويًّا فظيعًا جدًّا، ولم يُعلن العدد الإجمالي الحقيقي لقتلى القوات المسلحة.

أشارتْ صحيفةُ (التايمز) إلى ثلاثمئة وثمان وثلاثين وفاةً من عنْفٍ ما بينَ ذينك العامين، لكن هذا لا يتفق وعدد قبور شاطئ الخياط والرملة.* 3

ذَكَرَ (بومبارديه جورج ويب) مؤلّفُ كتاب (مرثيّة لجيش من قوّات حفظ السّلام) أنّ سبعمئة وأربعة وثمانين لقوا حتفهم في السنوات الثلاث*4. حتّى بعدَ موافقة بريطانيا على الانسحاب استمرَّ القتل، وتُوفّي مئتان واثنان وعشرون آخرون قبل مغادرتنا.

ضَمَّنت (التايمز) أرقامَها مدنيّين ورجالَ شرطة بريطانيّين، ويَقتصر بحثُ (جورج ويب) على القتلى العسكريين فقط. وفضلاً عن مقتل مئتين واثنين وعشرين عسكريًّا مات واحد وثلاثون فردًا من الشرطة الفلسطينية في الأشهر الستة الأخيرة.

وكانت التّغطية العالميّة للأحداث لصالح اليهود، وكانتْ دعايتُهم فعّالةً لدرجة أنّ بعض الصّحف الأمريكيّة مَجَّدت أعمال الإرهاب ضد البنوك ومراكز الشرطة. وقد أدركت الحركة الصهيونية الميزةَ الإستراتيجية الكبيرة لحملات الدعاية التي شَبّهت الجيش البريطاني بالنازيين ورَوّجت أنّ إسرائيل حقٌّ إلهي، وأن الفلسطينيين كانوا عرقًا شرسًا.

وقد تناولت الموضوعَ فتاةٌ كانتْ محرِّرةً لصحيفة صغيرة في كاليفورنيا، وفَضحَت التّقارير أحاديّة الجانب، في الشأن الإسرائيلي- الفلسطينيّ.

ويبدو أنّ التّقارير التي كانتْ تقرأها مشوّهةٌ تشويهًا كبيرًا، فذهبتْ إلى غزّةَ والضّفّة الغربيّة لترى بنفسها رأيَ العين، ووجدتْ أنّ الوَفَيَات الإسرائيلية تُغطّى أكثرَ؛ فعلى سبيل المثال: عددُ الأطفال الفلسطينيين الذين قُتلوا في العام 2004م اثنان وعشرون، ضعف عدد أطفال اليهود! وكان أكثرَ طرق القتل استعمالاً إطلاقُ الرصاص على رؤوسهم!!

ورغم التّهديدات بالقتل، ما تزال (أليسون وير) معدّةُ التّقرير ومحرّرةُ كتاب (إذا كانت أمريكا تعرف) تفضح تشويهَ الحقائق الكبيرَ.

يَنشر المكتبُ الصّحفيّ الإسرائيليّ البيانات الصّحفيّةَ اليوميّةَ كلَّ يوم مُسوِّغةً وجهةَ النظر الإسرائيلية على كل عمل وحشي ترتكبه قواتُ الدفاع الإسرائيلية. وبالطبع، لا يسمونها فظائع، وكلُّ فعل عنيف له ما يسوّغه!

إنّ انتقادَ إسرائيل المشروعَ، سواء تعلّق بها اليومَ أو بضمّ فلسطين في النّصف الأوّل من القرن الماضي، سيُهيّج ردودَ أفعال اليهود المحليين أو الدوليين. يتعرض الصحفيون والمؤلفون لخطر أنْ يُوسَموا بأنهم معادون للساميّة إذا نشروا روايةً

عادلة وصريحة عن الوضع الفلسطيني- الإسرائيلي! خذْ حالةَ كاتبِ العمود المذيعِ (برايان سيويل) الذي نُشر مقاله في صحيفة (شمعدان المساء/ Evening Standard) بعنوان (قصص الكتاب المقدّس).

إنّ أيّ شخص كان في فلسطين قبلَ العام 1948م وشهدَ بعدَ ذلكَ: الزحفَ نحو خطّ التقسيم، وإقامةَ المستوطنات غير القانونية، وتجاهلَ القانون الدولي واتفاقيةِ جنيف، والمعاملةَ الوحشية البشعة للسكان غير اليهود فقط -لا يسعه إلا أن يتفق مع فرضية (سيويل) الرئيسة.

طُبعتْ تلك الفرضيّةُ بخطٍّ غامق أعلى الصّفحة: «في أفضل الأحوال، استعدَّ الإسرائيليّون أن يتقبلوا وجود فلسطين بلا أسنان (مستسلمة بلا سلاح). وفي أسوأ الأحوال، يرون أن التطهير العرقي هو أفضل الطرق للتخلص من هذه القضية، إذا وضعنا الدروس المستفادة من المحرقة جانبًا».

كان ذلك في تشرين الأول (أكتوبر) 2000م، واليومَ أصبح صحيحًا كما كان في ذلك الوقت. ومنذ ذلك الحين تمّ تجريفُ مزيد من منازل الفلسطينيين وتقطيعُ وقلعُ مزيد من أشجار الزيتون.

لقد قُتلَ أطفالٌ فلسطينيّون وهم في طريقهم إلى المدرسة، وقَتَلَ القنّاصةُ الإسرائيليّون جنود حفظ السلام، واستُولي على مزيد من الأراضي لتحويل الجزء المتبقي من بلادهم إلى سجنٍ بجدار مرتفع ثمانيةَ أمتار.

أَثار مقالُ (سيويل) غضب القرّاء اليهود، ومنهم (دي جي. شنيويز) الملحقُ الصحفي الإسرائيلي. وفي السادس من تشرين الثاني 2000م وضّح تعليقٌ تحريريّ موجز وجهةَ نظر الصحيفة في هذا الموضوع، وقد وَضع -حقًّا- مسألةَ معاداة الساميّة موضعَها الصحيح.

أوضحت الصّحيفةُ النّقاطَ التّالية: «نرحّب بالنّقاش القويّ البليغ. نحن لا نستغرب من أنّ بعض النّاس، أو معظمهم، لا يتفقون مع السيد (سيويل)، ولكنْ سيكون يومًا محزنًا لنا جميعًا إذا بدا أن اليهود البريطانيين، أو جزءًا منهم، كانوا يطالبون بأن يصان سلوك الحكومة الإسرائيلية ولا يخضع للتحليل والنّقد الذي تخضع له إداراتُ العالم كلها، ومنها إدارتنا».

وخَلُصَ المقالُ إلى أنّ «الحكومة الإسرائيليّة تنتهج سياسةً مثيرةً للجدل كثيرًا تجاه الفلسطينيين، ينتقدها كثير من اليهود وغيرهم. ويحق للسيد (سيويل) أن يبدي رأيه. وسوف نتمسك دائمًا بحقه في التعبير عن ذلك».

قد يَتوقّع البعضُ أنْ يكون سلوكُ إسرائيل مسيَّجًا ومصونًا، وأنّ بعض قدامى المحاربين في فلسطين أُوعز لهم سابقًا في أثناء خدمتهم لحمايتها أو صونها. الغضبُ في ذلك الوقت بدأ يتلاشى وفُتح المجال لذكريات الرفاق السعيدة والمغامرة.

في العام 2004م اغتنَم قدامى المحاربين البريطانيّين في فلسطين الفرصةَ لتقديم كلّ مساعدة ممكنة لهيئة الإذاعة البريطانية في سلسلة محاربي الإمبراطورية (Em-pire Warriors) التي تضمنت الصراع الفلسطيني. والفلمُ الذي أنتجوه خيبةُ أمل بل أضلُّ سبيلاً، وقد تُجُوهِلَ مدةً طويلةً، واتضح بعدُ أنه استخفَّ بضبط النفس العالي لجيشٍ كان تحت استفزازِ عدوٍّ مُخادع.

على مدى ثلاث سنوات مريرة، هاجم الإرهابيّون ليلاً مراكز الشرطة والأهداف السهلة. وكما تُوُقِّعَ، لم تَعْرض هيئة الإذاعة البريطانية سوى الحوادث الرئيسة الثلاثة التي صدمت العالم، وهو ما مَنح الزعيمَ الإرهابي (مناحيم بيغن) وعصابته فرصًا لا حصر لها على مرّ السنين لصقْل روايته للأحداث. ولم تُبْد المتحدثةُ باسم الإرهابي ندمًا على انفجار فندق الملك داود الذي أودى بحياة مدنيين أكثرَ من العسكريين!

ومن ناحية أخرى، ظهرتْ (إيرين لويس) -التي كانتْ في العام 1946م العريفةَ

(إيرين آموس)- كاتبةً في الجناح العسكري لفندق الملك داود: ظهرتْ -بوضوح- ضدَّ ما قالتْه المتحدثة الإرهابية، فاستعادت الحدث بجلاء مرةً أخرى، بما فيه من حزن ورعب.

بعدَ البرنامج، أُعجبَ بها النّاس الذين اِلتقتْهم، وأصبحوا مطّلعين اطّلاعًا أفضلَ على الموضوع.

ثمّة خطرٌ من حقائقَ مثبتة تاريخيًّا بوضوح، وقد تُحذف بمرور الوقت من السّجلّات لأسباب سياسية، وهذا ضربٌ من الانحطاط الأخلاقي. دَفعَت الأحداثُ الجارية حكومةَ جلالتها لإبداء مزيد من الاعتبار للمحاربين القدماء، من الصراعات الماضية. وكثيرًا ما قيل: «وضع الأشباح». كلّ شبح ما عدا شبحَ المحاربين في فلسطين. وشبحُ مشكلة فلسطين يحوم حول أزمات اليوم في منطقة الشرق الأوسط.

وحينَ يُمنح صراعنا الاعترافَ الذي يستحقّه مع نتيجةٍ مرضية وعادلة لمشكلة فلسطين؛ حين ذلك فقط، لنْ يَذهب موت رفاقنا سدًى.



المراجع:

1- الثّورة

2- فلسطين موحّدة كاملة

3- (التايمز) المذكورة في مثلّث فلسطين

4- مرثيّة لجيشٍ من قوّات حفظ السّلام، جورج ويب، أركتوروس برس 2005م.